القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين • يناير - فبراير 2005



ملف العدد

مكة التي نعرفها..
مكة التي لا نعرفها

الجراد يأكل الأخضر

عالم الوجبات السريعة

العدد 1
المجلد 54

معارض ومؤتمرات

يناير 2005

- المؤتمر العالمي للتربية
  البحرين: 6 - 8
  هاتف: 97339593274+
  فاكس: 97317311228+
- معرض الظهران الدولي السابع
  الظهران: 10 - 16
  info@dhahran-escpo.com
- المؤتمر المصري الثاني للبتروكيماويات
  القاهرة: 10 - 11
  conferences@meed-dubai.com
  http://www.meed.com
- مؤتمر بتروتك
  نيودلهي، الهند: 15 - 19
- منتدى الاقتصاد العالمي
  دافوس، سويسرا: 27 - 30
- معرض أساسيات التسويق في بيئة تنافسية
  الخبر: 29
  director@indecoline.com
- معرض البيئة والطاقة 2005
  أبو ظبي: 30 - 2 فبراير
  gec@emirates.net.ae
  http://www.gec.co.ae

فبراير 2005

- ندوة مستقبل المعلوماتية والاتصالات
  دبي: 1
  futuretechnologies@web.de
- المعرض العاشر للتجارة الإسلامية
  البحرين: 5 - 9
  A.Rahim@bahrainchamber.org.bh
  http://www.bahrainchamber.org.bh
- لجان بحوث الطاقة بكامبريدج (CERAWEEK 2005)
  هيوستن، الولايات المتحدة الأمريكية: 14 - 18
- منتدى جدة الاقتصادي
  جدة: 19 - 21
- المعرض السادس لتكرير الزيت والبتروكيماويات
  دبي: 20 - 21
  marketing@theenergyexchange.co.uk
  http://www.theenergyexchange.co.uk
- المعرض العاشر للهندسة الكهربائية وتوليد الطاقة
  الرياض: 20 - 24
  esales@recexpo.com
  http://www.recexpo.com
- مهرجان فبراير
  الكويت: 23 - 4 مارس
  info@kif.net
  http://www.kif.net

القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
عبدالله بن صالح بن جمعة

نائب الرئيس لشؤون أرامكو السعودية
مصطفى عبدالرحيم جلالي

مدير العلاقات العامة
ناصر بن عبدالرزاق النفيسي

رئيس التحرير
محمد عبدالعزيز العصيمي

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

سكرتير التحرير
عبود عطية

فريق التحرير
حبيب آل محمود
محمد أبو المكارم
مأمون محيي الدين
محمد الفوز
رولان قطان (بيروت)
ماجد نعمة (باريس)
رياض ملك (لندن)

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع السروات، جدة

ردمد ISSN 1319-0547
- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير
- ما ينشر في القافلة لا يعبر بالضرورة عن رأيها
- لا يجوز إعادة نشر أي من موضوعات أو صور «القافلة» إلا بإذن خطي من إدارة التحرير
- لا تقبل «القافلة» إلا أصول الموضوعات التي لم يسبق نشرها

محطات العدد

يناير - فبراير 2005
ذو الحجة 1425 - محرم 1426

توزع مجاناً للمشتركين
- **العنوان:** أرامكو السعودية
  ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
  البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa
- **الهواتف:** رئيس التحرير 7321 874 3 966+
  فريق التحرير 0607 897 3 966+
  الاشتراكات 6948 874 3 966+
  فاكس 3336 873 3 966+

رسالة المحرر

كتّاب يقرأون وقرّاء يكتبون.. هذا هو جديد بريد القراء. لقد تمت توسعة هذا الباب الذي يحظى بموقع خاص في القافلة ليصبح ست صفحات، فيضم إلى جانب الرسائل القصيرة رسائل أطول هي تعليق أو رد يتناول موضوعاً من موضوعات الأعداد السابقة.

1 طاقة واقتصاد

أما مناخ الطاقة والاقتصاد فيبدأ بتناول مفهوم التواصل مع المجتمع ذي الرنين الخاص في أعمال الشركات الناجحة، والنافذة في وسطها الاجتماعي. في أرامكو السعودية يتنامى هذا المفهوم عاماً بعد عام؛ ليتجسد في العديد من الأنشطة والفعاليات. فكيف بدأت ممارسة هذا المفهوم منذ سبعين عاماً؟ وإلى أين وصل اليوم وقد قطع المجتمع السعودي أشواطاً تنموية كبيرة؟.

أما الموضوع الثاني في هذا المناخ فيجيب عن التساؤلات التي تثيرها البورصة بالنسبة إلى الذين



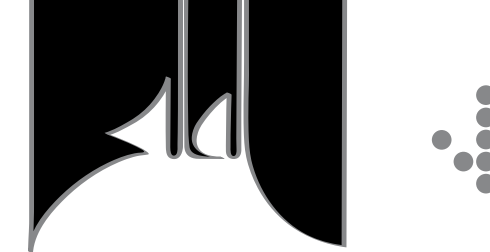
لا يعرفون عنها أكثر مما يشاهدونه في التلفزيون. فما هي البورصة؟ وكيف تعمل؟ وكيف نشأت ووصلت إلى شكلها الدولي الحالي؟ وما هي الشركات التي تستفيد منها؟ وكيف تتغير أحوالها فتحدث كوارث تجارية واقتصادية أحياناً؟

2 قضايا

وفي مناخ القضايا محاولة للإجابة عن السؤال ما إذا كان انتشار منتديات الحوار على شبكة الإنترنت يشير إلى وجود قصور في الصحافة الورقية في المملكة؟ يبرز هذا السؤال مع تنامي أعداد المواقع الحوارية وصناعتها لهامش من الحرية لا تستطيع وسائل الإعلام التقليدية مجاراته. فما هو التفسير المنطقي لانتشار ما يمكن أن يُسمى "المحاور الخفي"، وهل نجحت المنتديات في التأسيس لثقافة الحوار بين مختلف الفئات؟.

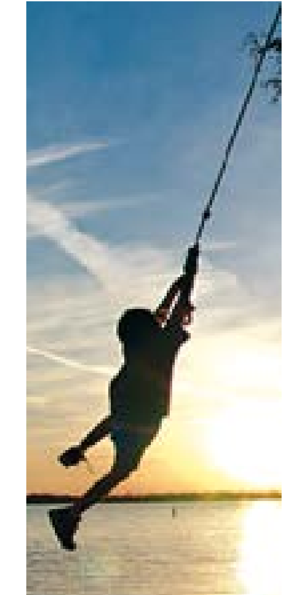
3 علوم وبيئة

خلال الصيف الماضي داهمت أسرابه عدداً من البلدان العربية، ولم يوقفه إلا برودة الخريف. وليست هذه هي النهاية؛ ففي المستقبل الكثير من المفاجآت التي تؤكد أن الإنسان سيبقى ضعيفاً أمام النهم المتجدد للجراد..!

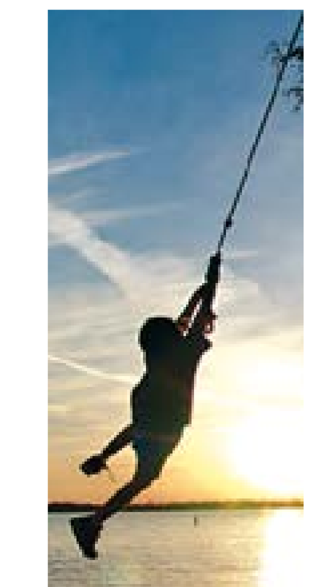


"بيننا عيش وملح".. هذا ما يقوله المثل الشعبي؛ حين يحتاج أي منا إلى تأكيد علاقته بصديقه، أو جاره أو زميله. ولكن هذه المادة الضرورية في موائدنا لها تاريخها الخاص، وترتبط باقتصاديات وأعراف شعوب. وتاريخ الملح وخصائصه هو موضوع العدد في مجال العلوم.

الملف المصور







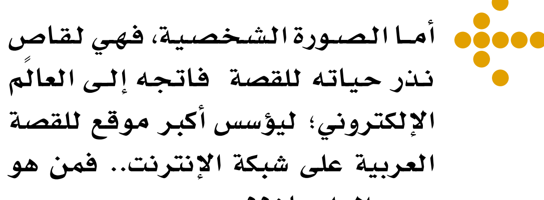
يتزايد عدد الشباب المصورين الذين يحملون كاميراتهم إلى كل مكان بحثاً عن مشهد أو لقطة يحتفظون بها لأنفسهم أو للناس. الملف المصور لهذا العدد أشبه بسلسلة من الصور تلاحق مشهداً متصلاً عاشه المصور في آخر لحظات الغروب.

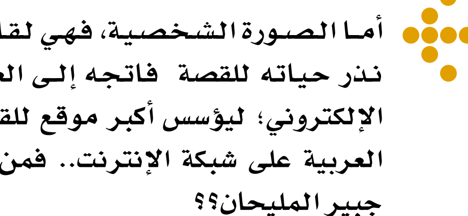
4 الحياة اليومية





قد تكون ثقافة "الوجبات السريعة" أمريكية المنشأ والانتشار. ولكنها اليوم لم تعد حكراً على مصدرها. ومع تصاعد الموجات الاحتجاجية الدولية ضدّ ثقافة "الوجبات السريعة"، كان لا بد من طرح قضيتها، واستكشاف آفاق المستقبل الذي ينتظرها.





أما الصورة الشخصية، فهي لقاص نذر حياته للقصة فاتجه إلى العالم الإلكتروني؛ ليؤسس أكبر موقع للقصة العربية على شبكة الإنترنت.. فمن هو جبير المليحان؟؟

5 الثقافة والأدب

تناول الموضوعات التاريخية هو من أهم المجالات السينمائية والتلفزيونية. فكم من الأحداث التاريخية هي في نظر الناس وفهمهم ما رأوه على إحدى الشاشتين. لكن كم قربت الأفلام التاريخية التاريخ إلى الناس، وكم ذهبت بالتاريخ بعيداً عن الحقيقة؟! موضوع السينما التاريخية يحاول أن يجيب على هذه الأسئلة.



6 ملف العدد

وختاماً نصل إلى ملف العدد: قبلة المسلمين.. ومهبط الوحي الإلهي.. وأقدس بلاد الله على وجه البسيطة.. إنها مكة المكرمة التي يعرفها كل منا. لكن "القافلة" تفتح ملفاً لهذه المدينة المقدسة وتستعرض فيه مكة التي لا نعرفها.. لمناسبة إعلان مكة المكرّمة عاصمة للثقافة الإسلامية للعام المقبل.

المحرر

الرحلة معاً

سنة اقتصادية كبرى

كانت المتغيرات الاقتصادية في المملكة لسنة 2004م واضحة في بعضها، ومفاجئة للمحللين في بعضها الآخر، لكن ما اتُفق عليه في النهاية هو أن هذه السنة استثنائية، اقتصادياً وصناعياً.

السنة الهجرية الجديدة قاب قوسين، بينما انصرمت سنة 2004 ميلادية، بعد أن اختتمت سعودياً بمشروعين صناعيين عملاقين هما: مشروع الجبيل 2 المستقبلي، ومشروع معامل الإنتاج في القطيف. ما يعني أن تلك السنة التي شهدت أهم موازنة منذ سنوات هي سنة سعوديةاقتصادية كبرى. ولربما فاجأت هذه السنة بعض قرّاء الشأن الاقتصادي، محلياً ودولياً، بتطوراتها، بينما أعاد كثيرون قراءة أوضاع المملكة الاقتصادية والاستثمارية والصناعية، بعد أن ابتعدوا مسافة كبيرة عن أسباب تشاؤمهم، وفتحوا عيونهم أوسع على مكتسبات العام الفائت.

فعلى الرغم من تلك الحوادث الأمنية التي ترتكبها فئة لا همّ لها سوى التخريب والتدمير، فإن المسار التنموي في المملكة لم يعبأ بهذه الارتكابات، بل وضعها في حجمها الحقيقي، من مبدأ الثقة بإرادة الوطن والمواطن، التي هي أقوى دائماً من كل ما تُبيته خفافيش الظلام وقُوى العبث. ولذلك كان صعباً على بعض المفتشين في الحالة الاقتصادية السعودية أن يفسّروا ثقة المواطن الزائدة بسوق الأسهم، مثلاً، حيث سجَل المؤشر السعودي أعلى نسبة في تاريخه بارتفاع بلغ 85 في المئة، كما شهدت هذه السنة طرح شركات مساهمة عن طريق الاكتتاب العام الذي تجاوز التوقعات في إقبال المواطنين عليه. حدث ذلك في الوقت الذي ظلّت بعض وسائل الإعلام ترسل رسائل مضخمة، تحاول عبثاً من خلالها أن تشكك في الحالة الأمنية.

الإنسان هنا في المملكة، وفي غيرها من أصقاع المعمورة، جُبل على السعي في مناكب الأرض طلباً للرزق؛ ليظفر منه بأوفره وأفضله. ولذلك تجد الأمم تتسابق إلى إرساء حقائق وجودها الاقتصادي، باذلة في سبيل ذلك الكثير مما تملكه من أموالٍ وطاقاتٍ طبيعية وبشرية.

وإذا كان هذا الإنسان، هنا وهناك، قد انشغل لعقد أو عقدين من زمن القرن الماضي بإيديولوجيات سياسية أخذته أشواطاً بعيدة عن حياته المعيشية الاقتصادية، فإنه عاد، ممثلاً بالحكومات والمؤسسات، بقوة، لينفخ الروح في هذه الحياة، ويمنحها كامل اهتمامه، بعد أن تعلّم أن الإلهاء السياسي لا يُطعم خبزاً ولا يبني مدرسة أو مستشفى، ولا يضمن في النهاية حياة كريمة لأبنائه.

الدول آباء والشعوب أبناء، وقد تعلم الآباء أو بعضهم، (حتى لا نصاب بالتعميم) أن يطيلوا القراءة في الكتاب الاقتصادي على حساب السياسي. وبينما تهدَّمت جدران أيديولوجية وسياسية ونشأت أسواق رأسمالية في مناطق كانت محكمة الإغلاق، انفجرت المكتبات ومواقع الإنترنت بالموضوع والقراءة والتحليل الاقتصادي. تحولت الحكومات (الآباء) والشعوب (الأبناء) سريعاً إلى سباق اقتصادي هائل ليس فيه للأيديولوجيا مسافة شبرٍ واحد.

ولذلك اعتبرت هذه الدولة أو تلك، حسب قراءات بيوت الخبرة العالمية، متقدمة أو متأخرة، فائزة أو خاسرة. ومدار الحكم على تقدمها أو تأخرها هو حجم عجلتها الاقتصادية وسرعة دورانها.

المملكة ضمن دول عديدة، استوعبت جيداً أسباب التقدم والتأخر في عالم اليوم. ويبدو أنها قرأت ملياً شروط حضور الدول بين الحاضرين في القرن الجديد؛ ولذلك بادرت إلى جملة قرارات اقتصادية واستثمارية في السنوات القليلة الماضية، ليس هنا مجال تفصيلها. وفي الوقت نفسه أدارت عجلة العديد من المشروعات الاقتصادية الصناعية الكبرى؛ لجذب الاستثمارات، واستيعاب المزيد من الشباب والشابات في وظائفها الإدارية والفنية، ولإتاحة فرصٍ جديدة أمام السوق المحلية في أعمال التوريد. وقد كان مشروعا القطيف والجبيل بشارة جديدة للمستقبل، اختتمت بهما سنة حافلة اقتصادياً.

رئيس التحرير



قافلة القرّاء

إلى.. رئيس التحرير

ترحِّب القافلة برسائل قرائها وتعقيباتهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

القافلة و"أرامكو وورلد"

سعدت باستلام أحد أعداد مجلة القافلة، ومجلة S. Aramco World، وقد بعث لي بهما صديقنا الفاضل الأخ سعد بن عبدالعزيز السيف، ويهمنا كثيراً أن نستلم الأعداد القادمة من هاتين المجلتين.
القافلة؛ لكي تحفظ ضمن مقتنيات مكتبة مركز البحوث والدراسات الكويتية، والأخرى S.A. World للاطلاع الشخصي، نظراً لما تحتويانه من معلومات ومقالات مفيدة تدل على مدى حرصكم على إظهار الوجه المشرق لبلدكم الكريم ولشركتكم الرائدة، هذا، ونحن على استعداد لدفع الرسوم المطلوبة.
وتفضلوا بقبول وافر التقدير والاحترام.

د. يعقوب يوسف الحجي
المستشار بمركز البحوث والدراسات الكويتية

القافلة: يسعدنا اهتمامكم بمجلات أرامكو السعودية التي ستصلكم مجاناً بانتظام بإذن الله.

الأولمبياد

قد أجهل حقيقة متى كانت أول مرة يطرق أذناي اسم مجلة "القافلة"، كإصدار ثقافي اجتماعي متصدر عريق.
ولكني لا أعتقد أني سأنسى من قدّم إليَّ إصدارها الرابع بعد الخمسين، لألقي نظرة على ملف (الأولمبياد تعود إلى أولمبياد)، وقد أكون تماديت واستُدرجت في تقليب الصفحات متنقلاً من ملف إلى آخر حتى أخذ جل المجلة بصفحاتها نصيبها من الاهتمام، ولا أحتاج تبريراً لذلك.
أشكركم أولاً على هذا الجهد والعطاء، وهذا التقديم التثقيفي البديع، ولا يسعني إلا طلب وأرجو أن يتم قبوله. أن تتم إضافة بريدي لقائمة المشتركين، حتى يتسنى لي الحصول على هذا الإصدار الثقافي بانتظام.

فهد بن حمود الغربي
الدمام

القافلة: أضفنا اسمك إلى لائحة المشتركين، وستصلك القافلة بانتظام، إن شاء الله.

أين ترجمة الشخصيات

يسعدني أن أقرأ القافلة لما فيها من موضوعات متنوعة تثري العقل وتُمتع الروح. وبين يدي الآن عدد سبتمبر - أكتوبر 2004م، وقد أعجبتني كافة موضوعاته، خاصة "مصير المكتبات الخاصة". ولدي اقتراح أرجو دراسته وتحقيقه إن رأيتموه جديراً بالاهتمام، وهو أن يشتمل كل عدد على ترجمة لأحد العلماء وروّاد الفكر العربي في شتّى مجالات المعرفة، على أن تكون موسعة قدر المستطاع. كما أرغب أيضاً في أن أكون مشتركاً في مجلتكم الموقرة.

محمد عبدالحفيظ أحمد مفتاح
طنطا، مصر

القافلة: أحلنا عنوانك إلى قسم الاشتراكات. أما الاقتراح فسيبحثه فريق التحرير للنظر في إمكانية إضافته إلى المجلة.



ردود خاصة

إلى الأخوة:

- **الدكتور محمد جمال حسني، مصر:** المشكلة هي فعلاً في ضيق المجال، وليست في الرضا عن هذه المادة أو عدمه.
- **عبدالرحمن سراج منشي، مكة المكرمة:** وصلتنا رسالتك، ونشكرك على ما تكنّه للقافلة من محبة وتقدير.
- **غادة فهمي عباس، مصر:** سبقك الزميلان كميل حوّا وخالد الطويلي إلى طرح موضوع التلفزيون في القافلة، ومن زاوية قريبة جداً من زاويتك. نأمل استمرار التواصل.
- **مركز أبو بكر الصديق في دلهي، الهند:** ستصلكم أعداد القافلة تباعاً إن شاء الله. أما الكتب التي تطلبونها فهي غير متوافرة لدينا، وعليكم الاتصال بالناشرين والموزعين.
- **مركز المرأة السعودية الإعلامي، الرياض:** وصلتنا رسالتكم، ويسرنا مد جسور التواصل مع مركزكم في مجالات التطوير الإعلامي وتوسيع الانتشار والتميز.

معشوقة العائلة

هذه قصة حب مستمرة منذ أكثر من ثلاثين عاماً، قصة محبة عائلة بكل أفرادها لمجلة ثقافية علمية تعتبرها هذه العائلة أفضل مجلة عربية باللغة العربية. هذه الصلة وهذه الألفة يعود تاريخهما إلى عام 1394هـ، عندما كان الشيخ عبدالحميد مظاهري - يرحمه الله - يتلقى العلم في رحاب الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وأحضر ذات يوم معه عدداً من مجلة "قافلة الزيت" - الاسم القديم للمجلة - الصادرة عن شركة أرامكو السعودية في الظهران.
لقد كانت مصادفة أن يجد الشيخ عبدالحميد هذا العدد في صندوق بريده بالخطأ، فاطلع عليها.. ومنذ تلك اللحظة وقع في "حب" هذه الحسناء..!
ولم ينحصر أمر هذه المحبة في الشيخ عبدالحميد فقط، بل غرس الشيخ هذه المحبة في نفوس أبنائه وبناته الذين كانوا جميعاً في سن الطفولة آنذاك.
وبحكم كون الأطفال صغاراً في تلك الفترة؛ لم يتمكن الشيخ عبدالحميد من الاحتفاظ بهذه الأعداد من "قافلة الزيت". ولعل الشخص الذي كان يزوِّده بالمجلة هو الذي كان يسترجعها في تلك الفترة. ولكن منذ عام 1402هـ، بدأ مشروع الاحتفاظ بالمجلة للاستفادة من موضوعاتها المتخصصة. وهكذا جُمعت المجلة في "صناديق" بعناية، ونقلت من منزل إلى آخر مع انتقال العائلة؛ لأنها لم تكن تملك بيتاً خاصاً. وكان جميع أفراد العائلة يستفيدون من هذه الأعداد المحفوظة.
ولكن الوقت لم يسمح لأحد من هؤلاء بأن يقوم باختيار هذه الموضوعات وجمعها في صورة محفوظة حتى عاجلت الشيخ عبدالحميد منيته في عام 1402هـ، وتجسيداً لمحبته لهذه المجلة وتحقيقاً لأمنيته قمتُ بمساعدة من أخواتي بعملية اختيار الموضوعات ومن ثم فرزها وتصفيتها والاحتفاظ بها في ثلاثة مجلدات ضخمة زيّنت رفوف مكتبة الوالد -رحمه الله-، وذلك في شهري ربيع الآخر وجمادى الأولى من عام 1421هـ، بعد عمل شبه متواصل، فكانت الثمرة 298 مقالاً مختاراً بعد قراءة أكثر من ألف مقال، تم تصنيفها حسب الآتي:
إسلاميات: 9 مقالات، الإنسان وأسراره: 16 مقالاً، التاريخ والآثار والتراث: 54 مقالاً، البلدان والمدن: 21 مقالاً، الطب وعلم الأحياء: 39 مقالاً، عالم الحيوانات: 33 مقالاً، النباتات: 8 مقالات، المعدن والصناعات: 15 مقالاً، الاقتصاد: 7 مقالات، أبحاث النفط والطاقة والفيزياء: 21 مقالاً، الأرض ودراساتها: 22 مقالاً، علوم الفضاء: 39 مقالاً، منوعات: 14 مقالاً.
وهذه المجموعة من المقالات هي في خدمة العلم والعلماء والباحثين مع حفاظ تام لحقوق المجلة، فقد تم تثبيت المعلومات المتعلقة باسم المجلة، ورقم العدد، وتاريخ صدوره وأرقام الصفحات، وأسماء المؤلفين بكل أمانة ودقة. كما تم إثبات اسم المجلة واسم الجهة الصادرة عنها على الصفحات الأولى من المجلدات الثلاثة.
ونرجو بذلك العرفانَ بالجميل لهذه المجلة التي تربينا على حبها، وسنربي الأجيال القادمة على الوفاء لها -إن شاء الله-، فلا تزال عائلة الشيخ عبدالحميد مشغولة بجمع الأعداد الجديدة من هذه المجلة، وبعد عقد أو عقدين سوف يتم حفظ المختارات منها أيضاً في صور مجلدات بإذن الله.

د. محمد عامر عبدالحميد مظاهري
المدينة المنورة

نأمل بالمزيد

تسلمنا ببالغ الشكر والتقدير المجلد رقم 52 من مجلة القافلة، الذي يحتوي على خمسة أعداد هي مجموع الأعداد التي صدرت في العام 2003م، والمُهدى إلى المكتبة المركزية بالدمام.
نود أن نشكر لكم بهذه المناسبة إهداءكم القيّم الوافر بالمعلومات المهمة والقيّمة والتي تخدم جميع الباحثين، وذلك في مجال توفير المعلومات لهم، سعياً منكم إلى وضع هذه المعلومات بين أيدي جميع المهتمين والمتخصصين.
كما نأمل التكرم بتزويدنا بالأعداد السابقة إضافة إلى كل المجلدات التي ستصدر لاحقاً من القافلة. شاكرين ومقدرين حسن تعاونكم

د. فارس بن عبدالعزيز الفرائضي
جامعة الملك فيصل، الدمام

بثينة

أخذوا بثينةَ
والطفولةَ والأماني كلها..
نحو الضبابْ..!

دفنوك أيتها الحبيبةُ
صرتُ أفترش الترابْ

وأذوبُ في الذكرى
وأعتصر الدموعَ..
تطيرُ من عينيْ إلى أفق السحابْ

دفنوك أيتها الحبيبةُ
صرتُ أحتضن الخيالْ..!

آوي لغرفتك التي ارتسمت ملامحك
الطريةُ
في زواياها ولوّنْتِ المحالْ..!

هذا سريركِ في المساءْ
من بعد عينك في خواءْ
والصمتُ يوقظني
ويُنطق فيّ أيام اللقاءْ
وتعود ذاكرتي إلى كل التفاصيل
الحبيبةِ
كالضياءْ..!
وأراكِ من خلف البكاءْ
تترفعين على الشقاءْ
وتصارعين الآه.. تأبين الدواءْ..!

فلتستريحي الآنَ في حضن القضاءْ
ما زلتِ في كل التفاصيل الحبيبة زهرة
بيضاءَ بللها الصفاءْ

شريفة علي العبدالمحسن
جامعة الملك فيصل

قافلة القرّاء

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش مواضيع طرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قراء القافلة مدعوون للمساهمة في هذه المناقشات على أن تكون كلمات المشاركة ما بين 300 و 600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة لذلك.



حول التلفزيون متهماً: هل فقد الإنسان حقه بإعلام سليم؟

انطلاقاً من ملف "القافلة" حول التلفزيون وتلفزيون الواقع.. كيف علينا كعرب أن نحمي أنفسنا من التلوث التلفزيوني؟



لعل المقالين اللذين كتبهما الزميلان كميل حوا، وخالد الطويلي عن "التلفزيون" وبدا الواحد منهما مكملاً للآخر، يفتحان من جديد باب النقاش حول قضية هي من أبرز القضايا الملحة في عالمنا العربي كما في العالم قاطبة. فالشاشة الصغيرة التي كانت تمثل في السابق حيّزاً ضئيلاً على هامش الحياة المعاصرة أصبحت الآن في "صميم" الحياة هذه وعنصراً من عناصرها الأساسية. إذ لم يعد المنزل يقوم من دون هذه الآلة ولم تعد العائلة "تكتمل" بعيداً من وهج الشاشة الملونة، والتي كانت تسمى سابقاً بـ"الفضية".

كان التلفزيون في الأمس القريب، خصوصاً في الستينيات، أشبه بالآلة الصامتة التي تزيّن الصالون أو غرفة الجلوس طوال النهار ثم تضاء في الليل لتجتمع العائلة أمامها وربما أهل الحيّ أحياناً، صغاراً وكباراً. حينذاك كانت العائلات التي تملك تلفزيوناً قليلة، وكان هذا التلفزيون يبدو كأنه ملك الحي كله. وعلى رغم قلّة الساعات التي كان يبث فيها وندرة البرامج المصوّرة كانت مشاهدة التلفزيون أمراً غير عادي وفرصة يجب عدم تفويتها... هذا ما أثاره أيضاً كميل حوا في مقاله قائلاً: "يستغرب المرء كيف كان عدد المحطات أقل بكثير آنذاك، كانت هناك برامج وطنية وأجنبية أجمل وأكثر إفادة وارتباطاً حقيقياً بالحياة. ولا يكاد يفقه أحدنا ما يبرر هذا "الانفلاش المحطاتي" إذا جاز التعبير، المصحوب بهذا الشحّ في البرامج".

أين كان التلفزيون وأين أصبح؟ اختلفت اليوم هذه الآلة عما كانت عليه في السابق. أصبح التلفزيون تلفزيونات عديدة، والشاشة الفضية الصغيرة شاشات لا تحصى. وبات المشاهد، الجالس أمام الشاشات المتعددة، يشعر كأنه يملك "الفضاء" عبر "الريموت كونترول"، هذا الجهاز الصغير الذي يتيح له أن ينتقل من دولة إلى أخرى، ومن عاصمة إلى أخرى، عبر كبسة زر، عابراً حدود الجغرافيا والتاريخ... إلا أن كثرة المحطات والبرامج لن تعني أن المشاهد لا يصاب بالسأم... ولا غرابة أن يصبح كبس أزرار "الريموت" هو بذاته طريقة للتسلية والمشاهدة المبتورة.

يقلّب المشاهد المحطات رغماً عنه، ويمنّي نفسه ببرنامج ما يظل يبحث عنه ولا يجده! هكذا يقول كميل حوّا: "الناس هذه الأيام يزدادون ضيقاً من فقر المادة التلفزيونية كلّما ازداد عدد المحطات التي توفرها لهم صحون الالتقاط. وأخذ الكثيرون في مختلف أنحاء العالم، يعبّرون عن تبرّمهم بجملة واحدة: "تجلس أمام جهاز التلفزيون وفي يدك جهاز التحكم وتقلّب مئات المحطات من دون أن تجد برنامجاً واحداً يستحق المشاهدة فعلاً".

بدعة تلفزيون الواقع

إنها بدعة جديدة حقاً هذه التي تسمى "تلفزيون الواقع"! ترى ما المقصود بهذه المقولة؟ هل كان التلفزيون في يوم ما بعيداً من الواقع، حتى تطلق عليه هذه التسمية الجديدة؟ لكنه "منطق الربح" يحوّر الحقيقة (لئلا أقول يزوّرها) من أجل ترسيخ الطابع الاستهلاكي للتلفزيون.

ومثلما يقول خالد الطويلي ليس "تلفزيون الواقع" إلا "أمراً قديماً متجدداً"، والدليل هو برنامج "الكاميرا الخفية" الذي كان من البرامج الأولى في الحقل الواقعي. ولكن ما يجب ذكره هنا أن "الكاميرا الخفية" تلتقط مشاهد لأناس يجهلون أنهم يُصوّرون أو أنهم أمام لعبة تلفزيونية، فيما أناس برامج "تلفزيون الواقع" يعلمون بأنهم محاصرون بكاميرات عدة تلتقط تفاصيل حياتهم اليومية وحركاتهم وأفعالهم. ويصيب خالد الطويلي "جوهر" المسألة عندما يتطرّق إلى "المردود المادي" لمثل هذه البرامج. فإضافة إلى المدخول الإعلاني هناك "مداخيل المكالمات الهاتفية التي تستقبلها هذه البرامج لتسجيل تصويت المشاهدين ومشاركتهم". واللعبة هذه مفضوحة ومعلنة، لكن المشاهدين الذين يمضون بها لا يبالون إلا بتوصيل أصواتهم وفي ظنهم أنهم يمارسون عملاً ديمقراطياً فيما يختارون.

ويميز الطويلي بين نوعين من الواقع التلفزيوني: "الواقع الذي تنقله نشرات الأخبار" و"الواقع الأكثر مرحاً وتسلية..."، وسأضيف أيضاً: "الأكثر إثارة". فماذا يعني أن نشاهد شباناً وشابات في برنامج مثل "ستار أكاديمي"، يأكلون أو يجلسون أو يمشون ويتحدثون ويتصرّفون أحياناً بشيء من الغباء وقد غاب عنهم أي كتاب أو صحيفة أو وسيلة ثقافية؟ لا أدري أية متعة يجد المشاهدون في "مراقبة" هؤلاء على الشاشة الصغيرة طوال ساعات؟ إنها روح "البصبصة" (voyeurisme) التي تفعل فعلها بهم محولة إياهم إلى "بصاصين" ينتهكون بعيونهم حياة "الآخرين" وهؤلاء يعلمون جيداً أن ثمة عيوناً لا تحصى تراقبهم فيمعنون في إثارتها.

قال الرسام الأمريكي آندي وارهول ذات مرة، إن الفرصة ستحين في المستقبل لكي يحصل الجميع على نصيبهم من الشهرة خلال وقت لا يتعدى الخمس عشرة دقيقة. وها هو "توقُّع" وارهول يتحقق عبر "تلفزيون الواقع" وما يماثله من برامج، حيث في إمكان أي كان أن يطل وأن يصبح "نجماً" بالمعنى الساذج والمبتذل للنجومية طبعاً. وعندما انطلق في فرنسا برنامج "لوفت ستوري" (أو "قصة مستودع") بلغ عدد المشاهدين نحو ثمانية ملايين. هذا في فرنسا التي تعتبر من الدول الراقية عالمياً. حينذاك كتبت صحيفة "لوموند" تقول: "لا يحتوي "لوفت ستوري" على كتب وجرائد ولا حتى على أفلام. إنه عالم سطحي، مصنّع تصنيعاً ومجرّد من كل شيء إلا من هاجس الربح". لكن الناس الذين عاشوا تحت "الكاميرات" الفاضحة أصبحوا "نجوماً" في وقت قصير جداً.

والآن، مثلاً، يسعى بعض المنتجين الألمان إلى إقامة مدينة كاملة لبرنامج "بيغ براذر" تمتد مساحتها أربعة آلاف كيلومتر مربع، وتضم أكثر من مئة كاميرا ومئة ميكروفون مفتوحة على مدار الساعة. ولعل من أسباب نجاح هذا البرنامج - وأمثاله - هو فضول (أو حشرية) الجماهير التلفزيونية في مشاهدة الحياة الشخصية التي يعيشها "الأبطال" وهم أناس عاديون وليسوا أبطالاً في الواقع. والفضول يمكن تفسيره بـ"البصبصة" أيضاً على ما كان غائباً أصلاً من حياة هؤلاء أو مكبوتاً وسرياً. هكذا أصبح في إمكان المشاهدين أن يتدخلوا في حياة أناس آخرين وأن يطلعوا على صراعاتهم الإنسانية وعلى مشكلاتهم وهمومهم التي يجب ألا تعنيهم؛ لأنها جزء من حياة خاصة جداً، ناهيك عن العلاقات الجنسية (في التلفزيونات الغربية طبعاً) والدخول إلى غرف النوم...

كانت تنقص العالم العربي بدعة "تلفزيون الواقع" كي تتمكن الشاشة الصغيرة من الاستيلاء على مخيلة الناس وذاكرتهم ووجدانهم. وقد تجرّد حياتهم من المعنى وتوقعهم في حال من "الاغتراب" الواقعي والاجتماعي. فالتلفزيون الذي يفترض به أن يكون أداة للتسلية والتثقيف معاً تحوّل إلى آلة للتسلية الرخيصة والتجهيل... لماذا تستبعد معظم الشاشات الصغيرة البرامج الثقافية والأدبية والعلمية مكتفية بالبرامج الترفيهية السطحية وببرامج المنوعات الرخيصة؟ ترى، ألا يهتم المشاهدون بالبرامج الثقافية إن هي قدّمت لهم في طريقة جميلة وجديدة؟ لكنه "منطق الربح" يطغى على أي منطق سواه. فالإعلانات هي التي تثير "شهية" الشركات و"المعلنون" يعرفون كيف يلعبون لعبتهم جيداً وطموحهم أن يصلوا إلى أكبر عدد من المشاهدين.

ليس جديداً أن نقول إن الإعلام ولا سيما التلفزيوني، أصبح سلعة مفضوحة، واختفى حق المواطن بإعلام صحيح وسليم. لقد سيطر أهل السياسة والمال على الإعلام المرئي، تحت قناع الحرية والديمقراطية والحداثة والثورة الصورية والمعلوماتية، وهيمن هؤلاء على وسائل الإعلام مستخدمين إياها في الحرب "الإيديولوجية" الجديدة التي تفرضها العولمة. ترى، أليس برنامج مثل "بيغ براذر" "برنامجاً" "عولمياً" بامتياز؟

قبل رحيله بسنوات قليلة، وضع المفكر والفيلسوف الفرنسي بيار بورديو كتابه "عن التلفزيون". ونجح كتابه هذا في انتقاد حيلة التلفزيون في تفكيكه كيفيات بناء أو تقديم المادة الإخبارية والصحافية في ظواهرها المتعددة، وأبرز تشويه التلفزيون للوقائع والأحداث فاضحاً العلاقة المتواطئة بين رجال الإعلام المرئي ورجال السياسة، القائمة على الإغراء المادي والمعنوي. وأحدث الكتاب حين صدوره ضجة كبيرة وكان بمثابة الفضيحة الإعلامية! هذا عن حال التلفزيون في فرنسا، ترى ما هي حال التلفزيون في عالمنا العربي؟

ترى كيف علينا كمواطنين عرب أن نحمي أنفسنا من التلوث التلفزيوني؟ كيف علينا أن نصون ذاكرتنا؟ كيف علينا أن ندافع عن ثقافتنا؟ ترى كيف علينا نحن المواطنين العرب أن نقاوم هجوم هذه "البربرية" الجديدة؟

عبدو وازن، بيروت

حول مقال «التلفزيون متهم»، القافلة عدد سبتمبر-أكتوبر 2004

حول مصير المكتبات الخاصة: تصويباً لبعض الأحكام

أشكركم على العدد 5 من المجلد 53 من القافلة، والذي احتوى على زاد معرفي وفير وتنوع وذائقة جمالية بالغة الروعة في الإخراج والتصوير والعنونة. لكن هذا لا يمنع من تعليقات واجبة على مقال محمد الفوز عن مصير المكتبات الخاصة؛ لأن فيه أحكاماً جاهزة غير صحيحة ومنها:

- أن محمد حسين هيكل صاحب أول رواية في الأدب العربي، وهذا الحكم على شيوعه غير صحيح، فرواية "زينب" نُشرت بعنوان: "مناظر وأخلاق ريفية" عام 1912م، وقد سبقها في القرن التاسع عشر عشرات الروايات.
- جاء عن وزير الاقتصاد المصري أنه الدكتور "حسن عباس"!! والصواب هو "حسن عباس زكي". لأن الدكتور حسن عباس هو أستاذ الأدب في جامعة الإسكندرية.
- وذكر المقال شخصيات مهمة أهدت مكتبتها الخاصة إلى دار الكتب المصرية، لكنه أغفل مكتبات أغنى وأكثر تنوعاً، مثل مكتبة أحمد تيمور، وأحمد زكي باشا.
- وجاء أن عباس محمود العقاد رفض بيع مكتبته في حياته. والواقع أنه باعها مرتين. وقام بتشكيل مكتبة ثالثة هي التي مات عنها. أما أن تكون مكتبته قد وقعت في أيدي امرأة جاهلة رمتها في الشارع فأمر ينفيه ابن أخيه عامر العقاد وهو القيم على تراث عمه.. اللهم إلا إذا فعل ذلك ورثة عامر..
- وفي التعليق الذي كتبه جهاد فاضل تحدث عن الكوارث التي قام بها "الأعداء".. وأورد الشائع الذي كُتب بعد سقوط بغداد بأكثر من قرنين تقريباً، ومفاده أن المغول رموا الكتب في دجلة والفرات حتى اصطبغ ماء النهرين بالحبر أياماً..!

إن المعاصرين لهولاكو ذكروا أنه عيّن مجموعة من العلماء مسؤولين عن المكتبات وأجرى عليهم المرتبات، فلم يقع ذلك إذ جعل الكتب جسراً لخيوله؟

د. عباس السوسرة

جامعة تعز، اليمن

حول موضوع «مصير المكتبات الخاصة»، القافلة عدد يوليو-أغسطس 2004

قافلة القرّاء

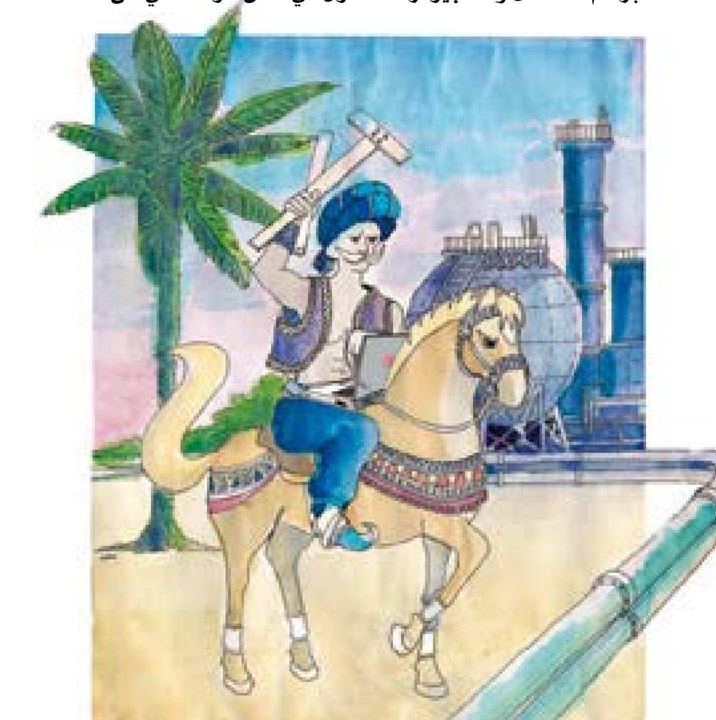
حول

قراءة أخرى للقافلة: الإجابة عن السؤال الكبير

أذكر جيداً أعداد القافلة التي كنت أقرؤها خلال السنوات السابقة. بالتأكيد لم تكن كثيرة، ولم يكن السبب أنها مطبوعة توزّع مجاناً ولا تُباع.. بل كان السبب متعلق - في مخيّلتي - بأنابيب البترول والمصطلحات التقنية الجافة. ثم قيل لي إن القافلة قد تغيّرت. وتوافرت لي الفرصة كي أقرأ أعدادها الجديدة، وما فاتني من أعدادها الأولى في حلتها الجديدة.

بعد لحظات طويلة قضيتها أتأمل في غلاف عدد القافلة لشهري يوليو وأغسطس الماضيين، وبعد أن سرحت في عبقرية الغلاف، عدت لأقرأ مواضيع العدد، فلم أجد سوى عبارة " الأولمبياد.. تعود إلى أولمبيا ". من الطبيعي أن يكون الموضوع جذاباً، ولكن تساؤلي يتعلق بسبب تفرد هذه العبارة في الغلاف، مع أنني عدت لأعدادٍ سابقة ووجدت أن أغلفتها تحوي مواضيع ثلاثة يحتويها العدد في كل مرة. لا أفهم في أمور التحرير الفني، وإخراج المجلات.. ولهذا أكتب تساؤلي هنا، علني أجد الجواب.

"الفكرة نصف الابتكار.. والابتكار نصف.. كل شيء". هو موضوعٌ يصب في صلب تخصصي، ولهذا فقبولي له ليس مقياساً يشير إلى جودته بحيادية، ولكن تقييمي له يفي بالغرض. تحقيقٌ ممتع، يجذبك منذ الكلمات الأولى، ويضع أمامك أملاً في التغيير. هناك العبارات المقتطفة والرسوم والصور المرفقة. صورة الفارس على ظهر حصانه متسلحاً بأدوات الهندسة، وممسكاً بزمام الحصان والكمبيوتر المحمول في نفس الوقت، هي من ألطف ما



وجدت من الرسوم تعبيراً عن حال نتمناه جميعاً. التوقيع على الرسم كان لـ "المحترف السعودي".. جميلٌ أن ندرك قدرتنا على " الابتكار " من الداخل، وليس مجرد النسخ من الخارج.

"من هي المرأة السعودية ؟! " قول في مقال لأميرة كشغري. القول، لم يجب عن السؤال. تخيل معي سيدة عربية لم تزر المملكة العربية السعودية، تقرأ عنواناً كهذا، فتشرع في قراءة المقال أملاً في أن تعرف فعلاً، هوية المرأة السعودية وخصوصيتها بما أن الكاتبة سيدة سعودية تعمل في كلية التربية، وتدرك بعدها بأن القول في المقال يعرض كتاباً بعنوان "المرأة.. الإرادة والتحدي"..

لابد لي هنا أن أقارن بين بابين متقابلين في المجلة. الباب الأول بعنوان "قصة ابتكار"، والباب المواجه له بعنوان "قصة مبتكر". قصة الابتكار تشد اهتمام القارئ، وقصة المبتكر تطرده بعيداً إلى غير رجعة. التناقض بين البابين يثير الحيرة، فبينما يثير الباب الأول اهتمامك رغم أن الابتكار لم يغير مجرى التاريخ، نجد أن الباب الآخر يثير الملل ولم يستفد كاتبه أو كتابه من غموض المبتكر الذي قد لا يعرفه كثيرون، أولهم أنا. الحقيقة أنني لا أقرأ قصة مبتكر إلا إن كنت قد سمعت باسم المبتكر مسبقاً وأردت أن أعرف المزيد عنه.

المقارنة بين قصة "فردوس" في عدد شهري مارس وأبريل، وبين قصة هذا العدد "عطر في الممرات..!" ستكون مجحفة. كما أعرف، يفترض أن المواد التي تنشر في مجلة واحدة تتقارب مستوياتها. سنجد عشر قصص كقصة "عطر في الممرات..!" تنتشر في منتديات الإنترنت الأدبية، بينما قصة "فردوس" لن تذكرنا بأي هواة على الإطلاق. ستكتفي القصة بأن تبكينا للحظة، أمام جمالها و واقعها الطيب رغم قساوته، وستدهشنا وتدفعنا للتفكير بانتقال القصة من الجو الواقعي للغاية، إلى جو فانتازي في النهاية. المشكلة كانت في المقارنة بين هذه وتلك.

بين مقالات العدد يبرز مقال "إنسانية.. لا تلتقط أنفاسها" بجدية فكرته وسهولة تناولها في نفس الوقت بقلم كميل حوا. أما باب "صورة شخصية" فتبرز صورته هذه المرة بين الصور التي تم تناولها في الأعداد السابقة. لم؟! لأن الشخصية التي تناولها الباب كانت شخصية مختلفة. ليست صورة معتادة لمدرسٍ أعطى طلبته الكثير كصورة حسن أبو سعدة، وليست صورة متألقة لشخصيةٍ متعددة الاهتمامات كعبد العزيز البابطين. ولكنها شخصية مختلفة فحسب للمهندس سامي نوار و مهنته. لا يعرف عنها الكثير من الناس، ولم نعتد على منحها بريقاً تستحقه.

أرى الأبعاد الإنسانية جميلة دائماً، حتى وإن كانت تشي بالألم، أو الكبر، أو الانهزام. جمالها، في أننا نستطيع أن نتأمل، ونتعلم. مجموعة صور زكي غواص منحتنا فرصة التأمل، والتعلم. الكلمات كانت جميلة، والصور أضافت إلي. لست أنا بالتأكيد من يحكم على تجربة المصور، ولكني أستطيع كما قلت مسبقاً، أن أتذوق جمالها.

ملف العدد. ملف العدد! أين أنا، من ملف العدد؟! أو بالأحرى، أين غلاف العدد من ملف العدد؟

هذه المرة، ملف العدد فاجأني حقاً وحبس أنفاسي ترقباً. الملف بعنوان "659هـ - 1621م"، الفكرة مميزة جداً، يا ترى، ماذا حصل في العام 659هـ؟ ويا ترى كيف اختاره الكاتب ليتناوله عشوائياً؟ أستطيع القول إنني لم أترك كلمةً دون أن أقرأها بعناية واهتمام، ليس فقط حباً في التاريخ، وإنما إعجاباً بالملف. الملف كان غنياً بالصور والرسوم المرفقة، وهو ما " جسّد " التاريخ، و الرواية كانت تعتمد على عنصر المنطق في ربط الأسباب بالنتائج، دون أن يشعر القارئ بأنه أمام الأستاذ المتجهم الذي سيمسك بتلابيبه صارخاً: "علّل"! وأجمل ما في الملف على الإطلاق نزوله الشارع.. والتجول بين العامة في تلك السنة، وليس فقط الحكي عن قصور صناع القرار.

بعد أن عرفتُ القافلة الجديدة، صرتُ مقبلة بالتأكيد على أي عدد من أعدادها. ولهذا ما إن رأيت عددها لشهري مارس وأبريل لسنة 2003م، حتى سارعت إلى قراءته. وجدت رئيس التحرير يتساءل في افتتاحيته: "ماذا ستقدم القافلة غير ما يقدمه الآخرون؟ الحقيقة إن المجلة لن تقدم شيئاً آخر غير ما يقدمه الآخرون. هي فقط تسعى في حياتها الجديدة إلى أن ترفع من مستوى الأداء الصحافي الذي تمارسه".

وعندما أنهيت قراءة العدد، قلتُ إجابةً عن السؤال الكبير: بالتأكيد لدى القافلة ما تقدمه، غير ما يقدمه الآخرون.

أية مجلة قدمت موضوعاً بعنوان "عندما يضحك الروس؟"، أو موضوعاً بعنوان "سقوط المدخن؟".. هذه هي ميزة القافلة. الابتكار في طَرْق الموضوع الصحافي، بدلاً من "العادات الاجتماعية في المجتمع الروسي"؛ تأتي القافلة لتقول: "عندما يضحك الروس"، وبدلاً من "سلبيات التدخين"، تقول القافلة "سقوط المدخن"..!

طرْق المواضيع من ناحية لم تُطرق بعد، أو طرق مواضيع غريبة وجذابة كفاية.. تجذب القاريء ليهتف مثلي: بالتأكيد لديها ما تقدمه غير ما يقدمه الآخرون.

لست أرى الكمال، وإلا لتحدثتُ عن الأعداد التي بين يديّ صفحة صفحة.. ولكني أرى إبداعاً ملوّناً، يغنينا بلحظات مختلفة، خارج الإطار.

فاطمة الجفري

كلية دار الحكمة، جدة

قراءات في أعداد مختلفة من مجلة القافلة

وردنا

• أحجار المعلاة الشاهدية بمكة المكرمة



عمل موسوعي ضخم صادر عن وزارة التربية والتعليم - وكالة الآثار والمتاحف.

يتناول هذا الكتاب الأحجار الشاهدية التي جمعتها وكالة الآثار والمتاحف عن مقبرة المعلاة بمكة المكرمة، حرصاً عليها من الضياع والاندثار. وخصّ كل حجر من المجموعة التي يبلغ عددها 591 حجراً بصفحة كاملة. وتضمنت كل صفحة وصفاً للحجر ونوعه وحالته واسم صاحبه، وصورة فوتوغرافية له، ورسماً توضيحياً بالحجر الصيني، والنص الذي يحمله وقد يصعب على القارئ أن يقرأه من خلال الصورة الفوتوغرافية.

تألفت لجنة إعداد هذا الكتاب من الأساتذة: خليفة بن عبدالله الخليفة، وعبدالله ابن سليمان الهدلق، وعبدالعزيز بن فهد النفيسة. وكان الإشراف العام على هذا العمل الكبير للأستاذ الدكتور سعد بن عبدالعزيز الراشد، وطبع الكتاب على نفقة الأستاذ عبدالمقصود محمد سعيد خوجه، عضو المجلس الأعلى للآثار.

• الإعلام البيئي من المفهوم إلى التدريب

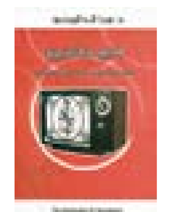


يسلط هذا الكتاب الضوء على ما يجب أن يكون عليه التناول الإعلامي للقضايا البيئية حتى تجد طريقها إلى عقل ووجدان الجمهور، بما ينعكس عملاً على صون البيئة وحمايتها من الأخطار المحدقة. المؤلف حسين بن محمد القحطاني، وهو من منسوبي هيئة الأرصاد الجوية وحماية البيئة، ضمّن كتابه الواقع في 126 صفحة فصولاً عدة، لعل أبرزها ما يتناول أنماط الإعلام البيئي ووسائله وأهدافه، إضافة إلى فصل يتناول أهمية التدريب في هذا المجال، الأمر الذي يجعله موجهاً بالدرجة الأولى إلى الإعلاميين والمهتمين بالشأن البيئي بشكل عام.

• مقالات في الاقتصاد

يضم هذا الكتاب مجموعة من أهم المقالات التي كتبها أحمد محمد عيسى طاشكندي وسبق نشرها في مجلة "عالم الاقتصاد"، التي نشرت فيها.. إلا أنها تعكس في مجملها معالجة موضوعية لما تصدت له تستحق القراءة والتدوين"، حسبما جاء في التقديم. يقع هذا الكتاب في 118 صفحة، وصدر عن "دار الداغستاني للنشر والتوزيع" في الرياض.

• الخليج والتلفزيون



دراسة تلقي الضوء على أول محطة تلفزيونية في الخليج العربي، أنشأتها شركة الزيت العربية الأمريكية "أرامكو" في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي. وتكمن في أن "هذه المحطة التلفزيونية شكلت وعي جيل خليجي بأكمله في حقبة كانت نسبة الأمية فيها مرتفعة، ومصادر المعلومات قليلة، ووسائل الترفيه متواضعة ومحدودة". الدراسة التي تقع في 60 صفحة هي من إعداد الدكتور عبدالله المدني، وصدرت عن "مؤسسة الأيام للنشر" في البحرين.

• صورة الآخر في فلسفة التربية الإسلامية



يصوغ الباحث أحمد محمد الدغشي سؤالاً رئيساً حول ما هية صورة الآخر في فلسفة التربية الإسلامية، وتتفرع عن هذا السؤال مجموعة من الأسئلة التي يحاول أن يجيب عنها في هذه الدراسة الصادرة في إطار سلسلة "كتاب المعرفة" عن وزارة التربية والتعليم في المملكة العربية السعودية. ومن أبرز فصول الكتاب الواقع في 172 صفحة: السلام تحية لأمتنا وأمان لأهل ذمتنا، فلسفة الجهاد القتالي في التربية الإسلامية، وفلسفة الجزية في التربية الإسلامية.

تجربة عمرها 70 عاماً في أرامكو السعودية

الإنسان.. أولاً

يعد تناول اتصال شركة بحجم أرامكو السعودية بالمجتمع، عملية صعبة جداً. وذلك بسبب تشعب أنشطة هذا الاتصال، وتفرقها بين أنشطة تاريخية وآنية، وأنشطة يومية وشهرية ودورية.. الخ.
لقد حاول فريق القافلة أن يرصد مسيرة ونشاطات برنامج اتصال أرامكو السعودية بالمجتمع وتوصيف عملية نشوء هذا البرنامج وتطوره على مدى 70 سنة.

كان الحدثُ يصنع نفسه، عبر مجموعات من الموظفين تجاهلوا أنهم في إجازة عيد، وتذكّروا أمراً واحداً، هو أنهم مسؤولون عن صناعة عيد مختلف لأربعة عشر ألف يتيم احتاجوا إلى من يقف إلى جوارهم في مناسبة استثنائية مثل عيد الفطر..!

ولم يكن حدثاً واحداً ذلك الذي جنّد فيه عشرات الموظفين أنفسهم للوقوف إلى جوار آلاف الأيتام، وإنما كان مجموعة أحداث توزعت على مواقع أرامكو السعودية المترامية الأطراف. وهكذا، تحوّل العيد نشاطاً مختلفاً عن مهامّ العمل التقليدية، ليصبح واجباً يستهدف جانباً من جوانب التكافل الاجتماعي الذي يتسم به المجتمع السعودي، ويحرص على الالتزام به.

حدث ذلك في مناسبة عيد الفطر الفائت.

أما في مناسبة عيد الأضحى، فإن هناك برنامجاً آخر سيفتح ذراعيه لفئة أخرى، هي فئة المسنين. فمثلما حظي الأيتام، في عيد الفطر، باحتضان أبوي حميم جسدته الأنشطة، سينال المسنّون، في عيد الأضحى، حظوة مشابهة إكراماً لهذه الفئة الاجتماعية التي وصل أفرادها إلى مراحل عمرية تستحق الرعاية والعناية من أفراد المجتمع كافة..!

وقد أصبح برنامجا هدايا الأيتام والمسنين جزءاً من التقاليد السنوية في مناسبتي العيدين. لكن البرنامجين، على ما فيهما من أهمية، لا يمثلان سوى جزء يسير من نطاق عريض استوعب آلاف الفعاليات والخدمات المصنّفة ضمن برامج التواصل مع المجتمع الذي يعني - لدى أرامكو السعودية - التعامل مع احتياجات المجتمع المحلي، وتسخير الإمكانيات والخبرات لتلبيتها على النحو الملائم.

حاجة متبادلة

منذ أيام نشأتها الأولى، أدركت أرامكو السعودية حاجتها إلى المجتمع وحاجة المجتمع إليها؛ فسعت إلى جعل الاحتياج المشترك عملاً يومياً ينعكس في الاتجاهين.

حاجتها إلى المجتمع تمثلت في كونه مصدر الطاقة البشرية الرئيس الذي يؤمّن القوى العاملة لخطوط الإنتاج النفطية ومرافقها المتعددة، إذ لا يمكن لأية مؤسسة أن تنهض من دون سواعد أبناء المجتمع المحيط بها. وهكذا توجهت أرامكو السعودية نحو السكان المحليين لينخرطوا في أعمال الزيت والغاز، وما يتصل بها من أعمال وأنشطة، ليشكّلوا عبر السنوات أهم قوة بشرية في أرامكو السعودية.

هذا بدوره اقتضى تلبية حاجة المجتمع إلى الشركة التي ولدت في مجتمع بكر يفتقر إلى العديد من عوامل التطور

والنماء. خاصة في السنوات الأولى من عمرها. وهو ما دعاها إلى المشاركة في التنمية من خلال برامج ضرورية في التعليم، والصحة، والتثقيف، والدعم المادي المباشر للمؤسسات الاجتماعية، وغير المباشر لمؤسسات القطاع الخاص، لتملأ فراغاً أخذ يقلّ، عاماً بعد عام، بفعل برامج التنمية التي نفذتها الدولة. فاتجهت الشركة صوب أولوية الأنشطة الاجتماعية المساندة، مطمئنة إلى أن الخدمات الأساسية أصبحت في مرحلة اكتفاء بفضل رعاية الدولة المستمرة لاحتياجات مواطنيها.

خدمات أساسية

في سنوات نشأتها الأولى انشغلت أرامكو السعودية في أعمال التنقيب عن مكامن الزيت وإنتاجه. وتطلّب ذلك الاستعانة بالقوى العاملة السعودية، بطبيعة الحال. ولكن الأيدي العاملة المتوافرة، آنذاك، لم تكن على مستوى كافٍ من التدريب والكفاءة. فما كان منها إلا أن استحدثت برامج التدريب والتعليم التي تكفّلت بصناعة كفاءات بشرية وطنية أسهمت، عبر الأجيال، في بناء أعمال الشركة وتطويرها.

لكن التحديات الجدية لم تقتصر على صناعة الكوادر البشرية فحسب، بل في كل احتياجات الشركة، بدءاً بالتنقيب وانتهاء بالشحن. والمنطقة الشرقية لم تكن مؤهلة، في تلك الفترة، للعديد من الأعمال التي تتطلبها مشروعات النفط الطامحة؛ نتيجة فقر شديد في البنية الأساسية. ولمواجهة التحديات عمدت الشركة إلى إنشاء ميناء الملك عبدالعزيز بالدمام؛ ليلبي احتياجاتها الملحّة، ويربط مواقع الشركة بالعالم. ولكنّ هذا الميناء الذي تأسس، أصلاً، لأغراض صناعة البترول، تطور ليكون واحداً من أهم الموانئ التجارية على ساحل الخليج العربي في مراحل لاحقة، بفضل الرؤية الاستراتيجية التي وضعتها الدولة لهذا المرفق الحيوي.

تنفيذ الأنشطة الاجتماعية المساندة بعد مشاريع التنمية، لأن الخدمات الأساسية أصبحت في مرحلة اكتفاء بفضل رعاية الدولة المستمرة

وما انطبق على ميناء الملك عبدالعزيز بالدمام، انطبق، أيضاً، على خط السكة الحديدية بين مدينتي الدمام والرياض، الذي يمثّل، حالياً، أحد أهم خطوط النقل التجاري المهمة بين المنطقة الوسطى والمنطقة الشرقية. وقد تأسس هذا المشروع، في الخمسينيات الميلادية من القرن الماضي، بدعم مباشر من أرامكو السعودية أول أمره. ثم تطورت خدماته، فيما بعد؛ ليخدم جانباً مهماً من قطاع النقل التجاري والصناعي بين المنطقة الشرقية ومنطقة الرياض.

وكان لأرامكو السعودية الدور الأبرز في إنشاء شبكة الطرق الأولى في المنطقة الشرقية. وكان الدافع المباشر للشركة هو ربط المواقع النفطية بشبكة طرق تحلّ محل الطرق البدائية التي كانت متوافرة في تلك السنوات الصعبة. ومع توالي السنوات تحوّلت هذه الطرق إلى جزء من شبكة الطرق الهائلة التي تربط مدن المملكة وقراها؛ لتسهم، بفعالية، في تنفيذ برامج التنمية الوطنية المتلاحقة.

يضاف إلى ذلك تأسيس وإدارة الشركة السعودية للكهرباء بالمنطقة الشرقية، التي حلّت محل الشركات الصغيرة المتناثرة في مدن المنطقة الشرقية وقراها. حيث ساندت أرامكو السعودية هذا القطاع بكل ما أوتيت من خبرات إدارية وإمكانيات صناعية وفنية وتمويل مادي. ناهيك عن تأصيل قيم العمل في برامجها وخدماتها إلى أن استقام عود الشركة وأصبحت قادرة على تأمين الطاقة الكهربائية لقطاع الصناعة والتجارة والسكان بموثوقية عالية.

قاعدة القطاع الخاص

الدور الحيوي والرائد للشركة امتدّ، أيضاً، إلى أبعد من مشروعات البنية الأساسية. فقد كانت أعمال الشركة تتوسع عاماً بعد عام، وتتزايد احتياجاتها طردياً إلى سوق تجارية وصناعية تساندها في تنفيذ برامجها. بمعنى أن الشركة كانت في حاجة إلى وجود منشآت تجارية وصناعية في محيطها لتزودها بمستلزمات أعمالها. وبما أن السوق كانت شبه خالية من هذه المنشآت؛ فقد عمدت أرامكو السعودية إلى توفير الفرص التجارية للواعدين من رجال الأعمال لتتحوّل هذه العلاقات التجارية، مع الزمن، إلى إيجاد قاعدة عريضة من شركات القطاع الخاص المحلي.

كانت هذه المشروعات نماذج لبناء علاقات مثمرة بين الشركة وشركائها في بيئة الأعمال، ومن الطبيعي أن تقوم هذه العلاقات على أساس المصلحة المتبادلة بين الشركة من جهة، وبين شركائها التجاريين والصناعيين من جهة أخرى. وبالطبع؛ فإن هناك منطقة مشتركة بين الأطراف، ولكنها تتمحور في أنشطة الأعمال وحسابات الأرباح والخسائر المادية.. فكلما تطوّرت أعمال الشركة استدعى التطورُ تطوّراً مشابهاً في القطاع الخاص، ليقف في موقع المساندة ويؤمّن جانباً مهماً من الاحتياجات. وبالمقابل كلما أمّن هذا القطاع احتياجات الشركة انعكس ذلك على القطاع في شكل نموّ الأعمال وتزايد الأرباح.

ومن البديهي أن تحرص الشركة – والقطاع الخاص – على تنامي العلاقة التجارية وتطوير أدائهما، استهدافاً للأرباح. فأين يقع الإنسان إذن في قيم الشركة وبرامجها الإنتاجية..؟؟!

الإنسان في مفهوم الشركة هو المجتمع برمته، بصرف النظر عن نوع علاقة أفراده بأرامكو السعودية

الإنسان.. أولاً

ما يعرفه العالم كله عن أرامكو السعودية، هو أنها شركة بترول لها موقع الصدارة بين شركات البترول في العالم. لكن اهتمامها اليومي لا ينحصر في أعمال الزيت والغاز وإنتاجهما وتسويقهما. ثمة ما يشغل بال أرامكو السعودية منذ أن وضعت أول مثقاب لاستخراج الزيت من أعماق الأرض. إنه "الإنسان" بكل ما تعني الكلمة وما يتصل بها من قيم.

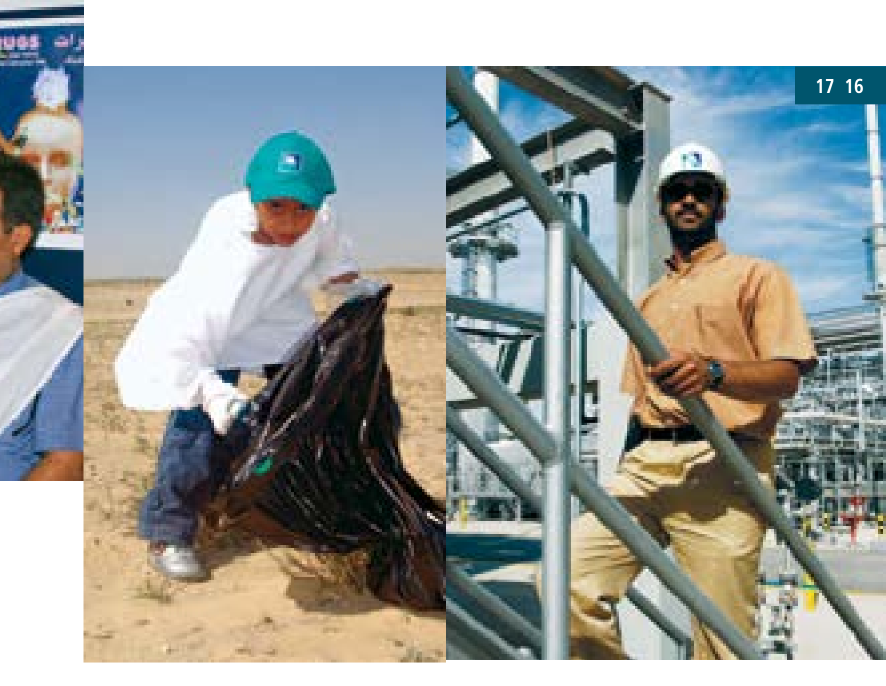
المسعى الربحي جزء أساس في أي مشروع تجاري أو صناعي. وما كانت الشركة لتقوم لو كان النفط في البلاد دون الكميات التجارية المربحة. إلا أن المستوى الربحي، هو أيضاً، هدف تنموي ينعكس، مباشرة، على الإنسان الذي يعيش في المجتمع. ونحن هنا لا نتحدث عما قدمته صناعة النفط للتنمية في الوطن فتلك قضية أوسع بكثير.

القضية، هنا، تتساءل عن موقع الإنسان بين زحام أعمال الشركة النفطية وما تتطلبه من برامج ومشروعات لا تنتهي. والإنسان، هنا، هو موظف الشركة أياً كان موقعه، وهو المواطن الذي يعيش بعيداً عن حقولها النفطية..!

وفي مفهوم الشركة؛ فإن الإنسان هو المجتمع برمته، بصرف النظر عن نوع علاقة أفراده بأرامكو السعودية.

الصحراء.. بيئة مهمة

البدويّ الذي يعيش في الصحراء فردٌ من المجتمع، فردٌ مهم. ومن المهمّ أن تكون صحراؤه الجرداء صحية ونظيفة، باعتبارها بيئة حياة لشريحة اجتماعية لا تزال تعتزّ بموروثها ونمط حياتها التقليدي. هذا الوعي الذي تحرص أرامكو السعودية على بلورته لدى فئات المجتمع كافة، هو الذي أملى عليها تطبيق برنامج بيئي حميم، هو برنامج تنظيف الصحارى. وعبر مئات من الموظفين والمتطوعين تنفذ الشركة مثل هذا البرنامج سنوياً، وتسخر له إمكانياتها الفنية والخبرات البيئية من أجل



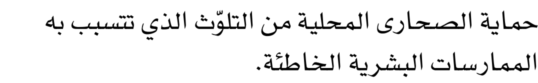
حماية الصحارى المحلية من التلوّث الذي تتسبب به الممارسات البشرية الخاطئة.

تجارياً لن تتأثر أعمال أرامكو السعودية بما تعانيه الصحراء من تلوّث. ولكنها على المستوى الأخلاقي تدرك أن أية مشكلة بيئية تنشأ في المجتمع، تعني – بشكل أو بآخر – إلحاق أضرار فادحة، ولو تدريجاً، بالأجيال القادمة. وتنطلق من هذا الفهم إلى أعمال وأنشطة من شأنها رعاية البيئة وحمايتها ومواجهة مشاكلها مهما كانت ضئيلة.

في البيئة والطبابة تساند برامج الشركة البرامج الحكومية، إضافة إلى حضورها الدائم في حالات الطوارىء

الفهم نفسه يتمثل في أعمال مشابهة، مثل حملات تنظيف الشواطيء، وحملات زراعة أشجار المنغروف في الشواطيء أيضاً. إذ تحتفظ الشركة بسجل مشرّف في هذه الأنشطة.

البيئة، على نحو خاص، هي واحدة من هواجس أرامكو السعودية، ليس هذا وحسب، بل إن حماية البيئة اسم يُطلق على إحدى إداراتها الكبيرة. وتقوم هذه الإدارة بالكثير من الأعمال والفعاليات الدقيقة التي تستهدف تحقيق أعلى مستوى من الصحة البيئية. لقد تمثلت اهتمامات الإدارة في جعل أعمال الشركة النفطية في مستوى عالٍ من الأمان البيئي، بتطبيق أعلى المعايير الدولية، بدءاً من التعامل مع النفايات المنزلية وصولاً إلى معالجة التسرب النفطي.





حضور في المواقف

البيئة الصحية، بدورها، تعني بالضرورة، تأمين عامل مهم من عوامل الصحة البشرية. وهذه الأخيرة هاجس يقظ في كل تفصيلات أعمال أرامكو السعودية. لقد بنت الشركة، منذ عقود طويلة، شبكة من المؤسسات الطبية والصحية؛ لتؤمّن الرعاية الكاملة لموظفيها. ولكن قاعدة المستفيدين من هذه الصروح الطبية لم تعد قاصرة على الموظفين وحدهم.

وعلى الرغم من أن برامج العلاج تقتصر على الموظفين وعائلاتهم، فإن لدى أرامكو السعودية تاريخاً من الإسهامات الواضحة في الرعاية الصحية التي قدمتها للمجتمع. ويتذكر أبناء المنطقة الشرقية، على وجه خاص، كيف كانت الكوادر الطبية، لدى الشركة، مجندة في مواجهة العديد من الأمراض التي كانت منتشرة بين المواطنين.

كانت الملاريا جزءاً من التهديدات التي كانت تتربص بسكان المنطقة جيلاً بعد جيل، وقد جرّت مآسٍ اجتماعية على آلاف الأسر، حيث كان موت الأطفال منتشراً على نحو مخيف. وحين طبّقت وزارة الصحة برنامجاً للمواجهة كانت الشركة جزءاً من هذا البرنامج الذي شارك فيه أطباء وممرضون وفنيون، ناهيك عن الباحثين والمساندين.

كذلك كانت أرامكو السعودية حاضرة في مواجهة مرض التراخوما الذي كان يحرم آلاف الناس من نعمة البصر.

كما كانت حاضرة في حملات مكافحة الجدري، وغيره من الأمراض التي كانت منتشرة بين المواطنين.

ولم تتخلف أرامكو السعودية عن المواقف الوطنية التي حتّمتها الطواريء، حيث قدمت دعمها الطبي المباشر لضحايا كارثة القديح قبل سنوات، كما كانت موجودة في مواجهة وباء حمّى الوادي المتصدع الذي داهم بعض مدن جنوب المملكة.

وفي الوقت الراهن، تركز الشركة على تقديم البرامج المساندة، اعتماداً على تكامل برامج الرعاية الصحية التي تكفّلت الدولة بها. إذ تساند الدائرة الطبية في الشركة الحملات التوعوية عبر النشرات الطبية والمحاضرات والندوات، وأمثالها من فعاليات التوعية والتثقيف الصحي.

ثقافة السلامة

وتأخذ ثقافة السلامة موقعها المتميز من اهتمامات الشركة اليومية، داخل الشركة وخارجها أيضاً. فأعمال الشركة المتعددة، وأنشطة موظفيها العاملين في الحقول والطرق والمباني والمرافق الأخرى تخضع لهذه الثقافة على نحو عملي يهتم بأدق التفصيلات، ولا يقبل التهاون.

ويمكن الالتفات، في هذا الجانب، إلى ما يتمتع به موظف أرامكو السعودية من حرص شديد حين يشرع في تمديد سلك كهربائي في منزله، أو حين يقود سيارته، أو حين تدعوه الحاجة إلى استخدام سلّم، أو حتى حين ينحني لالتقاط قلم. إذ تقوده ثقافة السلامة إلى اتخاذ أقصى درجات الحيطة والحذر في سلوكه اليومي النمطي. ولم يكن لهذه الثقافة أن تتكرس في هذا السلوك لو لم يتشبع وعيه بعشرات القواعد والضوابط التي تنبهه، عبر التوعية المستمرة، إلى طرق تجنب الضرر في استخدام الأدوات والأجهزة والسبل السليمة لإنجاز الأعمال مهما كانت صغيرة.

تصدير الثقافة

حين نجحت مثل هذه البرامج داخل الشركة ومرافقها؛ سعت أرامكو السعودية إلى تصدير ثقافتها إلى المجتمع، متشاركة مع المؤسسات الرسمية في المجتمع

العمل التطوّعي.. ممارسة وثقافة..!

نجحت أرامكو السعودية في بلورة مفهوم العمل التطوعي على نحو تحوّل فيه هذا المفهوم إلى أنشطة فعلت فعلها في العديد من البرامج الخدمية التي نفذتها إدارات الشركة أو شاركت في تنفيذها.

أولى أشكال العمل التطوّعي برزت، أولاً، في أوساط الموظفين الذين ظهرت حماستهم بوضوح في الفعاليات التوعوية كأسابيع المرور وأيام المناسبات الصحية. فقد كانوا وسيلة اتصال مع المجتمع في توزيع النشرات والتوعية بأهمية الامتثال لأصول السلامة وقواعد السلوك الصحي السليم. لكنّ هذه الأعمال الصغيرة سرعان ما تحوّلت إلى ممارسة أكثر تطوراً واتساعاً.

الأمر بدا أكثر وضوحاً في حملة تنظيف الشواطيء التي شارك فيها أكثر من 800 متطوع من موظفي الشركة وأبنائهم، إضافة إلى أعداد أخرى من المواطنين الذين لا تربطهم بالشركة أية رابطة وظيفية. وحدث الأمر نفسه حين نفذت الشركة حملة تنظيف صحراء النعيرية، حيث تزاحم موظفون وأبناؤهم ومواطنون من المحافظة لجعل الصحراء أكثر نظافة ونقاءً. وهو ما يعني أن مفهوم التطوع بات سلوكاً لدى بعض المواطنين الذين تفاعلوا مع أنشطة الشركة تفاعلاً عملياً.

وفي هذا السياق تبذل أرامكو السعودية، حالياً، جهوداً حثيثة لتطوير برنامج شامل لأنشطة العمل التطوعي، وذلك من خلال إنشاء قاعدة بيانات للمتطوعين من الموظفين وأسرهم والمواطنين الآخرين. ويستهدف البرنامج تحقيق مستوى من الجاهزية بين آلاف المتطوعين، بغية الاستفادة من إمكانياتهم واهتماماتهم في تنفيذ الأنشطة المخطط لها، أو الطارئة، حال اتخاذ الحاجة.

انطلقت أرامكو في بلورة هذا المفهوم من إيمانها بتشجيعَ ثقافة العمل التطوّعي، وما يفعله، نفسياً بين أفراد المجتمع، فانصراف الناس إلى العمل سويّاً من أجل تحسين نوعية حياتهم، أمر حيويّ لإنماء المجتمع المحلي.



نفسه في هذا الجهد. ويتبدّى ذلك في الفعاليات السنوية والدورية التي تشهدها مؤسسات المجتمع.

في أسبوع المرور، كمثال، تضع أرامكو السعودية خبراتها وكوادرها لإنجاح العملية التوعوية التي تتضمنها المناسبة التي تمس سلامة الإنسان أولاً. ويتبدّى دور الشركة، على نحو واضح، في المناسبات التوعوية التي يشهدها المجتمع من خلال المؤسسات الحكومية. إن يوم الصحة العالمي، ويوم الدفاع المدني، ويوم الإيدز، وغيرها إنما هي قنوات اتصال بالمجتمع تصدّر الشركة، من خلالها، ثقافات الصحة والسلامة وحماية البيئة إلى أفراد المجتمع. وإذا كانت بؤرة الاستهداف هي مجتمع العمل داخل الشركة، فإن الندوات والمحاضرات والحملات والنشرات توسّع دائرة العمل التوعوي إلى أقصى مدى ممكن حول الشركة. وهو ما يعني إيصال الرسائل المفيدة إلى المجتمع.

لأن للإعلام دوراً كوسيلة تثقيف، أسست الشركة أول محطة تلفزيونية في الخليج وأول مطبوعة دورية في المنطقة الشرقية

الإعلام وسيلة تأثير

هذا يعني أن النشاط الإعلامي، بمستوياته المتعددة، أصبح من أهم الوسائل الفاعلة في التواصل مع المجتمع. ومنذ نشأتها أدرك الفاعلون في قيادة الشركة حقيقة أن تحسين حياة المجتمع المحلي يمكن أن يجعل من الإعلام وسيلة لبث الثقافة العملية البنّاءة. وقد كان ذلك وراء إنشاء أول محطة تلفزيونية في منطقة الخليج العربي. كما كان وراء إصدار أول مطبوعة عربية في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية.

عبر هاتين الوسيلتين تواصلت الشركة مع محيطها الاجتماعي ثقافياً، لتقدم الوجبات التثقيفية العامة، إلى جانب الوجبات التثقيفية الخاصة التي تستهدف رفع الوعي العام بأهمية الصحة والسلامة والبيئة، وتطوير الإمكانيات البشرية في التعامل مع مستجدات العصر.

لكنّ ذلك لم يكن مقنعاً لطموحات الشركة البعيدة المدى؛ فأسست قبل ربع قرن مسابقة "رسوم الأطفال" التي استهدفت رعاية المواهب الواعدة في هذا الجانب الثقافي العصري. كما استحدثت فكرة المكتبة المتنقلة التي دعت إلى توثيق العلاقة بين طلاب المدارس وطالباتها بالكتاب كمصدر معرفي لا غنى عنه.

وتُعتبر هذه البرامج امتداداً لبرنامج كبير بدأته الشركة من عام 1954م، حين بادرت بالمشاركة في التنمية البشرية الوطنية عبر بنائها المدارس. لقد كانت مدرسة القادسية الابتدائية بالدمام أول مدرسة تبنيها الشركة، وقد افتتحها جلالة الملك سعود، يرحمه الله. وتوالى بناء المدارس عبر الشركة، إلى أن تجاوز عددها، في الوقت الحاضر، 130 مدرسة يستفيد منها عشرات الآلاف من الطلاب والطالبات.

المؤسسات الخيرية

وفيما تشير هذه الأنشطة إلى تركيز الشركة على التثقيف والتوعية، فإنها حرصت، أيضاً، على الاستمرار في دورها الداعم للمؤسسات الاجتماعية في المملكة، عبر برنامج التبرعات المالية لمئات من الجمعيات الخيرية. ناهيك عن بلورة أفكار تعاونية بين الشركة ومؤسسات الخدمة الاجتماعية المختلفة، لتكرس نشاطاً إنسانياً يؤمن الاحتياجات الضرورية لفئات مختلفة، خاصة فئات الأرامل والمطلقات والأيتام وكبار السن وذوي الاحتياجات الخاصة.

دعم المؤسسات الاجتماعية في المملكة يترافق مع تنمية العمل التطوعي الذي تجاوز صفوف الموظفين إلى غيرهم

عينٌ على المستقبل

وهكذا فعلى مدى أكثر من سبعة عقود من الزمن استهدفت مشروعات أرامكو السعودية التواصل مع المجتمع الأهلي. وقد انطلقت من محيطها القريب، وأخذت في التوسع، مهتدية باستراتيجية عملية. وحققت، عاماً بعد عام، زيادة في البرامج والفعاليات. ووضعت عُصارة خبراتها في خدمة المجتمع، ونجحت في إشراك المجتمع الأهلي في هذه الخبرات والمعارف المتخصّصة في مجاليّ الهندسة البيئيّة والحماية، بهدف تعزيز سلامة وعافية المجتمعات المحلية في المناطق المختلفة.

كما عملت على تشجيع ثقافة العمل التطوّعي، وأشركت الناس في العمل سويّاً من أجل تحسين نوعية حياتهم، وقد شارك منسوبو الشركة وأسرهم في العديد من الأنشطة. وقد بات من الضروري، للشركة، أن تُركّز جهودَها على المسائل الرئيسة التي تواجهها مُجتمعاتُنا المحلية. إذ يستحيل عليها (أوعلى أيّة شركة أخرى)، أن تتصدّى، وحدها، للاحتياجات الاجتماعية كافة.

وتعتزّ الشركة بأن لها شركاء في القطاعَيْن العام والخاص بنت معهم تعاوناً نشطاً ومثمراً. وهذا من شأنه خلق تفاعل دؤوب يتحاشى تفادي تناسخ البرامج، من جهة، ويتقاسم المعرفة والمشاركة في استخلاص العبر؛ تحقيقاً للفائدة المتبادلة، من جهة أخرى.

صور الموضوع: أرامكو السعودية

نيويورك الأم والمثال

البورصة

لغة الإشارات في مهب الإلكترونيات

ما الذي يفعله هؤلاء المتدافعون في البورصة، ولماذا يصيحون ويتبادلون الإشارات يدوياً؟ أسئلة كثيرة ترتسم في أذهان الكثيرين ممن يشاهدون أخبار البورصة على شاشات التلفزة، ولم يسبق لهم أن اطلعوا فعلاً على أنظمة عملها. بهاء الرملي يحدثنا عن البورصة ونشأتها، وأنظمة عملها المستوحاة كلها من بورصة نيويورك، باعتبارها الأنموذج الأساس.


Getty Images

تشكل أسواق الأوراق المالية أو البورصات، عصب الحياة الاقتصادية في عالمنا المعاصر؛ كونها تستقطب كبريات الشركات العالمية، من الشركات المالية إلى المصارف وشركات الاتصالات والمعلوماتية والصناعة إلخ...

مئات ملايين الأسهم تُشترى وتباع يومياً بمليارات الدولارات، فالطامحون إلى تحقيق ثروات والراغبون في تعزيز أوضاع شركاتهم ومؤسساتهم يتطلعون إلى هذا العالم المليء بالمغامرة علّهم يحققون فيه أحلامهم. أرباح تُجنى وخسائر تسجّل في ثوانٍ يستغرقها تسجيل طلب العملية بيعاً أو شراء. صغار دخلوا البورصة وانتقلوا إلى عالم الكبار في مرحلة الفورات التكنولوجية التي شهدها العالم، وكبار دفعوا ثمن تقلبات الأسواق والتوقعات غير الواقعية لتطورها. وأحياناً كثيرة، كان الفساد والمضاربات وسيطرة أجواء من الشك والغموض في لحظات سياسية معينة في العالم، سبباً في انهيار شركات عملاقة في مجالات الصناعة والطاقة والاتصالات، كان آخرها ما حصل في بورصة نيويورك منذ أعوام قليلة.

نشأتها

تعود نشأة البورصة في شكلها الأولي إلى بدايات القرن الماضي، وتحديداً إلى عام 1905م عندما بدأ كبار المزارعين في الولايات المتحدة الأمريكية، وتحديداً في نيويورك، يحملون محاصيلهم من الخشب، ولاحقاً من القطن والذرة إلى السوق حيث كانت تخضع لقاعدة العرض والطلب فتتغير أسعارها صعوداً وهبوطاً بصورة عكسية مع وفرة المعروض أو شحّه.

مع الحرب العالمية الأولى تقلصت حركة هذه السوق، لكنها سرعان ما عاودت نشاطها بعد الحرب وبدأت تنتظم. وبادر الكبار من أصحاب البضائع يعيّنون وسطاء لهم للبيع والشراء لقاء عمولة كانت تصل إلى ربع أو نصف واحد في المئة من كل من البائع والمشتري. ومع انتظامها، بدأت هذه السوق تتلقى طلبات من شركات النقل ومصارف وشركات أموال وشركات من قطاعات مختلفة، للانضمام إليها، ما حمل أصحابها على التفكير جدياً بإنشاء سوق مركزية أكثر تنظيماً لا تعرض فيها السلع أو الخدمات مباشرة وفي شكل مادي، بل عبر وضع لائحة أسعار تفصيلية بكل السلع المعروضة.

الوسيط من هو؟

وهكذا نشأت في نيويورك أول بورصة في العالم. وراحت تنمو وتتطور وتدرج في سجلاتها أسهماً بدلاً من البضائع. وبدأت شركات وساطة، لها زبائنها وعملاؤها، تحل تدريجياً محل الوسطاء العاملين أفرادياً. وفرض توسع البورصة ونموها تقسيم الأسهم وفرز البضائع والسلع وفقاً لأنواعها في سوق واحدة، فكانت سوق السلع والمواد الاستهلاكية وسوق المعادن الثمينة وسوق الفحم الحجري وسوق الخشب والسكر.

ومع هذا التطور، قرر الوسطاء منع الزبائن من أصحاب السلع التواجد مباشرة في البورصة وفرضوا عليهم إتمام عمليات البيع والشراء عبرهم، وعينت كل شركة وساطة مندوبين عنها في غرفة العمليات. فبورصة نيويورك، الأولى والوحيدة في العالم آنذاك، كانت فرضت على الوسطاء شراء مقاعد لهم في الردهة لقاء بدلات تدفع سنوياً. وكان على أي زبون يرغب في شراء أسهم في شركة معينة أن يتم العملية من خلال الوسيط الذي يتعامل معه والوسيط الذي تتعامل معه الشركة. لكن لم يكن الوسطاء يجرون العمليات بأنفسهم في الردهة، بل كانوا يعطون أمر الزبون في الشراء أو البيع لشخص ثالث في الردهة متخصص في نوع معين من الأسهم. (قسمت الأسهم إلى فئات لتسهيل العمل في البورصات ذات الحجم الكبير).

لغة الإشارات

هذه هي الطريقة في التعاطي، وكون الوسيط خارج الردهة، فرضت تلقائياً لغة تخاطب سريعة لنقل الأوامر بالبيع أو بالشراء وبعدد الأسهم والسعر، فنشأت لغة الإشارات أطلقت عليها اسم مصطلحات البورصة.

ولدت لغة الإشارات وفقاً لمقولة "الحاجة أم الاختراع". فبعد الوسيط عن الردهة واضطراره إلى إيصال رسالة سريعة وواضحة ومفهومة إلى الاختصاصي فرضت نوعاً من التفاهم بينهما على مجموعة إشارات بالأيدي، لكل منها معناها المحدد والمرتبط بتفاصيل العملية المطلوب إتمامها، من نوع الأسهم المراد شراؤها إلى عددها وسعرها إلخ...

ليست هذه اللغة عالمية، بمعنى أنه ليست لها مصطلحات معممة محددة لكل عملية، فضلاً عن أن معانيها ليست

واحدة في كل البورصات. لكنها عالمية بالمعنى العملي، أي أنها معتمدة في كل البورصات؛ كونها وليدة الحاجة إلى لغة مرمزة وسريعة بين الوسيط والاختصاصي كما سبقت الإشارة. إلا أن منبعها الأساسي هو بورصة نيويورك التي تحولت إلى مثال لكل البورصات التي نشأت بعدها في العالم كله.

نمت هذه اللغة مع نمو البورصات واتساع حجم العمليات فيها، منذ انطلاقة البورصة إلى أواسط الثمانينيات من القرن العشرين، عندما بدأت تخلي الساحة تدريجياً لعالم الإلكترونيات، وتطورت على مدى ثلاثة أو أربعة عقود، لا سيما في البورصات الكبيرة التي تشهد عمليات كثيرة. إلا أن مجال توسعها بقي محدوداً؛ لأنها مرتبطة بعدد محدود من الأوامر أي البيع والشراء وتحديد نوع الأسهم وسعرها، وثمة من يقول إنها لن تتخطى سبع أو ثمان إشارات. لكن الأهم كان إتقان استعمالها. وبالفعل كانت هذه الإشارات تنتقل بالتعلم والتدريب من جيل إلى جيل، وكان أساسها بورصة نيويورك.

وإذا كانت الإشارات لغة التخاطب السريع والمفهوم والواضح، كما يفترض أن يكون، بين المعنيين بها، إلا أن سوء الفهم والخطأ احتمال وارد، وسُجلت بالفعل حالات كثيرة من هذا النوع. فأمر الشراء يفهم أمراً بالبيع أو بالعكس، والنتيجة الحتمية لذلك خسائر تصل إلى آلاف الدولارات في العملية الواحدة. إلا أن نظام العمل في البورصة يضمن للزبون حقه، وأي خطأ يقع فإن تبعاته تقع على الوسيط. فهذا النظام يفترض تسجيل أوامر المهمات والعمليات والأسعار بالثواني. وكانت تجرى كشوفات يومية آخر النهار، فإذا تبين وجود خطأ ما، كانت تتم تسويته ويعطى الزبون حقه. وكان التصحيح يتم بأن يشتري الوسيط في اليوم التالي للأمر أسهماً لصاحب الطلب بالسعر الذي كان رائجاً في اللحظة التي صدر فيها الأمر على أن يتحمل الوسيط الخسارة.

وبهدف الحد من هذه الخسائر، ونظراً إلى أن الأخطاء كانت كثيرة، طوّرت البورصات أسلوب عملها واعتمدت ألواناً مختلفة لكل من عمليات البيع والشراء، وبات العمل يرتكز على الإشارات والنظر معاً. وزيادة في الحرص والدقة، لا سيما مع نمو حجم العمليات في البورصات الكبيرة، تم تحديد عدد الأسهم وفقاً لنوعها، وكان كل اختصاصي متعامل بحصة معينة يرتدي لباساً مختلفاً عن اللباس الذي يرتديه متعامل بفئة أخرى من الأسهم في شركة ما ليتمكن الوسيط من التعرف بسرعة وبسهولة على الاختصاصي حامل نوع الأسهم التي يريد التعامل بها.

إخلاء الساحة للإلكترونيات

ومع تطور تكنولوجيا المعلوماتية اعتباراً من الثمانينيات، ومع نمو البورصات وازدياد عدد الأسهم حتى بات يفوق المليار ونصف المليار سهم في اليوم، لم تعد لغة الإشارات تلبي هذا الحجم من التعامل؛ فبدأ الانتقال تدريجياً إلى لغة التكنولوجيا اعتباراً من عام 1985م، أولاً مع الكومبيوتر ثم مع الإنترنت إلى أن بات التعامل الإلكتروني هو السائد اليوم. وباتت العمليات تتم مباشرة في البورصة على الشاشة من دون إشارات، على أن تتم عبر شركة وساطة مسجلة في البورصة تفتح خط اتصال للزبون. واستتبع هذا التطور، وازدياد حجم العمليات والأموال المتداولة فيها، تطوراً في تحديد فارق الأسعار الذي بات بالسنتات للسهم بعدما كان يصل أحياناً إلى 5 دولارات. فكلما كبر حجم السوق كلما تراجع الفارق بين سعر الشراء وسعر المبيع، وترافق هذا التغيير مع تراجع حصة الوسيط من 3 و 4 في المئة أحياناً، إلى سنتات للسهم.

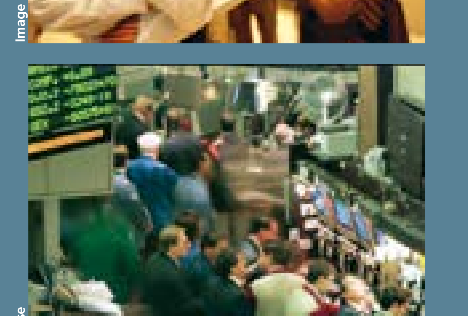
غير أن لغة الإشارات لم تنقرض، كما يخيّل لغير متتبعي عمل البورصات، مع اعتماد الإلكترونيات، وهي ما زالت معتمدة في البورصات الصغيرة وحتى في البورصات الكبيرة، وإن كان على نطاق محدود، في ما يعرف بالعمليات خارج السوق (over the counter). بدأ التعامل خارج السوق مع NASDAK التي أنشئت خارج ردهة بورصة نيويورك للتداول بالشركات التي لا تستوفي الشروط التي تؤهلها الدخول إلى البورصة، فيتم التعامل بأسهمها خارج البورصة ويفرض على الوسيط أن يتصل بشركتين للحصول على سعرين ليشتري بالسعر الأرخص. ويتم التعامل بالأسهم الجديدة خارج السوق إلى أن تكبر الشركة ويصل عدد أسهمها إلى ما لا يقل عن 500 ألف سهم، ويصل سعر السهم إلى الحد الأدنى الذي يفرضه نظام البورصة، عندها يسمح لها بأن تدرج أسهمها في البورصة على أن تتعامل مع شركة وساطة مسجلة في البورصة.

إلى ذلك يعتمد العمل خارج السوق، واستطراداً بلغة الإشارات، مع الشركات التي تكون أدرجت في البورصة سابقاً لكنها أخرجت منها لفقدانها الشروط التي تؤهلها للبقاء فيها، كأن تسجل خسائر ويتراجع سعر سهمها إلى ما دون الحد الأدنى المسموح به (البورصات الكبيرة تفرض عادة سعراً أدنى للسهم مقداره 10 دولارات، فيما تحدده البورصات الصغيرة بـ 3 دولارات وأحياناً أقل من ذلك). حتى أن البورصات الصغيرة جداً لم تكن تضطر إلى استعمال الإشارات، فهي أحياناً لم تكن تشهد أية عملية في اليوم، وكانت أوامر العمليات تسجل يدوياً على لوح خشبي مع سعر الإقفال وتنشر في الصحف في اليوم التالي.

لكل بورصة قوانينها

- تعمل البورصات العالمية كل وفقاً لقوانينها، لكن كل هذه القوانين مستمدة من البورصة الأم في نيويورك. وعلى كل شركات الوساطة التي تريد العمل في أية بورصة أن تعرف قوانينها وتنفذها تحت طائلة دفع غرامات مالية، ويفترض بكل وسيط أن يتّبع دورات تدريب على قوانين البورصة التي سيتعامل معها.
- يمنع على الزبائن التعامل مع بعضهم مباشرة بيعاً أو شراءً، وعليهم التعامل عبر شركة وساطة. فالقوانين العامة باتت تفرض ذلك وليس فقط أنظمة البورصة منعاً لعمليات تبييض الأموال.

Image Bank



PBase

ما هي شركات الوساطة؟

إنها الشركات التي تجمع بين البائع والمشتري وتتقاضى عمولة من الطرفين على العمليات. ومن مهماتها، بالإضافة إلى إتمام عمليات بيع الأسهم وشرائها، تزويد الزبائن بالمعلومات وإدارة حساباتهم وإرسال كشوف بها آخر كل شهر.

ثمة نوعان من الأسهم:

أسهم بسعر السوق، وأسهم بسعر محدد. وعلى الزبون أن يختار أي نوع من الأسهم يريد التعامل به. فإذا كان النوع الأول فيطلب من الوسيط شراء عدد معين من الأسهم بالسعر الرائج. وإذا كان يريد أن يشتري بسعر محدد تجمد الأسهم لفترة معينة ثم تعرض في السوق، وفي الحالتين فإن الزبون هو الذي يقرر، ويتم الأمر بناءً على اتفاق سابق مع السمسار.

PBase

من البورصات

من الأمثلة التي يمكن أن نضربها على مدى تأثر البورصة بالتطورات العلمية والعوامل الخارجية، نشير إلى ما شهدته بورصة نيويورك مع الفورة في عالم الاتصالات والمعلوماتية والإنترنت، من عمليات شراء وبيع بوتيرة متسارعة رفعت أسعار شركات مثل أميركان أون لاين وياهو وأمازون من 10 دولارات للسهم إلى 250 و 300 دولار.

قول في مقال

حوار الغذّامي مع ثقافة الصورة

عُرف الدكتور عبدالله الغذّامي بعمق استبصاره بالتحولات الثقافية، وكشفه عن الصراعات النسقية فيها... وبين أيدينا الآن كتابه الذي صدر مؤخراً بعنوان "الثقافة التلفزيونية، سقوط النخبة وبروز الشعبي"، ذلك الكتاب الذي يحمل تأويلًا جديداً لحركة العالم، وملامح الفعل الثقافي وهي تتحرك في صدى الصورة، وإنتاجها، وتأويلها.

يطرح الغذّامي في الكتاب فكرة هيمنة الصورة، في ظل سيطرة الثقافة البصرية، لكنه يظل يحاور هذه الفكرة من خلال جدل يقيمه مع الواقع، واستحضار للأحداث، وقراءة للمواقف في ظل الإنتاج، والتحريك، والاستقبال للصورة. ويحمل الغذّامي رغبة دفينة، وعلنية في مواجهة التسلط، والهيمنة، ورفض الآخر. يتجلى ذلك في طروحاته المختلفة، ويتجلى عبر هذا الكتاب، حيث يعد الهيمنة المطلقة لثقافة كونية واحدة وهماً وأمراً غير صحيح. وأن هذا الخط الذي يسوِّق يحفز أنماطاً أخرى تخرج من المضمر الثقافي، تواجه، وتعاند، وتفرض نفسها عبر إنتاج صور مضادة، لكن السؤال الذي يتبادر هو: أنه ما دامت هذه الثقافة الكونية الراغبة في السيطرة، تملك تقنيات الصورة، والقدرة على تحريكها، والقدرة على الاستجابة السريعة لاتخاذ الموقف المناسب منها... ألا يكون هذا الأمر دالاً على أن هذا القطب بذلك يحمل آلية الهيمنة، وله الحظ الأوفر فيها؟

وتبعاً لذلك رأينا العديد من الصور المرعبة في حرب العراق، تنخر الإحساس الإنساني، وتمزِّق جسده.. فلم تُحدث تلك الصور إلا الحسرة والألم، والبكاء بالكلمات.. وذلك لأن الاستجابة الإيجابية مرهونة بالهيمنة والتسلط، وما ظهر غير ذلك من صور ذكرها الغذّامي فإما أنه خرج عن هذه السيطرة، وإما أن هذه الهيمنة أرادت أن تخرج هذه الصور مثل ماحدث في سجن "أبو غريب"، وما حدث في الفلوجة.

بين تسويق الشكل والهوية

لذلك تكون الصورة بين تسويق الشكل والهوية وتأثيراتها قرينة الإرادة وسياسة القوة. ويكون ظهور المقاومة لجبروت صورة بصورة أخرى رهين القوة الكامنة خلفها. ولذلك فإن المدى أمام ديمقراطية المهيمن طويل؛ لكي يستوعب التجربة، ويهضم حركة الأنساق الثقافية، ومنها ما يجري داخل أمريكا، حيث يذكر الغذّامي ما شهده العالم، من بروز للهوامش أمام دعاوى العولمة، حين ظهر الأفارقة بشكل قوي في كل صيغهم خاصة في اللباس، والديانات، واللغة، والموسيقى، ليؤكد على أن مزيداً من العولمة يدفع إلى مزيد من الخصوصيات، ويبرز الهوامش؛ ذلك لأن الصورة لا تسوِّق إلا الشكل، أما الهوية الجوهرية في الدين واللغة والعرق فهي تميل إلى مزيد من التحصن، وتظهر مقاومة شديدة، ورفضاً قوياً ضد الآخر المختلف.

وقد شُغل الغذّامي بمتابعة حركة القوانين الثقافية، وأعمل ذلك في متابعة حركة الصورة، وحركة استقبالها، مشيراً إلى الدلالات المزدوجة التي تؤسسها الصورة ثورية ثقافية، لينتهي إلى أن الصورة تحفز نقيضها بقدر ماتشيع، وبقدر ما تتقوى... ليبحث عن المآل الذي يؤول إليه استفزاز الهيمنة وتسلطها من خلال استثمار تقنية الصورة، وإنتاج الرعب، وتهويل الخوف، ليؤكد على أن الاستجابات الثقافية العالمية تكشف عن مقاومة إيجابية لعناصر الهيمنة الثقافية والاقتصادية والسياسية. لكن الغذّامي لا يستسلم لسريان هذا المفعول، إذ إن "هذا لايعني بحال أن الأمور على مايرام بتسليم مطلق.." لينتهي إلى أن "الثقافة التي تتمكن من إنتاج صور جديدة هي وحدها التي سيكون في مقدورها تحقيق موقع آمن لها..."، لكن كيف السبيل إلى إنتاج هذه الصور؟

لعل إجابة الغذّامي تكمن في الفقرة الأخيرة من الكتاب التي يقول فيها: ".. والصورة ثقافة وفكر وإنتاج اقتصادي وتكنولوجي، وليست مجرد متعة أو محاكاة فنية، وهي لغة عصرية يشترط فيها تطابق القول مع الفعل وتمثل الحقيقة التكنولوجية بما أن الصورة علامة تكنولوجية ومؤشر إنتاجي، ومنطق مستقبلي..".

الصورة نسق جوهري

من الممكن اعتبار الفصل الثامن من الكتاب المعنون بـ"الصورة بوصفها نسقاً ثقافياً" تلخيصاً جوهرياً مركزاً للكتاب، حمل مضامينه المعرفية، وتأويل مشاهداته، وسرد رواياته التي اعتمدها في عرض مادته. حيث طرح عبر مفهوم الجسم / الصورة حركة التحول إلى ثقافة الصورة. وأن الانتقال من ثقافة المجاز القديم في الشعر، وتصوير الجميلات، ولوعات الفراق قد آل إلى مجاز جديد، حيث صارت الصورة السينمائية والتلفزيونية والفوتوغرافية تقول ما كان يقوله النص الغزلي. (ص 195، 196) وأضحى الكتاب والغذّامي يعرضان التعامل مع الصورة على أنها نص ثقافي يحمل طاقة دلالية وقوية عبر نظام التورية الدلالي (ص 198).

ومن براعة الكتاب أنه استطاع أن يحمل لنا تفسيراً لمتناقضات العالم عبر هذه القوة الدلالية التي تحملها ثقافة الصورة، فأخذ يقدم لنا ذلك عبر المفارقات الآتية:

1 - التأنيث / التفحيل

حيث يعرض تجاور صورالتأنيث من تأنيث العلامات الاجتماعية في اللباس واللغة والجسد، وظهور صورة التأنث لدى الذكور، في الإطلالة والتسريحة، وتصنيع الأغاني بأصوات مؤنثة مقابل إنتاج صورة أخرى ناقضة للتأنيث في اتجاه السلوك البشري نحو العنف، في المواقف الأسرية، أو الاجتماعية، أو الطائفية، أو الأمية. ولذلك يتجاور قصف بغداد مع أغنية راقصة، حيث يصبح الأمر كما يرى الغذّامي "اشتراك في صيغة ثقافية واحدة من حيث الألوان والومضات والأصوات والسرعة الخاطفة وفي صيغ الإثارة والتحريك البدني والنفسي.." (ص 199).

2 - التعري / التحجب

ويركز الغذّامي في هذه المسألة على كون العري أصبح "لغة ذات شحنة دلالية وتسويقية عالية جداً، وصار الجسد خاصة الجسد المؤنث يتعرى بمزيد من التعرية..." (ص 201)، لكن هذه الصورة - كما يرى - تجاور نقيضها.

3 - الفتنة / العفة

ويركز هنا على المسار الذي يؤول إليه حامل النقيضين السابقين، فالعري يؤول إلى الفتنة، ونقيضه يؤول إلى العفة. ويذكر حوادث ومشاهدات تدل على ما لثقافة العري من سيطرة، حيث إن التصاميم تتجه نحو مزيد من التعري مع تقدم الأيام، وما كان عارياً في الماضي صار الآن شديد المحافظة مقارنة بما هي عليه ملابس اليوم" (ص 204). ومع ذلك يذكر أن الحجاب يتكاثر، حتى أن إحصائية وردت من كندا عن ازدياد نسبة المحجبات.. ليذكر أن هذا مشهد حي يكشف عن حركة الثقافة حسب قانون التورية الثقافية، أي في تجاور معنيين يقتسمان المهمة ويدخلان في حوار عملي بين الأمر وناسخه (ص 204). ولعل نقيض الفتنة العري الكامن في العفة والحجاب، يأتي من الرغبة في التحصّن في الخصوصية، وعدم الانكشاف للعالم إلا وفق شروط الذات في ما يشاهد منها، وفي ما نرغب أن نشاهده، ويتفق هذا مع دلالة العنصر التالي من هذه الحوامل الجدلية، وهو:

4 - تعرف / تكره

يتحدث الغذّامي هنا عن مقولة إن الإنسان عدو ما يجهل، وكيف أن ثقافة الصورة استخدمت قانوناً جديداً هو قلب المعادلة، فصار المرء يكره ويخاف ما يعرف؛ وذلك لأن الغريب أصبح حاضراً وماثلاً بقيمه ومفاهيمه من دون خفاء أو مواربة. النقل هنا يتم في حالة انفصال، فهو ينقل الحركة والأفعال كما تحدث من ثقافة إلى ثقافة، وهذا يختلف عن الانتقال عن طريق المعاشرة والاحتكاك، حيث إنه في هذه الحال يحدث تعديل بسبب التكيّف، وبسبب الانكشاف أمام الآخر الحي في مشاهدته. ولعل هذا ما يجعل برامج مثل برنامج "على الهوا سوا" ينقل مشاهد، تتعدل أثناء المشاهدة الحية المباشرة كثيراً من حيث الانفعالات، والحركات، ولغة الخطاب. فمن يبكي وقد تأقلم مع الجو المحيط به، لن يبكي كذلك بمشاهدة هذا الجمع أو أنماط محددة منهم.

5 - النخبوي / الشعبي

وفي هذا الحامل الجدلي، الذي يعد مظهراً من مظاهر ثقافة الصورة، يؤكد الغذّامي أطروحته التي حملها السطر الثاني من عنوان الكتاب، وهو "سقوط النخبة وبروز الشعبي"، ولكن بشكل أقل حدة من العنوان حين يقول "إن كانت أطروحتنا في الكتاب تكشف عن تراجع النخبة، وبروز الشعبي.." (ص 207)، فهو هنا يُعدّل "سقوط" إلى "تراجع"، بل يمضي في حديثه ليؤكد ازدياد قوة النخبة فيقول "إلا أن هذا لا يعني بأي حال زوال النخبة واندثارها، بل إن النخبة ما زالت موجودة، وهي ليست موجودة فحسب وإنما نستطيع أن نقول إنها قد زادت نخبوية".
وقد نشأ هذا من إشاعة الثقافة التلفزيونية وتمريرها عبر الصورة، والحركة السريعة، والمشاعة للجميع، فكسرت هيمنة المؤسسات البحثية والتعليمية، في الوقت الذي أدت فيه هذه الحركة إلى انتشار العلوم، وسوء تلقيها، بينما يتجه العلم الحديث - كما يرى الغذّامي - إلى مزيد من التخصص ومزيد من الدقة البحثية (ص 207)، وحين نعود إل داخل الكتاب نجد تسمية أخرى لهذه الثنائية، نجدها تحت: "الثقافي والتفاهي"، وقد استثمرها الغذّامي ووظفها من قول ممدوح عدوان حين قال "لقد غيّب صوت المثقف والثقافة الحقيقية، وكرّس صوت التفاهة، نحن نعيش حالة حصار التفاهة" (ص 54).

6 - الغزو الفكري والغزو المضاد

وهنا يحدثنا الغذّامي عن فعل الصورة التلفزيونية في نقل الثقافة والثقافة المضادة، وهو يستثمر الاحتكاك بين الثقافات، لينظر إليه حين تتسارع به الصورة، وتدفع إلى الإنتاج والإنتاج المضاد، ويمضي في تحليله في هذه المسألة إلى أن يصل إلى القانون الدلالي حول مبدأ الشيء ونقيضه، وهو الأمر الذي سبقت إليه الإشارة.

د. عالي سرحان القرشي



منتديات الحوار تسرق "الرأي" من صحافة الورق

سيد الحوار.. المحاور الخفي..!!

أصبحت المنتديات الإلكترونية جزءاً مهماً من الحياة اليومية في المجتمع السعودي، بعدما أسست لنفسها وسطاً تفاعلياً لم يكن متوقعاً حتى سنواتٍ قليلة.
وما يجري، حالياً، في ردهات الإنترنت يكاد يفوق قدرة المجتمع على الاستيعاب؛ ذلك أنه خاض التجربة من دون أي تمهيد كافٍ، وصار يمارس الحوار الإلكتروني على نحو يحمل بشاراتٍ كثيرة على مستوى التواصل والتقارب، ويحمل، أيضاً، تحديات جديّة على مستوى صناعة الوعي، وثقافة الاختلاف، وحدود الحرية..
الزميل حبيب محمود تصفّح عدداً من منتديات الحوار السعودية، وخرج بعدد من الإشارات..

في طريق "غوغل" الطويل؛ كان البحث جارياً عن كلمة عربية واحدة؛ هي "منتدى". ومحرك بحث عنكبوتي مثل "غوغل" بإمكانه أن يختزل العالم في ثوانٍ محدودة. وهذا ما حدث بالفعل؛ ففي أقل من عُشر دقيقة واحدة قدّم محرك البحث مليوناً وعشرة آلاف رابط في شبكة الإنترنت يحمل هذه الكلمة..! وهذا العدد يتزايد يوماً بعد يوم.

في هذا العدد الهائل من الروابط تختبئ آلاف الأفكار والمعلومات والمواقف والحزازات والنعرات، الصغيرة والخطيرة. وتتفاعل لوحات المفاتيح مع مئات الآلاف من الأشخاص الذين هيأت لهم تقنية الاتصالات والإنترنت وسائل ما كانت تخطر ببال أحد منهم حتى قبل عقد من الزمن..!

وفي وسط مثل الشبكة العنكبوتية ينعدم ما يُمكن تسميته "مكاناً"؛ إذ لا مكان في هذا العالم الرقمي الذي شطب كل ما عرفته البشرية عن المسافات والأقاليم والبلدان.. لقد أصبحت كل المواقع متداخلة حد انعدام التمييز بين شرقي الأرض وغربيها..!

من المجانين.. إلى المجاريح..!

من كلمة "منتدى" تتفرع وتتشعب المداخل والطرقات على ذلك النحو الذي لا يحترم الدهشة، إذ سرعان ما تنطفىء الدهشة الأولى بدهشة ثانية، ومن ثم دهشة ثالثة، فرابعة، ويتحوّل التجول والبحث إلى سلسلة من المفاجآت المثيرة للضحك.. وللبكاء..!

يتنافس المجانين و"المجاريح" في التعبير عن أنفسهم بطرح قضايا هامشية، ومناقشات خالية من أي مضمون..!

"مجانين نت".. هذا اسم منتدى..! لا تدهش؛ فهناك منتدى منافس اسمه "مجانين كوم"..! والقصة لا تنتهي عند المجانين المعترفين بجنونهم؛ فهناك "مجاريح" هائمون في منتداهم.. هناك أيضاً هائمون في "عشق السراب"، و"أرض الأحلام". وكم هو مثير للتساؤل حين يعترض طريقك منتدى "شلة بنات"،

ثم تحملق عينيك في عدد الأعضاء المتواصلين في هذا المنتدى.. إنهم بالآلاف.. والموضوعات التي تناولها المنتدى تناهز العشرات من الآلاف، والكتابات التفاعلية بلغت أضعاف ذلك. لكن "شلة بنات" مليء بآلاف الأعضاء الذكور الذين يسرحون ويمرحون في حمى الموقع المخصص للفتيات..!!

برنامج تفاعلي

تُصنّف المنتديات الإلكترونية ضمن برامج الإنترنت التفاعلية التي يمكن استخدامها بواسطة متصفح الإنترنت العادي. ولذلك فهي متاحة لكل شخص يجيد الاتصال بالإنترنت. ومن المعروف أن البريد الإلكتروني يمثل خدمة تفاعلية تتم بين المتراسلين. كما أن برامج الحوار المباشر "Chat" خدمة تفاعلية أخرى، تتم مباشرة بين مجموعات، أو أفراد ضمن مستويات متفاوتة من الخصوصية.

والمجموعات البريدية خدمة متطورة عن البريد الإلكتروني، فعبرها يتم إرسال أكبر عدد ممكن من الرسائل إلى أشخاص مشتركين آلياً.

لكن المنتديات تتميز عن هذه الخدمات بعدد من المزايا الفنية. فالمنتدى، في الأصل، هو موقع شبكي مثله مثل أي موقع آخر، يحمل عنواناً نمطياً كبقية مواقع الإنترنت، ويمكن تصفحه كأي موقع. ويتم تحميل برنامج "المنتدى" عليه، وتتفرع منه وصلات تبويب مصنّفة حسب رغبة صاحب المنتدى. وعلى الرغم من أن صاحب المنتدى يبقى المتحكم الأول في موقعه؛ فإن "تشغيل" المنتدى يتم، فعلياً، بواسطة الأعضاء المشتركين. فهم، بدورهم، يكتبون الموضوعات ويضيفون عليها معلوماتهم وآراءهم وانطباعاتهم. وعلى هذه الممارسة يتم التحاور والتفاعل.

وبما أن المنتدى موقع نمطي أصلاً؛ فإن كل ما يُكتب فيه يبقى متاحاً للقراءة والطباعة والتوثيق لكل زوار الموقع. كما يمكن البحث عن أي موضوع في الموقع واستخراجه ما لم يتم حذفه من قبل صاحب المنتدى. وهذا يعني أن السيطرة على ما تنشره المنتديات هي رهنٌ لمسؤولية صاحب الموقع. وقد درجت العادة على أن يستعين صاحب الموقع بفريقٍ من المشرفين يعطيهم صلاحياتٍ متفاوتة، فهناك مشرفون لديهم صلاحية التحرير والتعديل فيما ينشره الأعضاء، وهناك مشرفون يملكون صلاحية حذف الموضوعات أيضاً، وهناك مشرفون بإمكانهم التطفل على الأعضاء أنفسهم ومراقبة خصوصياتهم المرتبطة بعضوياتهم. وهكذا تتفاوت الصلاحيات بتفاوت مستويات المشرفين الذين هم، أصلاً، أعضاء في المنتدى تتم ترقيتهم بناءً على درجة نشاطهم وتفاعلهم مع الموقع.

لعبة أسماء..!

المشكلة الأشدّ خطورة في المنتديات هي مشكلة العضوية. فعضوية أي منتدى لا تتطلب، في الغالب، أكثر من أن يكون لدى طالب العضوية بريد إلكتروني، وعلى أساسه يقوم بتسجيل اسم خاص به، وبعد إجراءٍ

اعتيادي سريع يُصبح عضواً، كبقية الأعضاء، بإمكانه كتابة الموضوعات والتعليق على موضوعات غيره وتدوين ما يريد.

إن أي شخص يستطيع أن يطلق على نفسه ما يحلو له: اسمه الحقيقي، أو عنترة بن شداد، أو سمكة قرش، أو طالب القرب، أو طه حسين، أو أبا نوّاف.. وغالباً لا يكون هناك فرق بين أن يكون العضو صفة أو طرفة أو اسماً أو حيواناً أو زهرة ليلك..!

مليون وعشرة آلاف رابط عربي تختبيء فيه آلاف الأفكار والنعرات والحزازات.. فهل يؤسس ذلك ثقافة اختلاف محترمة..؟

لا يتوقف أمر العضوية على اسم أو اسمين.. هناك فرصة لعشرات الأسماء. قد يتخذ شخص ما اسماً لعضوية رئيسة، ثم يسجل مجدداً اسم عضوية أخرى مختلفة احتياطية، ورابعة.. وخامسة.. وعاشرة..!

بالطبع؛ تبدو المسألة كما لو كانت لعبة يديرها شخص واحد عبر عدد من الأسماء الإلكترونية، ولكل اسم واجهة وأسلوب وطريقة. ناهيك عن ذلك فرص إثارة القضايا والموضوعات، على درجاتها، من قبل شخص واحد، ولكن من وجهات نظر مختلفة..!

في الصفحات الأدبية، مثلاً، يكتب زيدٌ قصة قصيرة، وبعد يوم يعلق عليه عمرو تعليقاً يشيد فيه بالقصة "الرائعة". وبعد ساعات يكتب "خالد" قراءة نقدية للقصة. ثم يتلوه "عابر سبيل" ليضيف مديحاً على المديح. وما تمرّ أيامٌ حتى تتحوّل صفحة القصة القصيرة إلى مساجلة ومزايدة على أهمية النص وبنيته وجمالياته ومضمونه الكبير..! ولكن الحقيقة المضحكة هي أن "عمرو" و"خالد" و"عابر سبيل" هُم زيد نفسه.. صاحب القصة..!!

ما فعله زيد مع قصته يمكن أن يفعله أي عضو مع أي موضوع. ففي الصفحات السياسية ينبش عضو ما قضية شائكة، فتشتعل الصفحة تعليقات واعتراضات ومزايدات ومراهنات.. في النهاية يظهر أن نصف الأعضاء المتناحرين إنما هم شخص واحد ساند نفسه بأسماء عضويات أخرى..!!

محاور خفي..!

في وسط كهذا ينفتح المجال على كل شيء ويتخطى المتوقَّع. والعودة إلى روابط "غوغل" تقود إلى قراءة واقع ما يجري في المنتديات. ويمكن تلخيص هذا الواقع بأنه واقع "المحاور الخفي" الذي يقول ما يريد في أي وقت يريد..!

المحاور الخفي هذا قد يأتي من أي مكان من العالم.. قد يدخل الموقع ويستخدم عضويته، وقد يلصق بياناً سياسياً لمجموعة إرهابية ما، وقد يحمّل مقطع فيديو لذبح رهينة، أو يسجل مطالب سياسية من إحدى الحكومات..!

قبل عقود كان المجرمون والإرهابيون يوجهون تهديداتهم ويُملون مطالبهم من خلال هواتف العملة أوالرسائل الورقية. التهديدات والإملاءات يتلقاها أشخاص معدودون، وغالباً ما يكونون ذوو الضحايا. ولا يمكن مقارنة ذلك بما تتيحه تقنية الإنترنت لمجرمي اليوم.. ورجال الأمن أيضاً..!

والمنتديات هي ملتقى الجميع بالطبع، وما يحدث هو أن كل نية ورغبة وموقف يمكن التعبير عنه عبر لوحة مفاتيح صغيرة. ويبقى الفارق واضحاً بين الخير والشر مهما تطوّرت الوسيلة..!!

التجربة السعودية..!

في مجتمع، مثل مجتمع المملكة، يمكن التقاط الكثير من الإشارات التي أوجدتها منتديات الإنترنت. إنها - ببساطة - نوعٌ من الانفجار في التواصل يعبّر عنه تكاثر وتوالد المواقع الحوارية السعودية على نحو متسارع وخارج عن المتابعة.. وبالتالي عن السيطرة..!

صفة الانفجار هذه آتية من تقدير العمر القصير جداً للمنتديات المرتبط بعمر خدمة الإنترنت في البلاد. فهو لم يتجاوز بعد سنواته السبع. والتجارب الأولى التي خاضها قلة من المثقفين كانت قد نسجت على منوال منتديات "الساحات"، وهو موقع إماراتي المنشأ، لكنها أسست للكثير من التجارب اللاحقة التي توالت تباعاً وانتشرت في الشبكة الإلكترونية وصارت جزءاً من الحياة اليومية السعودية، تتجسد فيه الكثير من المعطيات الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية.

وليس من قبيل المبالغة القول إن الانفجار في مواقع المنتديات أعطى لكل مدينة سعودية موقعاً حوارياً واحداً على الأقل..! وهناك قرى سعودية لدى كل واحدة منها خمسة أو ستة منتديات، وفي كل منتدى ألفان أو ثلاثة آلاف عضو..!!

منتديات عامة

وقد تعوّد أصحاب المنتديات تفريع مواقعهم إلى صفحات.. هناك صفحات القضايا العامة، والصفحات السياسية، والدينية، والاجتماعية، والأدبية، والفكرية.. والتفريع يطول الفن التشكيلي، وقضايا المرأة، والمطبخ، والتربية، والطفولة، ناهيك عن هواة البرمجة الإلكترونية، والهكر..إلخ..!

بعض المهنيين، بدورهم، وجدوا في هذه التقنية ملاذاً لهم، فاستحدثوا مواقعهم الحوارية للتعويض عن انعدام وجود مؤسسات تدعم اهتماماتهم.. على سبيل المثال، لا التقصّي، منتدى "التمريض السعودي" يلتقي فيه العاملون في هذا الحقل ويتبادلون أخبار المهنة، ويناقشون متاعبها ومشاكلها، ويعبرون عن مطالباتهم الكثيرة التي ربما لا تجد من يصغي إليها في وسائل الإعلام التقليدية. ومثله منتدى المحامين، ومنتدى الأسهم، و.. و.. إلخ

أحاديث المجالس الخاصة وشائعاتها تتطور إلكترونياً وتنتشر عالمياً..!!

خصوصية محلية

وعلى الرغم من التشابه الممل بين المواقع العامة، فإن هناك قدراً من الخصوصية يمكن أن تتسم به بعض المواقع، وبالذات تلك المحلية الطابع التي يؤسسها أصحابها بأسماء مدن أو قرى أو مناطق. في مثل هذه المواقع يكون المنتدى ملتقى لأبناء المدينة أو القرية، وربما القبيلة. وفي إطار الموقع الجغرافي المحدود يتناول الأعضاء أخبار مدنهم وقراهم وقضاياها المحلية على أنحاء متعددة.



والآثار التي يمكن أن تتركها هذه المنتديات تبدو ضئيلة نظرياً، غير أنها من الناحية العملية كبيرة جداً في حالات كثيرة. فقبل عام تقريباً نشب صراعٌ إلكتروني بين أبناء إحدى قرى المنطقة الشرقية حول انتخاب مجلس إدارة جمعيتها الخيرية، واستوعب الصراع كثيراً من حالات التشنج والتعصب والمناوءة والمؤازرة، الأمر الذي انعكس على نتائج الترشيح. لكن الصراع لم ينته بصدور النتائج، بل استمرّ إلى ما بعدها بسيل من الاتهامات التي رجحت وجود "تزوير" في آلية الترشيح..!!

مثل هذه الدرجة الحادة من التعبير لا يمكن أن تجد لنفسها مساحة في وسائل الإعلام التقليدية التي يضيق هامش مسؤولياتها المحافظ على تمرير المهاترات والتشنيعات والإساءات الشخصية مهما صغُرت. وهذا يعني أن ما يُسكت عنه في وسائل الإعلام المقروءة والمرئية والمسموعة يُمكن التصريحُ به صراحاً في الملتقيات الالكترونية، وبحدة لا ترحم ولا تتردد في تكسير العظام، إذا لزم الأمر..!

كلام مجالس..!

وما حدث في قضية الجمعية الخيرية يمكن انسحابه على الكثير والكثير من قضايا المجتمع السعودي. فقد تخلقت المنتديات من عملية تهجين اعتباطية لوسائل الاتصال المتطورة المتمثلة في الإنترنت من جهة، ولبدائية أحاديث المجالس من جهة أخرى. والطريف أن ما يجري هو أن أحاديث المجالس التي لا يمكن إعلانها في وسائل الإعلام تجد طريقها سالكاً إلى العلن على نحو يوصف بـ "الحر"، والوسيلة هي: الإنترنت..!

فإذا ما منحت الإنترنت للمتحدث فرصة التخفي أو المواربة؛ فإن كل شخص وكل فكرة وكل مبدأ من الطرف الآخر إنما هو عرضة لهذه "الحرية" المرعبة. ولا حماية لأحد من هذا الوسط التواصلي الخطير، إلا الضمير..!!

هل تحاور أشباحاً..؟

في إحدى المحاورات الحادة كان أحد السعوديين طرفاً واضحاً باسمه الصريح وصفته. لكن هذا الوضوح جعله محاوراً أعزلَ أمام مجموعة من المحاورين المدججين بالأسماء المستعارة..! فكانت الصورة المضحكة المبكية هي أن الروائي كان يناقش أشباحاً في قضايا بالغة الحساسية بمسؤولية جادة، في حين يمارس "أشباحه" كل أنواع التشنيع والقذف الشخصي والاعتداء العلني..!

منطقياً لا يمكن لمعركة فكرية أن تكون طبيعية ومفيدة وموضوعية إذا خيضت على هذه الشاكلة. ولطالما كان هذا المثقف البارز عُرضة لأشباح الإنترنت، الأمر الذي دفعه إلى التوقف عن محاورة من وصفهم بـ "الأشباح" في المنتديات..!

وذات مرة أجرت إحدى الصحف المحلية حواراً "وهمياً" مع الدكتور الحمد، ضمن سلسلة لقاءات وهمية واضحة أجرتها الصحيفة مع عدد من المثقفين، وكان محرر الصحيفة يضع السؤال والإجابة من دون الرجوع إلى الضيف، وهذا النوع من الأعمال الصحافية معروف. وفي حوار الحمد استنطق محرر الصحيفة كلاماً لم يقله الحمد أصلاً. وعلى الرغم من وضوح فكرة الحوار الوهمي؛ استغل أحد فرسان التخفي الإنترنتي ما كتبه المحرر على لسان الحمد، ونقله إلى أحد المنتديات واعتبر ما فيه اعترافاتٍ صريحة للدكتور الحمد نفسه، وبنى على هذه الاعترافات أحكاماً خطيرة..! ثم أعانه أعضاء آخرون على التأليب والتشنيع، الأمر الذي اضطرّ الصحيفة إلى نشر إيضاح في صفحتها الأخيرة، بيّنت فيه أن الحوار الذي نشرته لم يكن إلا "حواراً لم يتم"، وأن الدكتور الحمد كان ضيفاً وهمياً، علاوة على الإيضاح المنشور، أصلاً، ضمن الحوار..!

بعض الإعلاميين المعروفين ينشرون في المنتديات ما لا تنشره صحفهم.. ويحصلون على ردود أفعال أسرع..!

ومثله الناقد محمد العباس، وهو صاحب تجربة منتديات واضحة، فقد تعرض مراراً وتكراراً إلى محاولات قذف شخصي علني لم يوفّر حتى خصوصيات حياته..!

تجربة غامضة الملامح..!

بعد قرابة سبع سنواتٍ من عمرها لا تزال المنتديات واحدة من الإشكاليات التي يتعاطاها المجتمع بشكل يومي، ويعلن عبرها عن تداخلاته وأنماطه الفكرية. ويمكن الجزمُ بأنها حالة غير مؤسسة على نضج اجتماعي كافٍ لخوض التجربة وتفعيلها في سياق احتياجات المجتمع الماسة إلى التواصل ومن ثم إلى التقارب الذي يصهر الاختلافات في حالة انسجام وتعايش..! بمعنى: إن المجتمع الذي تعامل، لعشرات السنوات، مع وضع إعلامي منضبط وخاضع لتقاليد وأعراف مثلتها الصحافة المحلية؛ وجد نفسه فجأة في مناخ مختلف تماماً.. مناخ يعطي الحق الإلكتروني لكل فرد ليقول ما يريد ويعبّر عمّا يشتهي..!!

إنها حالة "صدمة" إعلامية حقيقية، كشفت عن خبايا دقيقة في المجتمع، فراح رواد المنتديات يصرخون بأصواتٍ عالية ضدّ - أو مع - أفكار، أو أشخاص، أو مبادىء، أو حالات وظواهر، أو أحلام وآلام ومطامح، مستفيدين من القدرة على التخفي..!

وكم هو مدهش أن يتجه عاملون في الإعلام إلى المشاركة في المنتديات، بعضهم بأسمائهم الصريحة، وبعضهم بأسماء مستعارة. وهو ما يشير إلى أن الملتقيات الإلكترونية باتت تعويضاً جدياً لجزء مهم من الهامش المفقود في الإعلام المحلي حتى للعاملين في الصحافة. فما لا يمكن نشره في الصحيفة أو المجلة، لسبب يراه رئيس التحرير أو مديره، يجد طريقه إلى قراء المنتديات ومتابعيها..!

وهذا يعني أن "المنتدى" قد بدأ يسرق "صحافة الرأي" من الصحيفة والمجلة، بل ويطوّر تفاعلاتها ويسجل ردود أفعالها لدى جمهور الإنترنت الذي يتكاثر يوماً بعد يوم..!

مساحة المرأة..

حالة الصدمة، أيضاً، مكنت المرأة من تأسيس اندماج مع هذا النسيج الإلكتروني الحديث. وبالتأكيد استفادت المرأة السعودية من واقع "المحاور الخفي" لتعطي لنفسها أي اسم تراه، وتعبر عن نفسها على النحو الملائم لشخصيتها. وقد أدّت مشاركات المرأة في المنتديات إلى ظهور منتديات نسائية، وموقع "عالم حوّاء" الذي تأسس عام 2000م بجهود رجلين سعوديين، استقطب آلاف السعوديات للمشاركة والتعبير والتفاعل في العديد من القضايا. وبعده أخذت المواقع النسائية تتكاثر وتتناسل، ويشارك فيها الرجال والنساء..!!

إشارات وتحديات

من هذا كله يمكن اقتناص عدد من الإشارات الأولية التي رسمتها المنتديات السعودية، وفي الوقت نفسه صنعت عدداً من التحديات أمام المجتمع ومؤسساته، بصرف النظر عن الظروف والإمكانيات والأسباب والمسببات التي تقف على خلفية السلوكيات الإلكترونية إذا جاز الوصف.

- في مقدمة هذه الإشارات هو أن المنتديات ليست مواقع محلية في حقيقتها الإلكترونية.. إنها متاحة لكل مستخدم إنترنت على وجه البسيطة. وبالتالي؛ فهي تعبّر عن كل تفصيلات حياتنا، بما فيها من مقبول ومرفوض لدينا. والتحدي الجدي يتركز في ألا نخجل من كل هذه الأخلاط التي تكشفها المنتديات عنا، بل من الضروري، منطقياً، أن نتفهم واقع الطبيعة البشرية في الأفراد والجماعات، وأن نعمل على تطوير الوعي بدلاً من التشنج والدخول في مواجهات شرسة، أو اللجوء إلى إجراءات قمعية.

- أسست المنتديات مهاداً اجتماعياً للتواصل والتحاور، ومن شأن هذا التواصل أن يعزز ثقافة الاختلاف واحتكاك الرأي والرأي الآخر. في الوقت نفسه لا يمكن التغافل عن أن إنضاج هذه الثقافة سوف يمر عبر طريق طويل وشائك، وهو ما يعني أن ثمناً مهماً سيدفعه المجتمع إذا تُرك الحبل على الغارب في الصدامات المتكررة التي تشهدها المنتديات.

- ومن الإشارات، أيضاً، هو الاتساع اليومي لجمهور هذا الوسيط التواصلي الحديث، والتكاثر الواضح في أعداد المنتديات المحلية. وكلا الأمرين يعطي إشارات جدية إلى أنماط التفكير الاجتماعي، وقراءاته للأحداث والأوضاع والمتغيرات. وجديرٌ بالمختصين أن يخضعوا ما تفرزه المنتديات من أفكار وانطباعات - ومعلومات - إلى البحث والدراسة في العديد من القضايا التي تطرحها المنتديات، بوصفها انعكاساً لأوضاع اجتماعية متصلة بالكثير من القضايا الوطنية.



- كشفت المنتديات عن كونها صوت من لا صوت له في وسائل الإعلام التقليدية، بل وصوت من له صوت أيضاً. ومن بعضها تخرج كثيرٌ من الهواة والمبتدئين في ميادين الكتابة الاجتماعية والسياسية والأدبية وغيرها. كما أسست ملتقيات تفاعلية لأصحاب المهن والهوايات والاهتمامات. وبما أن التجربة قد كوّنت لنفسها تراكماً مرحلياً؛ فإن المؤسسات الثقافية والمهنية باتت في مسؤولية مضاعفة تجاه المواهب والقدرات الإبداعية والمهنية.

- أصبحت المنتديات بيئة تستوعب الصالح والطالح في موقع واحد. فهي تصلح لأن تكون "صحافة صفراء" تلاحق الفضائح وتلفق الشائعات، في الوقت الذي يمكن أن تقوم بدور التثقيف والتوعية وتعزيز الإيجابي من أخلاقيات المجتمع وموروثاته. وبما أن السلوكيات المختلطة عادة ما يكون تأثيرها أقوى سلبياً، فإن التحدي الحقيقي يجب أن ينبع من المؤسسات التربوية، وفي مقدمتها مؤسسة الأسرة. فالإنترنت باتت وسطاً تربوياً رابعاً، بعد أوساط الأسرة والمدرسة والمجتمع.

- بما أن "المحاور الخفي" سيبقى إشكالية يصعب التعاطي معها، بل والمساس بها؛ فإن تطويق آثارها سيظل ضمن نطاق محدود وخاضع لإدارة كل منتدى على حدة. وبما أن أصحاب المنتديات هم من أبناء المجتمع، بما فيه من تعدد واختلاف طبيعي، فإن كل "عضو" - استعارياً أم حقيقياً - يمثل إشارة إلى موقعه الفكري والنفسي والاجتماعي.. والخلاصة: هي أن المحاور الخفي سيبقى سيد الحوار.. مصلحاً كان أم مفسداً.. شئنا أم أبينا..!

بعدما ظل الجراد طوال أشهر الصيف الماضي يفتك بالأراضي الزراعية في الجزائر مسبباً خسائر اقتصادية هائلة، انتقل شرقاً ليملأ فضاء القاهرة لبضعة أيام، قبل أن تبعثره رياح الخريف الباردة، والأمطار، لتصل بقايا فلوله إلى فلسطين، ولبنان، والأردن قبل أن تهدأ حركته. لقد أثار هذا الظهور للجراد موجة قلق، نظراً لما تتصف به هذه الحشرة من سوء السمعة والقدرة على التسبب في كوارث زراعية ومعيشية كبرى. البروفسور ولسون رزق يسلط الضوء على ما بات العلم يعرفه عن الجراد، كما يتطرق إلى مايمكن أن يحمله المستقبل على هذا الصعيد.



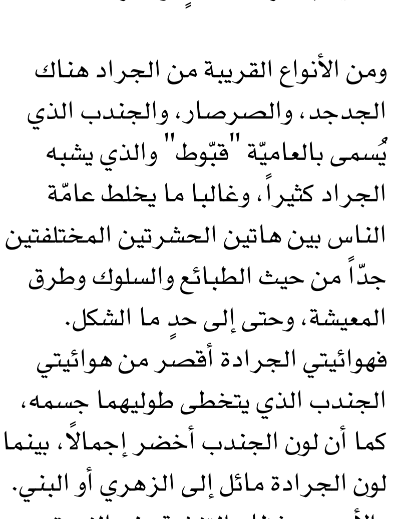
الجراد يأكل الأخضر..فقط!

Getty Images

يرقى الجراد إلى أزمنة تعود حسب تقدير العلماء إلى العصر الديفوني (dévonien)، في الطور الجيولوجي الأول، أي منذ ما يتراوح ما بين 350 و 400 مليون سنة قبل عصرنا. وقد تطور شكله بمرور الزمان حتى بلغ الشكل المعروف حالياً. ويعتقد العلماء أنه منذ القدم كانت هذه الحشرة مزوّدة بقوائم خلفيّة قوية تمكنها من القفز، إلاّ أنه لم يُعثر على متحجّراتٍ منها قبل عصر "السينوزوييك" التّابع للطور الجيولوجي الثالث أي منذ حوالي 65 مليون سنة. أمّا بالنسبة للأزمنة التاريخية، فقد عاصر الجراد معظمها، إذا لم نقل كلها حتى وقتنا هذا. وقد ورد ذكره في كثير من المخطوطات والكتابات القديمة وحتى في الكتب الدّينية، وفي كل مرّة كان ذكره مرادفاً لمصيبة ألمّت بالبشرية.

أنواع الجراد

تعدّدت أنواع الجراد منذ ظهورها على سطح الأرض حتى بلغت في يومنا هذا حوالي خمسة عشر ألف نوع، منها ما يعيش منفرداً متوحداً، ومنها الجراد الرحّال الذي يعيش ضمن أسرابٍ تضم ملياراتٍ من الأفراد، وقد يبلغ طول السرب الواحد نحو 350 كيلومتراً. تتميز حشرة الجراد بجسمها المستقيم، وبرأسها المثبت في جسمها على زاوية قائمة، وخاصة بقائمتيها الخلفيتين المثنيتين على شكل 8، واللتين بفعل دفعهما القوي تمكنان الجرادة من القفز حتى علو 70 سنتيمتراً تقريباً وإذا قارنّا قوة دفع الأرجل عند هذه الحشرة بتلك التي هي عند الإنسان لوجدنا الأولى تفوق نسبياً الثانية بعشرة أضعافٍ وأكثر.



ومن الأنواع القريبة من الجراد هناك الجدجد، والصرصار، والجندب الذي يُسمى بالعاميّة "قبّوط" والذي يشبه الجراد كثيراً، وغالبا ما يخلط عامّة الناس بين هاتين الحشرتين المختلفتين جدّاً من حيث الطبائع والسلوك وطرق المعيشة، وحتى إلى حدٍ ما الشكل. فهوائيتي الجرادة أقصر من هوائيتي الجندب الذي يتخطى طوليهما جسمه، كما أن لون الجندب أخضر إجمالاً، بينما لون الجرادة مائل إلى الزهري أو البني. والأهم هو نظام التغذية عند الفريقين، ففي حين أن الجراد هو من آكلات النباتات، فإن الجندب من آكلات الحشرات، وهذا ما يضعه في خانة الحشرات المفيدة، بينما الجراد من الحشرات المضرّة جداً زراعياً.



تصرفه بين الفردي والجماعي

تجدر الإشارة أن للجراد نمطين في الحياة: النمط الفردي، حيث يكون عدده أقل من 500 جرادة في الهكتار الواحد، عندها لا يشكل الجراد أي خطر على المزروعات بل غالباً لا يُلحظ وجوده. والنمط الجماعي حيث يتخطى العدد مما ذُكرَ سابقاً بكثير. وعندها يكون الخطر داهماً. والغريب أن التصرّف الجماعي للجراد مختلف تماماً عن تصرّفه الفردي. فبين الجماعة يكون تصرف الجراد جسوراً وشهيّته للأكل عارمة، أما في الحياة المنفردة فيكون تصرفه خجولاً وشهيّته للأكل محدودة. حتى لونه فإنه يتغيَّر من بنّي داكن في الوضع الفردي،ليصبح زهرياً فاتحاً في وضعه الجماعي. أما سبب هذا التغيّر وكيفيّة حدوثه، فيعزوه العلماء إلى الظروف المناخيّة وتوافر المأكل.

فالظروف التي تجعل الجراد ينتقل من وضعه الفردي إلى الجماعي هي بالدرجة الأولى ظروفٌ مناخية ومعيشية. وهو يفضِّل المناخ الرطب على الجاف، والحار على البارد، وطبعاً وفرة المأكل. وإذا اجتمعت هذه كلها في مكانٍ معيّن، فسرعان ما نشاهد الجراد يتكاثر فيه بسرعةٍ مدهشة كأنه نبت من الأرض نبتاً. والواقع أن الجراد كان متوطِّناً في المكان نفسه من قبل، ولكن وجوده كان بحالته الفردية بحيث لم ينتبه له أحد. فلمّا تغيرت الظروف وصارت ملائمةً أكثر، تسارع نموّه وتضاعفت خصوبته، فظهر بهذه الطريقة الفجائية.

وللجراد قدرةٌ عجيبة على التّجمع والطيران مسافاتٍ شاسعة سعياً وراء الأماكن الخصبة، وقد يقطع في سعيه هذا آلاف الكيلومترات، فيجتاز الصحارى والجبال الشاهقة وحتى المحيطات ليبلغ مأربه، وعندما يجده ينقض عليه انقضاضاً، فيبيده عن بكرة أبيه بوقت قياسي، ولمّا يفرغ منه ينتقل إلى غيره بالطريقة نفسها. وهكذا تتحول مروجٌ خضراء مهما كانت شاسعة إلى صحارى قاحلة بلمح البصر.

أسراب الجراد

يصف شهود العيان أن أسراب الجراد تحجب أشعة الشمس. وقد ورد هذا التعبير في عددٍ من التقارير وحتى في كتب التاريخ. فالعلاّمة الدكتور فيليب حتّي يقول في كتابه " تاريخ لبنان" صفحة 591 حيث يصف الوضع المأساوي في لبنان خلال الحرب العالمية الأولى: "وكانت أشد المصائب أرتال الجراد التي غزت البلاد في نيسان سنة 1915م، ظلَّ الجراد يحجب نور الشمس أياماً عديدة فلم يبقَ من الأخضر شيء"، يتهيأ لنا أن لا بد لهذا القول أن يكون مبالغاً فيه فكيف يمكن أن يكون ذلك، وكيف يمكن أن يحجب الجراد الشّمس أياماً ؟

الجواب يأتينا من خلال عمليّة حسابية بسيطة. استناداً إلى المعلومات حول أوصاف الجراد التي أوردناها في إطار مستقل: لنأخذ جرادة واحدة وقد وضعت مئة بيضة. فبعد عشرة أيام، وفي حال اعتبرنا الظروف ملائمة، يفقس هذا البيض ويعطي مئة يراعة. بعد عشرين يوماً تصبح اليراعة فرداً بالغاً قادراً على الإنجاب. وإذا اعتبرنا أيضاً أن نصف هذه المئة هنَّ إناث قادرات على وضع البيض فخلال كل شهر يتضاعف عدد الأفراد خمسين مرّة مما يجعل عدد التضاعف بعد ثلاثة أشهر: 50×50×50 = 125,000 فرداً. وإذا اعتبرنا أنه كان يوجد أصلاً 500 جرادة في الهكتار الواحد، واعتبرنا أن المساحة الإجمالية التي سينطلق منها الجراد هذه المرة هي 15 كيلومتراً مربعاً، فسيبلغ عدد الجراد في السرب الواحد: 10×10×500×125,000 أي 62.5 مليار حشرة. هذا من توالد الجيل الثالث للجراد فقط، دون حسبان الجيلين الأول والثاني. ولما كان متوسط وزن الجرادة 2.85 غرام يصبح مجموع وزن السرب 178,125 طناً. ومن البديهي أن كتلةً كهذه إذا طارت في الجو، فإنها سوف تحجب ضوء الشمس بشكل ملحوظ. واللافت أيضاً في هذا الحساب، وإن كان تقريبياً هي كمية المواد التي يلتهمها هذا السرب يومياً والتي تبلغ حوالي تسعين ألف طن! هنا نتبيّن فعلاً مدى الدمار الذي تُلحقه هذه الحشرة بالمزروعات عند غزوها لها.

يمكن لسرب واحد نطاقه 10 كلم^2 أن يضم 65 بليون حشرة ليحجب ضوء الشمس فعلاً..

نظام الجراد الغذائي

بالرغم من جشع هذه الدويبة وشرهها، بيد أنها انتقائية في اختيار مأكلها. وتستعمل في تحقيق ذلك ليس حاسّة شمّها كما هو متوقّع، إنما حاسّة نظرها المتمثلة بعينين كبيرتين جامدتين مثبتتين على جانبي رأسها. إن لهاتين العينين بالرغم من ثباتهما، حقلاً بصرياً واسعاً ومقدرة كبيرة على تمييز أشكال الأشياء وألوانها وحركاتها. فالأشكال العمودية والخضراء تجذبها إذا كانت ثابتة، ولكنها تتجنبها إذا كانت متحرِّكة. ولهذا السّبب يتجنّب الناس ارتداء الملابس الخضراء عند خروجهم من بيوتهم في أزمنة انتشار الجراد. وإذا اضطرّوا إلى ذلك فإنهم يعمدون إلى التحرّك بسرعة والركض لمنع الجراد من أن يحط عليهم، مع أنه ليس هناك أدنى خطر من ذلك. فالجراد سرعان ما يلاحظ أن الشيء الذي حط عليه غير قابل للالتهام فيعف عنه وينتقل إلى غيره.

من هنا نستنتج أن الجراد لا يأكل أي شيء ولو كان لونه أخضر فقد دلّت الملاحظة على أن الجراد بعدما يحط على شيء قاده إليه بصره، يبدأ بتحسس هذا الشيء بواسطة مجسّاته. وعندما يتأكد من صلاحيته للأكل يباشر التهامه بواسطة تأشيراته التي تزوِّد فمه. لذلك، هناك نباتاتٌ تحظى أكثر من غيرها باهتمام الجراد، فيبدأ بالأوراق ثم الثمار وأخيراً الأغصان، ونادراً الجذوع لا سيّما إن لم تكن خضراء. أما إذا كانت النبتة ليست على ذوقه، فإنه يتجاهلها وينتقل إلى غيرها مثل شجرة "الأزاديراشتا انديكا" التي تحوي مواداً قلوية. أما الحبوب، فالجراد الرّحال يتجنبها إجمالاً، ولكن هذا ليس شأن بقية أنواع الجراد كالجراد المهاجر مثلاً الذي كما يُقال يأكل الأخضر واليابس.

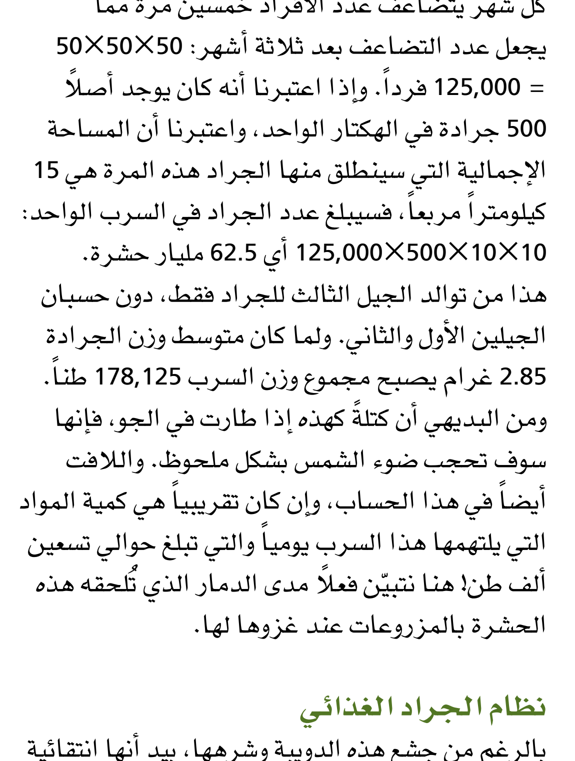
التيارات الهوائية الساخنة تحمله حيثما اتجهت وما على الجراد إلا اختيار مكان الهبوط.. الأخضر

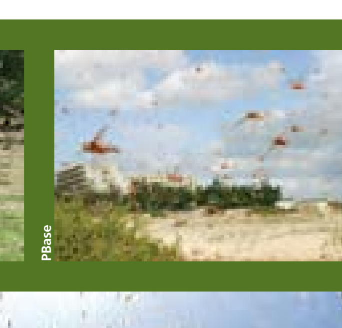
والكميات التي يلتهمها يومياً فإنها كما أشرنا سابقاً، تبلغ مقدار نصف وزنه تقريباً، مما يجعل الجراد بجميع أصنافه أكبر عامل مدمر للحياة النباتية وُجِد على سطح الأرض. إنه أشد فتكاً من المبيدات الزراعية على أنواعها ومن الأسلحة المدمِّرة وحتى من نيران الحرائق الكبيرة.

الجراد وطُرق انتقاله

قلنا سابقاً إن للجراد مقدرة فائقة على الطيران تمكّنه من اجتياز المسافات الشّاسعة، إنما ذلك لا يتم بطريقة عشوائية. فالجراد عند بلوغه، يبدأ أولاً بالبحث عن قوته فإن لم يجده في موطنه، يتأهّب للانتقال بصورة جماعيّة نحو مناطق أخرى. وهو يعتمد في ذلك على حركة الرياح والتيارات الهوائية الصاعدة أكثر من اعتماده على قدرته الفردية على الطيران. فيجمع بعضه على شكل أسراب جاثمة على الأرض ويترقب الظرف الملائم. وعندما تهب هذه الرياح يثب نحوها ويمتطيها تماماً كما الفارس يمتطي جواده فتعبر به هذه الرياح المسافات الشاسعة حتى يجد المكان المنشود فيحط فيه. وهنا نلاحظ أن الجراد لا يختار فعلاً المكان الذي سوف يحط فيه، إنما الرّياح هي التي توجّهه، فدوره يقتصر فقط على الهبوط خلال مساره المفروض في المكان الذي يراه مناسباً له. إذاً، لا نستطيع أن نقول إن الجراد يختار الأمكنة التي سيزورها. وبذلك فالجراد بالمطلق لا يهاجم الأماكن نفسها كل عام إلا إذا تكررت الظروف المناخية نفسها وحركة الرياح ومعدّلات الحرارة والأمطار. فإذا تمّ كل ذلك، فمن المحتمل جداً أن يعود الجراد في الموسم المقبل. إلا أنه نظراً لكثرة الظروف الواجب توافرها في نفس الوقت فإن ذلك نادراً ما يحصل.

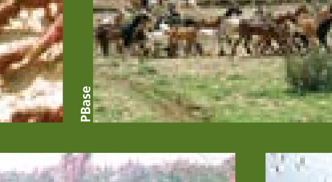
أشرنا سابقاً إلى أن الجراد يتأثّر كثيراً بمجريات الطقس فظروف الإباضة تتطلب شروطاً معينة، وظروف المعيشة شروطاً أخرى، وكل ذلك مرهون بطبيعة المناطق وبتقلبات الطقس. لنأخذ مثلاً الجراد الرحال. لتتم الإباضة بشكلٍ صحيح يجب أن تكون المنطقة صحراوية، أرضها رملية غير متماسكة، وعلى درجة معيّنة من الرطوبة والحرارة لتتمكن الأنثى من حفر ثُقبها الذي ستضع فيه بيضها، ولكي تكون الظروف ملائمة لنمو الأجنّة. بينما الظروف الحياتية في طور البلوغ تتمحور حول كثافة الغطاء الأخضر بالإضافة إلى الدفء والرطوبة. لذلك نرى مواطن انبثاق الجراد الرحال في مناطق السودان ومالي وموريتانيا وجنوبي الشرق الأوسط. وغزوه يستهدف مناطق شمال إفريقيا وشمالي الشرق الأوسط حتى حدود تركيا وقبرص واليونان.

















مكافحة الجراد

إنَّ طرق مكافحة الجراد تبدّلت كثيراً حسب الأزمنة وتقدّم العلم والتكنولوجيا. ففي السابق لم يعرف الناس كثيراً عن مزايا الجراد وخصائصه، وكانت وسائل الدفاع بدائية ومحدودة جداً. لذلك كانت تقتصر وسائل المكافحة على استعمال النار، يوجهونها نحو الأسراب، أو محاولة عرقلة تقدم الأسراب خاصةً الزّاحفة منها نحو المناطق الزراعية بحفر خنادق تملأ بالماء، أو بإحاطة جذوع الأشجار بصحافٍ ملساء ينزلق عليها الجراد أو غير ذلك من الوسائل عديمة الجدوى. أما الآن فإن هذه الوسائل تقدّمت وتطوّرت وأصبحت فاعليتها أكبر بكثير وهي ترتكز على أربعة محاور:

1 - مكافحة الأسراب مباشرة بواسطة رشّها بمبيداتٍ خاصّة تُختار من بين تلك التي تسبب أقل أذى ممكن للبيئة والغطاء الحيواني والنباتي. إن عمليات الرش هذه يمكن أن تتم إما فردياً وعلى نطاق ضيق بواسطة جهازٍ بشري مجهّز بمعداتٍ حديثة ويرتدي بذلاتٍ خاصّة واقية، أو على نطاقٍ واسع بواسطة طائرات مصممة خصّيصاً لهذه الغاية. وقد أعطت هذه الوسيلة نتائج باهرة إذ قلّصت بشكلٍ كبير وملموس أعداد الجراد وأسرابها. إلا أن لكل طريقةٍ مساوئها، ومساوئ هذه هي الفتك رغم كل الاحتياطات بالحشرات المفيدة وأهمها النحل. أما السيئة الثانية فهي تأقلم الجراد مع المبيد المستعمل، بحيث لا يعود بعد فترةٍ يؤثر فيه. والحل هنا يكمن في تغيير نوع المبيد.

2 - استخدام الخواتل (الكائنات التي تعيش على القنص) الطبيعية للجراد، منها: الطيور كالبلشون المعروف بمالك الحزين، واللقلق والطيور الجوارح على أنواعها، ومنها الحشرات كالزنابير والعناكب وبعض أنواع الذباب التي تضع بيضها داخل جوف الدويبة فتنمو اليرقة فيه مسببةً موت المضيف، وأيضاً بعض الزواحف لها شأن في القضاء على الجراد كالعظايا وغيرها من فصيلة السقّايات. وأخيراً يستخدم البعض لمكافحة الجراد أنواعاً معينة من الجراثيم أو الفطريات التي تغزو الجرادة فتميتها. إن هذه الوسائل وإن كانت فعّالة على المدى البعيد إلا أنها تبقى غير كافية للقضاء على هجوم مكثف للجراد الذي يبقى دواؤه الوحيد المكافحة الكيميائية بواسطة المبيدات. إنما حسنتها الكبرى أنها غير مؤذية للطبيعة وللكائنات التي تضمها.

3 - القضاء على بيض الجراد المدفون في التراب قبل فقسه وذلك بواسطة الفلاحة وقلب التراب.

4 - وضع برنامج دولي لمكافحة الجراد تقوم بموجبه مؤسسات دولية منبثقة عن الأمم المتحدة أو غيرها، وتكون مهمتها وضع خرائط تحدد مواطن الجراد ومسارات أسرابه واستنباط أفضل استراتيجية للقضاء على هذه الآفة على ضوء المعلومات المستقاة من الواقع. وهذا البرنامج يتطلّب مشاركة كل الدول فيه، لا سيّما تلك التي يقع الجراد ضمن نطاق أراضيها. لأن مشكلة الجراد لا تقتصر على دولة واحدة، فهي لا تعرف حدوداً حتى تلك التي رسمتها الطبيعة.

الحرب بين الإنسان والجراد مستمرة، والمبيدات سلاحها الأكبر ولكن المتغيرات البيئية في العالم تلعب لصالح الجراد

مستقبل الجراد

والآن ماذا يخبئ لنا الجراد في المستقبل من مفاجآت ؟ هل سيتقلص أو يزداد حجمه وما احتمال حصول هجمة مخيفة غير متوقعة ؟

إن الجواب عن هذه الأسئلة يكمن في تطور عوامل ثلاثة ستظهر من جرّاء تفاعلها وتضاربها النتيجة الحاسمة التي ستحدد الوضع النهائي لمشكلة الجراد على الأرض.

أولاً: إن وسائل المكافحة ستتطوّر وتتفاعل مع الزمن خصوصاً إذا تضافرت جهود سائر الدول في هذا المجال مما سيؤول إلى السيطرة على آفة الجراد.

ثانياً: سيكون رد الجراد حاسماً أيضاً؛ لما لهذه الحشرة من قدرة على التكيف لمجابهة مختلف الوسائل التي تهدف إلى استئصاله.

ثالثاً: للطبيعة هنا دور مهم وهي الآن تعاني مخاضاً صعباً نتيجة التلوّث وبث المواد السامّة الذي يفرضها عليها الإنسان غير المسؤول عن خراب بيئته. فبينما يتنعّم هو بمواردها الغنيّة، فإنها تُعاني منه الأمرّين بسبب نفاياته السامّة التي تجعلها تتجه بصورة حتمية وشبه نهائية نحو التصحّر والارتفاع الحراري، أي نمو ظروف أكثر ملاءمة لتكاثر الجراد.

فلمن تكون الغلبة؟ وهل سيستطيع الإنسان بحكمته استدراك الأمور أم سنسير جميعنا نحو الهاوية ؟!



أوصاف الجراد

جمع العلماء عن الجراد الرحّال الذي هو من أخطر الأنواع، ما يكفي من المعلومات لتمييزه عن غيره، وأيضاً لتسهيل مكافحته والتنبه سلفاً إلى احتمالات انتشاره. وفي ما يأتي بعض مواصفات الجراد.

طوله: حوالي 7 سنتيمترات.
وزنه: 2.2 غرام للذكر و 3.5 للأنثى.
وزنه عند الانفقاس: 0.025 غرام.
لونه: بني أو زهري.
مدة حياته: شهرين بعد البلوغ.
عدد البيوض التي تضعها الأنثى: حوالي المئة. تضعها الأنثى في ثقبٍ صغير تحفره في الأرض.
المدة ما بين الوضع والفقس: تختلف حسب الظروف المناخيّة وتتراوح ما بين 10 أيام إذا كانت الظروف ملائمة، وعدة أشهر إن لم تكن كذلك.
مدة النضوج: من 15 إلى 20 يوماً.

زمن التوالد: على مدار السنة وحسب ملائمة الظروف.
الوضع المعيشي: فردي أو جماعي.
الحمية الغذائية: حمية محض نباتية.
كمية الاستهلاك اليومي: نصف وزنه تقريباً.
الموطن: السّفناء والأماكن القاحلة الصحراوية.
أماكن الإباضة: المناطق الصحراوية الحارّة والرّطبة.

1. Jeune ailé (durcissement des ailes)
2. Ailé immature
3. Ailé mature ou adulte (en accouplement)
4. Ponte
5. Oothèque (avec œufs)

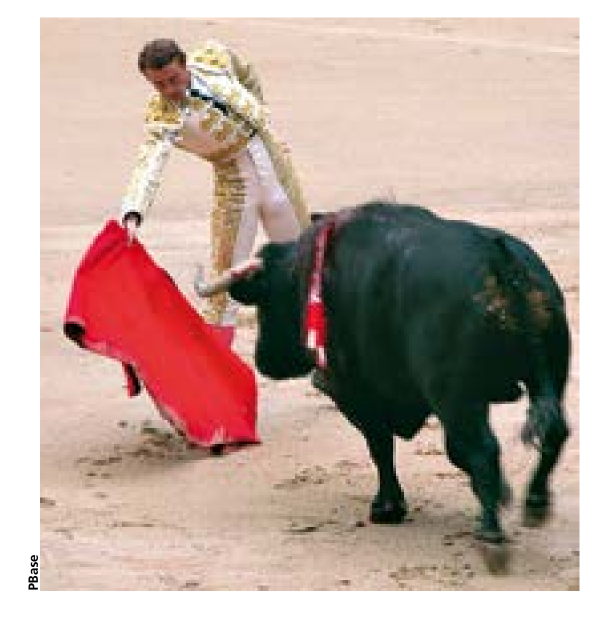
1 الأحمر لإثارة الناس.. وليس الثور

يعتقد الكثيرون أن اللون الأحمر يثير الثور، ولذا يلوح مصارع الثيران بقطعة قماش حمراء فيهاجمها الحيوان الغاضب.

والواقع أن الثور لا يبالي باللون الأحمر؛ لأنه يراه رمادياً. فتمييز الألوان يعود إلى شبكية العين التي تتألف من قضبان دقيقة تلتقط الضوء، وأجزاء قمعية الشكل تميز الألوان. وإن كانت عين الثور مزودة بما يكفي من القضبان الدقيقة، فإن عدد الأجزاء القمعية قليل نسبياً؛ ولذا فإنه لا يستطيع أن يرى من الموجات الضوئية إلا تلك التي تتراوح أطوالها ما بين 450 و 600 نانومتر، في حين يتسع هذا المقل أمام عين الإنسان التي ترى كل ألوان قوس القزح ما بين 450 و 723 نانومتر. أي إن الثور يرى من الألوان الأصفر والأخضر والأزرق والبنفسجي فقط، وكل ما هو عدا ذلك يبدو له رمادياً.

فما الذي يثير الثور؟ إن وجود عيني الثور على جهتين مختلفتين من رأسه يوفر له مجال رؤية أوسع بكثير من مجال عين الإنسان (330 درجة مقابل 170 درجة). مما يسمح له بمراقبة كل ما يجري حوله. ولذا فإن الثور الذي يبدأ توتره بمجرد دخوله إلى حلبة المصارعة نتيجة الحركة الكبيرة حواليه، ويشعر بازدياد المخاطر عندما يرى قطعة القماش تتراقص أمامه، فيتحرك في اتجاهها لإبعادها عن منطقته الذاتية.

فلماذا يستهلك كل مصارعي الثيران اللون الأحمر إذن؟ والجواب: لأن اللون الأحمر يجذب أنظار الناس، ويثيرهم.


PBase

2 حتى البطاطا اللذيذة..!

تنتمي البطاطا إلى فصيلة الباذنجانيات التي تضم أنواعاً عديدة منها الفليفلة، والتبغ، وعنب الثعلب، وتحتوي جميعها على مادة سامة اسمها سولانين بنسب متفاوتة.

وفي نبتة البطاطا تتركز هذه المادة في الأوراق التي لا تؤكل على الإطلاق غير أنها موجودة بنسبة ضئيلة جداً في الجذور والثمار. وفي بعض الأحيان ترتفع نسبتها في الثمار. ويظهر ذلك من خلال لون حبات البطاطا الذي يصبح مائلاً إلى الأخضر والأزرق.

المحترف السعودي

البطاطا الزرقاء لا تؤكل؛ لأن طعمها يميل إلى المرارة ويتسبب "بحرشفة" في البلعوم بسبب ارتفاع نسبة ما تحويه من مادة السولانين السامة. وتقول دراسات منظمة الصحة العالمية إن نسبة تتراوح ما بين عشرة ومئة ملغ في الكيلو الواحد من البطاطا تبقى آمنة. أما ارتفاع الكمية إلى 3 ملغ من السولانين لكل كيلو غراماً من وزن الإنسان فقد يؤدي إلى الموت. أي أن المخاطر تبدأ على صحة الإنسان الذي يزن 70 كلغ إذا أكل كيلو غرامين من البطاطا.

ويتركز السولانين في قشرة البطاطا وما تحتها مباشرة، وتقشير البطاطا يزيل ما بين 30 و 90 بالمئة من هذه المادة. كما أن البطاطا يجب أن تحفظ في مكان بارد وجاف ومظلم، لأن تعرضها للضوء كما حفظها في أكياس بلاستيكية يجعل مادة السولانين تتكثف، فيظهر على قشرتها هذا اللون الأزرق المؤشر إلى سُمّيتها.

3 طائرات المستقبل.. ترفرف بأجنحتها

وضع باحثون من جامعة بنسلفانيا في الولايات المتحدة تصوراً لجناح طائرة؛ قابل لأن يغير طبيعته خلال الطيران. والهدف هو تحسين أداء الأجنحة وفقاً لكل مرحلة من مراحل الطيران، وتخفيض استهلاك الطائرات للوقود.

ويرتكز تصميم الجناح الجديد على تشكيله من هيكل من القضبان المعدنية المتحركة انكماشاً وتمدداً، والمغطاة بصفائح معدنية يدخل أحد طرفي الواحدة تحت الأخرى، تماماً كـ (البرش) الذي يغطي جلد السمكة.

والابتكار الجديد الذي شارك في تمويله كل من وكالة الفضاء الأمريكية، والوكالة الأمريكية للبحث الدفاعي، بات متوافراً في شكلين: نموذج مصغر وآخر إلكتروني على شاشة الكومبيوتر.

4 العطشان.. وليتر الماء

سأل أحد القرّاء مجلة "New Scientist" مؤخراً: "إذا تهت في الصحراء وفي حوزتي ليتر واحد من الماء، فهل أشربه دفعة واحدة كما قال لي والدي الذي تعود معلوماته إلى خدمته العسكرية؟ أم أشربه على دفعات خلال أطول وقت ممكن.

وحصل القارئ على رأيين علميين يؤكدان صحة نصيحة الوالد. إذ على المرء أن يشرب كوباً كاملاً على الأقل كي يصل الماء إلى المعدة ويمتصه الجسم.

أما رشف الماء ببطء فلا يكفي إلا لترطيب الفم؛ إذ يتبخر بسرعة. والذي يقتصد في شرب الماء في هذه الحالة يبدأ بالانهيار فعلاً ولكن ببطء. وقد وجدت حالات كثيرة مات فيها هائمون في الصحارى، وكان لا يزال بحوزتهم بعض المياه.

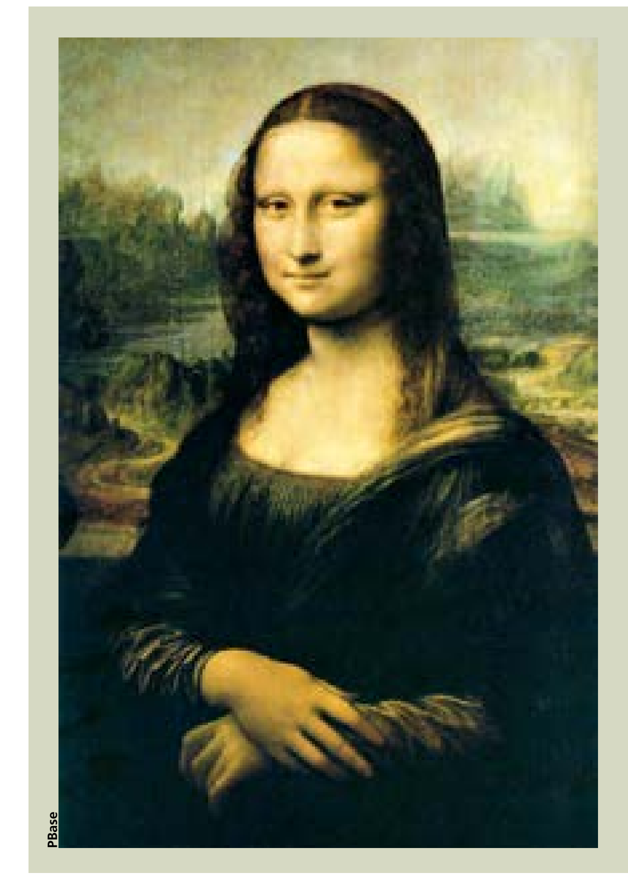
5 الفم.. وليس العينان

على الشعراء والفنانين الإحاطة بذلك: الفم هو المدخل إلى مشاعر الإنسان وأعماقه النفسية، وليست العينان.

هذه هي حصيلة اختبار مهم على اللوحة الشهيرة الموناليزا ليوناردو دافنشي قام بها عالما الدماغ والعيون كريستوفر تايلر وليونيدكونستريش في مؤسسة أبحاث العيون في سان فرانسيسكو.

فقد قام العالمان بتغيير شكل وجه الموناليزا حوالي مئة مرة، لإيضاح تعابير الحزن والفرح من خلال شكل الفم فقط، فكان الوجه يبدو مبتسماً حيناً أو عابساً حيناً آخر. ولكن الاختبار فشل كلياً عند تطبيقه على العيون. وكان الاستنتاج أن شكل الفم هو ما يعكس مزاج الإنسان وحالته النفسية، وليست العينان.

وقد علّق على ذلك عالم النفس المختص بالنظر ريتشارد موراي قائلاً: إنها نتائج مفاجئة ومهمة. ومن الممكن تطبيق التقنية نفسها لنعرف بعض أسباب الخلل في النظر وعلاقته بالدماغ.


PBase

الملح

تقتصر صورة الملح في أذهان الكثيرين على أنه ذلك المتمم الغذائي الذي نكتفي منه برشة صغيرة فوق الطعام. ولكن كتاباً صدر مؤخراً تناول التاريخ المدهش لهذه المادة التي دخلت النسيج الثقافي والاهتمام اليومي لكل شعوب العالم منذ قديم الزمان. الدكتور **أحمد مغربي** يتناول هنا كتاب "تاريخ الملح في العالم" لمؤلفه مارك كير لانسكي، في حين يتناول الزميل **أمين نجيب** آخر ما توصل إليه العلم في دراسته لفوائد الملح ومضاره على صحة الإنسان.

1 تاريخ الملح

كيف يمكن وصف العلاقة بين الإنسان والملح؟ الجواب ليس سهلاً

أحمد مغربي

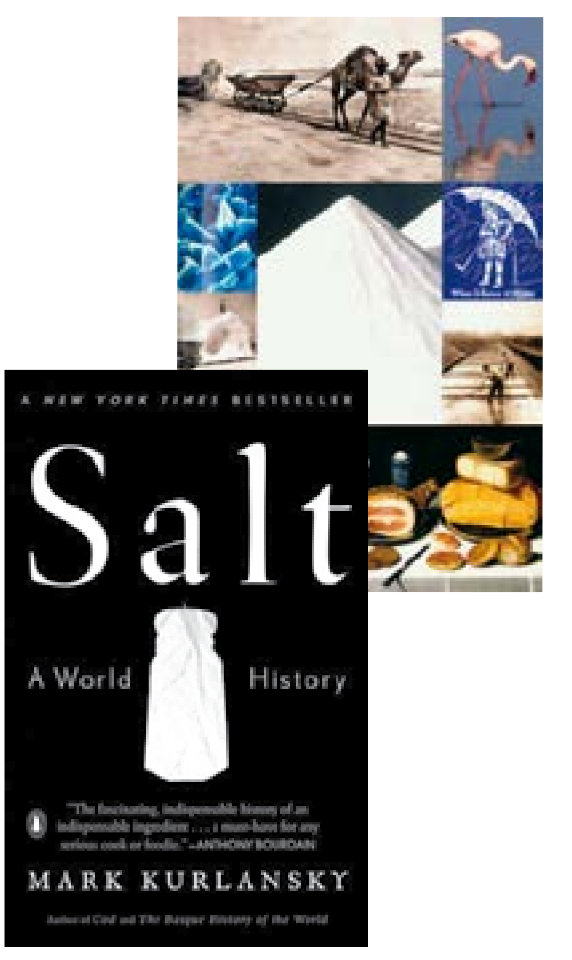
فلو بدأنا بالأشياء الصغيرة لوجدنا أن الناس في بلداننا العربية يعتبرون الملح رابط صداقة، فيقولون "بيننا عيش وملح" أو "خبز وملح"، والمصريون يُقَدِّسونَ "العيش والملح"، وفي بلاد الشام يقال "دعيس ملح" (أي من يدوس على الملح) لوصف شخص ناكر للجميل ولا يقدر قيمة الأشياء الجيدة، ويدوس على تلك البلورات البيض. وفي اللغة العربية يعني أمراً آخر، فهو إشارة إلى الجمال بالاستعارة، فيقال: وجه مليح، وتوصف الجميلة بأنها مليحة، ويقال إن فلاناً مالح فلاناً، أي أنه عاشره وصادقه، فلا يصبه منه سوءاً.

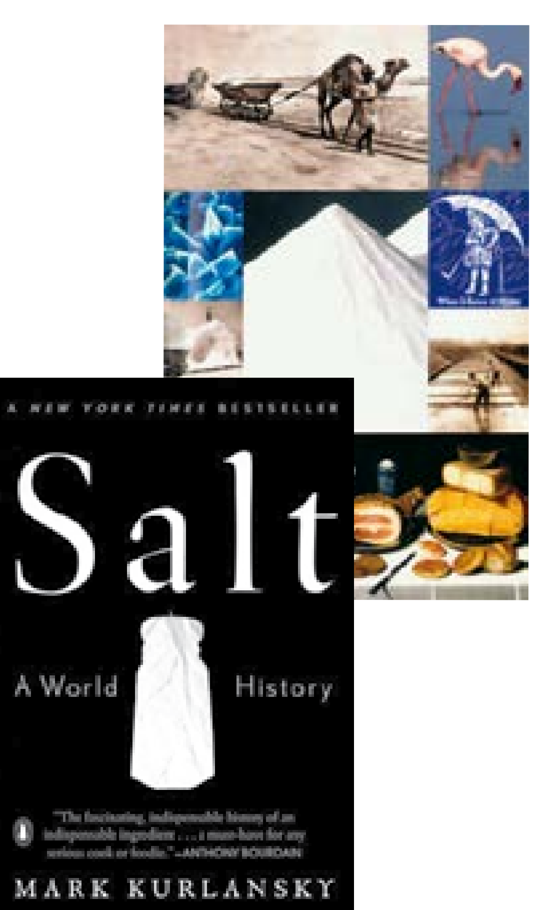
تصلح هذه الصور مدخلاً لكتاب الأمريكي مارك كيرلانسكي "تاريخ الملح في العالم" الصادر عن دار "بنغوين بوتنام". والحال، أن كيرلانسكي صحافي نيويوركي، متخصص في الكتابة عن الأطعمة. ولا يكتفي من الأكل بالشبع والتذوق، بل يجعل الفم مدخلاً لفهم سوسيولوجي للطعام ومكوناته. اعتاد كيرلانسكي أن يتتبع تاريخ أطعمة البشر وعلاقتها بمجتمعاتهم وتاريخهم ومفاهيمهم. وتنتمي كتاباته إلى ثقافة الحياة اليومية وتحليلها. وتشيع هذه الكتابة في الغرب عموماً، وخصوصاً أوروبا وأمريكا.

أما كيرلانسكي، فقد سبق له أن ألّف كتاباً عنوانه "القُد: السمكة التي غيَّرت العالم". نال عنه جائزة جايمس بيرد للتفوق في الكتابة عن الأطعمة. يتناول ذلك الكتاب، الذي صدر في العام 1999م، تاريخ سمكة القُد، التي تتواجد في شمال الأطلسي، والتي يرى أنها السبب الذي جذب بحّارة أوروبا للصيد في الأطلسي، وما ترتب على ذلك من علاقات بين الدول الأوروبية أولاً، ثم بينها وبين العالم الجديد، أي الأمريكتين.

تاريخ في صورة

يلفت في الكتاب الذي يقع في 484 صفحة تصميم غلافه الخارجي الذي صّمم على شكل صفحة سوداء كتب عليها كلمة Salt، أي ملح، باللون الأبيض المُمَيَّز لهذه المادة. وفي منتصف الغلاف فتحة على شكل قنينة ملح. وبعد الغلاف مباشرة، هناك صفحة مؤلفة من مجموعة صُوَر (كولاج)، تُلَخِّص محاور الكتاب، وتوجز وجهة نظر صاحبه في تاريخ الملح. يتوسط ذلك الكولاج، صورة كبيرة لجبل ملح ضخم، هو واحد من مجموعة جبال الملح في هضبة الألب، وهي من المصادر الأولى التي عرفها البشر للملح. والحال أن تلك الجبال أطلقت تجارة امتدت بين أوروبا وآسيا، في عهود قديمة جداً. يجاور الجبل صورة للملاّحات البحرية، التي حَوّلت أنظار البشر من جبال الملح إلى البحر، باعتباره مصدراً لا ينضب للمادة البيضاء. ومع بروز دور السواحل في صناعة الملح، تغيرت محاور التجارة بهذه المادة، التي لا يستطيع البشر، ولا الحيوانات، العيش من دونها. أدى هذا الأمر إلى تغيير في اهتمامات الدول وتحالفاتها وسياساتها، وكذلك طرق سريان الثروات في الطرق الاستراتيجية التي تربط بقاع الأرض وما إلى ذلك. فوق رسم الجبل، ثمة صورة لقبائل الطوارق، التي يدخل البحث عن الملح وشرائه من مدن سواحل المغرب العربي، في القلب من عيشها اليومي، وكذلك من تاريخها وروابطها مع محيطها. يلفت في الصورة إلى أنها التُقطت بعد دخول الاحتلال الغربي للمغرب العربي. تظهر فيها جمال الطوارق وهي تجر عربات معدنية فوق السكك الحديدية، التي مدّتها جيوش الغرب للربط بين الساحل والصحراء المديدة.





إنها صورة كثيفة في تعبيرها ورمزيتها. ففي أسفل الصفحة، صورة لمائدة تكتظ بالمآكل التي شكلت تاريخياً مصادر الملح للإنسان، مثل لحوم الدواجن، وأنواع الخبز والأسماك المملحة. وتظهر على المائدة عينها زجاجات الملح، التي تعتبر الشكل الأشد نقاءً والأقرب إلى الصورة الحديثة لتوافر الملح بسهولة، بعد تاريخ طويل من المعاناة الكبيرة في الحصول على تلك المادة. فيكاد هذا الكولاج أن يحكي، بلغة الصورة، القصة التي يرويها الكتاب عن الملح في تاريخ العالم.

الصخرة التي نأكلها في الأساطير

يستهل الكتاب بوصف الملح بأنه: "الصخرة الوحيدة التي نأكلها... لقد أسهم بقسط مدهش في صناعة تاريخ الجنس البشري".

ويعرض لدراسة نشرت في العام 1912م، للاختصاصي النفساني الإنجليزي آرنست جونز، وهو من أصدقاء سيغموند فرويد، عن الهوس الإنساني بالملح. تبدأ تلك الدراسة بالتذكير بأن الطبيب العربي الشهير ابن سينا، دأب على إعطاء حجر ملح لضيوفه، الذين اعتادوا جميعاً على تذوقها! ويورد جونز "أن البشر اعتادوا إعطاء الملح قيمة كبرى تفوق مزاياه الطبيعية... فقد أطلق هوميروس على الملح اسم "المادة المقدسة"... وبإمكاننا أن نلاحظ بسهولة الأهمية المعطاة للملح في الطقوس الوثنية وحتى في أعمال السحر... مما يدل على وجود افتتان إنساني عام حيال الملح".

ومن أساطير الملح، يمكن ذكر الاعتقاد الذي عَمّ أوروبا، في عصر النهضة والرحلات البحرية، بأن وجود الفئران في سفن الملح إنما يعود إلى تكاثرها في الملح. وفي اللغة الرومانية، يسمون الرجل العاشق بأنه "مُمَلَّح" Salax.

ويمتلئ تاريخ الشعوب بالممارسات الطقوسية المرتبطة بالملح بدءاً بالهنود الحمر في قبيلة بيما، الذين إذا قام أحدهم بقتل رجل من قبيلة الأباتشي فعليه أن يمتنع هو وزوجته عن تناول الملح لمدة ثلاثة أسابيع، ووصولاً إلى الإنجليز الذين كانوا، بعد احتلالهم للهند، يفرضون القسم على الملح شرطاً لقبول أي هندي في الجيش الإمبراطوري.



المحترف السعودي

تبرز أهمية السواحل في صناعة الملح وتجارته التي دخلت اهتمامات الدول وسياساتها



رويترز

قبائل الطوارق التي تسكن سواحل المغرب العربي، ويبدو استخراجهم للملح الذي يعتبر مصدراً لعيشهم اليومي

وفي العام 1920م، صدر كتيب عن شركة ملح أمريكية في ميشيغن عنوانه "مئة استعمال واستعمال لجوهرة الملح البيضاء". عدَّد الكتيب أوجه استعمال الملح، والتي تتضمن الاحتفاظ باللون البرّاق في الخضار المسلوقة، وصنع الآيس كريم، وإعداد أنواع البسكويت، وإزالة الصدأ، وتنظيف الأثاث الخشبي، وإزالة البقع من الملابس، وصنع أنواع خاصة من الشمع، وحفظ نضارة الأزهار بعد قطافها، وعلاج آلام الحلق والأذن وما إلى ذلك. والحال أن الاستخدامات الحديثة للملح تتضمن 14 ألف استخدام، تشمل صناعة الأدوية، وإزالة الجليد عن الطرقات، وتحضير الأسمدة، وصنع أنواع الحساء، والأطعمة المعلبة، وتجفيف الملابس وغيرها.

الملح الغالي

هل يبدو الملح متوافراً بكثرة، وبأسعار رخيصة؟ يجدر بنا ألّا ننخدع بعيشنا الراهن. فمنذ بدء التاريخ، ووصولاً إلى القرن التاسع عشر، كان الملح هو المادة الأعز، والتي بذل الإنسان جهوداً مريرة للحصول عليها على مر العصور.

لعل أول استخدام تاريخي لافت، وكثيف في رمزيته، هو استعمال الفراعنة القدماء للملح في التحنيط. فقد جاء اصطناع المومياءات في إطار اعتقادهم بضرورة حفظ الجسد بانتظار بعثه في حياة أخرى. وانطلاقاً من هذه المعتقدات الوثنية، فإن قدرة الملح على حفظ الجسم أعطته هالة أسطورية لا يصعب أبداً فهم أبعادها. وبمعنى ما، فإن الفراعنة نظروا إلى الملح باعتباره مساوياً للحياة نفسها. وفي سياق غير منفصل، استعمل الطب الفرعوني الملح في علاج الجروح وشفائها. وكانوا أول من حول أمعاء الحيوانات إلى خيوط جراحية باستخدام الملح.

وأسهمت قدرة الملح في حفظ الأشياء في مكانته. ففي العصور الوسطى، عمد المزارعون الأوروبيون إلى خلط محاصيل القمح بالكثير من الملح، لكي يجنبوه الإصابة بالفطريات السامة.

وحتى طريقة رش الملح، داخلتها أساطير شتّى. ففي أوروبا، ساد اعتقاد في القرن السادس عشر بأن الطريقة المثلى لرش الملح أثناء تناول الطعام، تتمثل في استخدام الإصبعين الأوسطين في اليدين كلتيهما، من قبل الرجل وليس المرأة. فإذا استعمل الرجل إبهامه، فإن أطفاله سيموتون، وفي حال استخدامه البنصر، فإنه يصير فقيراً، واستخدام السبابة يؤدي به إلى ارتكاب الجرائم! يصعب التفكير في أية مادة أخرى نالت أي نصيب موازٍ من الأهمية في فكر الإنسان ومعيشته بأكثر مما فعل الملح.

وثمة أمر تتشارك فيه شعوب العالم. ففي كل مكان استقر فيه البشر، وجعلوا من الزراعة والرعي مصدراً لعيشهم، تبرز الحاجة فوراً إلى إدخال الملح في الطعام. فقبل



ملاّحة السعودية.. ملاّحة فلسطين..!

يبدو أن الملح منح مواقع إنتاجه اسمه.. فهناك قرى التصقت بها مهنة "إنتاج الملح". منها "الملاّحة"، وهي قرية أثرية تقع على وادي البارد إلى الشمال الغربي من بحيرة الحولة. وإلى الشمال الشرقي من مدينة صفد بفلسطين.

تبلغ مساحة "الملاّحة" 2168 دونماً، وفي إحصاء عام 1922م بلغ عدد سكانها نحو 700 نسمة، وفي عام 1945م قرابة 900 نسمة. يقع إلى جوار القرية مغارة عرب زبيد في الغرب من بحيرة الحولة وهي مغارة أثرية. وقد تعرّضت القرية إلى اعتداء عام 1948م، وتشريد سكانها، وعلى أراضيها أقيمت مستعمرة (سد اليعزر) عام 1952م. ويقدّر عدد اللاجئين من هذه القرية في عام 1998م بـ 6340 نسمة.

في الطرف الجنوبي الغربي من محافظة القطيف السعودية، قرية اسمها "الملاّحة"، تحيط بها النخيل من كل الجهات. وقد اكتسبت القرية الريفية اسمها من "الملح" الذي كانت تنتجه في الأزمنة الغابرة، وتصدره إلى المدن والقرى القريبة.

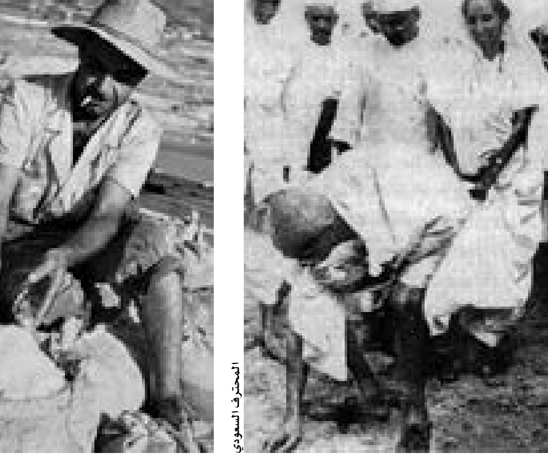
وحتى عام 1975م (1395هـ)؛ كانت في القرية مملحتان لإنتاج الملح، تضافان إلى الحرف الزراعية التي عُرف بها سكان القرية. لكن سنوات التنمية التي شهدتها البلاد لم تستثنِ القرية الريفية، بل استبدلت بيوتها الطينية بفلل الخرسانة المسلحة، وأزِقتها الضيقة بشوارع حديثة. وتغيرت حدود القرية الصغيرة وتداخلت مع حدود قريتين قريبتين؛ هما: الجش وأم الحمام، لتصبح القرى الثلاث شبه مدينة واحدة..!

وامتدّ التغيير إلى كل شيء في نمط الحياة، وصولاً إلى إلغاء "الملح" من وعي الجيل الجديد الذي جاء إلى الحياة وهو يحمل شعور الانتماء إلى قرية ارتبط اسمها بمهنة، ولكنه يراها - الآن - اسماً بلا مسمّى..!



المحترف السعودي

تقديد السمك كما هو موضح برسم على جدارية في قبر بو يم ري، الكاهن الثاني لآمون سنة 1450 قبل الميلاد - متحف متروبوليتان للفن



المحترف السعودي

الزعيم الهندي الراحل غاندي يخالف علناً القانون الإنجليزي الذي منع استخراج الملح والتقاطه



رويترز

الطريقة القديمة لتنقية الملح وتجهيزه في القرى الريفية

ثلاثة عشر ألف سنة، انتهى آخر عصر جليدي، وشرع البشر في الاستقرار في أماكن عديدة. وقبل أحد عشر ألف سنة، ابتدأ تدجين المواشي في العراق، أحد أقدم مهود الحضارة الإنسانية. وسرعان ما ظهرت الأطعمة المكونة من الحبوب ولحوم الحيوانات والخضار، وكلها من مصادر الملح. وبرز مصدر للحم غير الصيد والقنص، أي ذبح الماشية المدجنة. واستخدم الملح في حفظ لحوم تلك الحيوانات، وكذلك في طهيها، مما زاد في قيمته العملية والرمزية في آنٍ معاً.

في العام 1766م، وضع المفكر الاقتصادي الشهير آدم سميث، المُنَظِّر الكبير للرأسمالية، كتابه المرجعي "تاريخ الأمم وثروات الشعوب". في ذلك الكتاب، يتحدث سميث عن الأشياء وقيمتها، فيرى "أن السعر الفعلي لأي شيء، أي ما يعطيه كلفته الفعلية، يتمثل في العناء والمعاناة التي يتكبدها الإنسان في الحصول عليه". ولعل هذا الوصف ينطبق على الملح بشدة. ولعل جزءاً كبيراً من الحظوة التي نالها الملح في مخيلات البشر، إنما يرجع إلى عناء الحصول عليه أصلاً.

يبدأ تاريخ جني الملح في الصين مع الإمبراطور الأسطوري هويانغدي، الذي شهد عهده ابتكار الكتابة والأسلحة والمواصلات. فقبل ثمانية آلاف سنة، حصل الصينيون على الملح من بحيرات داخلية في مقاطعة شانكسي الشمالية. ففي كل صيف، كان الناس ينتظرون جفافها من المياه، ليكشطوا الملح، الذي يظهر في قيعانها. وتشير مدونات صينية إلى أن تجارة الملح، بعد استخراجه من البحيرات الداخلية كما من مدن الساحل الصيني، ابتدأت في عهد سلالة كزاي الإمبراطورية، التي حكمت البلاد قبل نحو أربعة آلاف ومئتي سنة. وتصف تلك المدونات أن ملح البحار استخرج بغلي مائه في أوعية فخارية كبيرة، وتجميع المادة البيضاء المترسبة. لقد دون الصينيون هذه الطريقة في وثائق كتبت قبل ألفين وثمانمئة سنة. وربما عاد الفضل إلى تلك المدونات في انتقال هذه الطريقة في الحصول على الملح، إلى القارة الأوروبية، بعد ألف سنة من كتابتها!

وبعد كل هذا العناء في الحصول على المادة البيضاء، لا يصعب فهم نبذ التقاليد الصينية القديمة لرش الملح على الطعام باليد. واقتصر استخدامه على إضافته إلى الأطعمة أثناء طهيها أو حفظها أو لصنع المخللات. والحال أن هذه الأخيرة كانت موضعاً لتجارة ازدهرت لفترات طويلة في بقاع الأرض، مع السمك المملح، كجزء من تجارة البلورات البيض.

ولعل الوجه الأكثر إثارة في الجغرافيا التاريخية للملح، كما يرسمها الكتاب، تتمثل في تعرّف الأقوام الأوروبية القديمة على أن بعضاً من جبال الألب لم يكن أبيض بفعل الثلج، وإنما لأنها جبال من الملح. فقد انتشرت مناجم استخراج المادة البيضاء على أقدام تلك الجبال. وظهرت مدن تحمل اسم الملح مثل "سالزبورغ" النمساوية و"هالشتات" الألمانية، ويعني اسميهما شيئاً واحداً: "مدينة الملح". وخاضت شعوب أوروبية كثيرة في هذه التجارة. وامتدت طرق تجارتها عبر أوروبا ومروراً بالشرق الأوسط، لتكمل دربها إلى الصين. لقد امتدت طرق الملح عبر العالم لتكون أول طرق لمرور الثروات وتبادلها بين شعوب الأرض.



قبل ثمانية آلاف سنة يقوم الصينيون باستخراج الملح بغلي مائه في أوعية فخارية كبيرة

Image Bank

2 الملح

ضروري، مفيد، ضار..

أمين نجيب

يسمى ملح المائدة علمياً "صوديوم كلورايد"، لأن جزيئته تتألف من ذرة صوديوم وذرة كلورايد. والمادة المهمة بالنسبة إلى صحة الإنسان هي الصوديوم، وتقول نشرة جامعة هارفارد (عدد يوليو 2003م) إن اسم هذه المادة ربما كان قد تطوّر من الكلمة العربية "صداع".

ولكن علينا أن نحذر هنا من إطلاق الأحكام على الملح أو اتهامه بكونه مادة ضارة. فالملح مادة أساسية لسلامة الإنسان وصحته. وهو موجود في كل سوائل الجسم، في الدم والعرق، والبول.. ويمتص الجسم الملح من الأوعية المعوية. وهو المعدن الرئيس للبلازما، المادة الأساسية للدم والسوائل التي تعيش فيها الخلايا. فمن دون صوديوم كافٍ، فإن هذه السوائل تخسر الماء، وتجف متسببة بانخفاض ضغط الدم وفي النهاية الموت.

والملح، أو الملوحة من حواس التذوق الأربع. الحلو والمر والحامض والمالح ويرى بعضهم أنها خمس إذا أضيف نوع ياباني من الملح له طعم خاص وهو "Umami" الذي يتألف كيميائياً من "أحادي صوديوم الغلوتاميت" ويتمتع هذا الملح بطعم الملوحة الخاص وانخفاض كمية الصوديوم فيه. وقد بدأ الكثير من شركات الأطعمة اعتماده في منتجاتها. خصوصاً بعدما أصبح شائعاً تخفيض استهلاك الملح لأسباب صحية.

التأثير السلبي على الصحة

منذ القرن التاسع عشر، بدأ الأطباء يلاحظون التأثير السلبي للملح على الصحة وخصوصاً على ضغط الدم. كما لاحظوا، ومنذ ذلك التاريخ، أن تأثيره على بعض الناس يختلف عن تأثيره على البعض الآخر. وكان يقال حينها إن بعض الناس عندهم "حساسية للملح". وتوالت بعدها الدراسات المتناقضة في نتائجها. وأهم هذه الدراسات كان سنة 1999م بعنوان "المقاربة الغذائية للحد من ارتفاع ضغط الدم" (ومختصرها للأهمية DASH) وموجزها أن الوجبة الغذائية الجيدة تكون غنية بالبوتاسيوم والكالسيوم والماغنيزيوم والألياف ويقل فيها الصوديوم.

وبينما حددت الدراسة، التي وافق عليها معظم المؤسسات الطبية الأمريكية ومنها الـ FDA، الحد الأعلى للاستهلاك اليومي للفرد بـ 2400 ملغ من الصوديوم أو 6000 ملغ من ملح المائدة الذي يحتوي على 40 في المئة فقط من الصوديوم)، فإن "الأكاديمية الوطنية للعلوم" في الولايات المتحدة خفضت المعدل إلى 1500 ملغ من الصوديوم. ولكن في واقع الأمر، ارتفع معدل استهلاك الصوديوم من 2800 ملغ في سنة 1980م، إلى 3000 ملغ في سنة 1990م، إلى 3300 ملغ في سنة 2000م، ويعتقد الكثير من الباحثين أن هذه الأرقام غير صحيحة، وهي في الواقع أعلى، وربما تكون بحدود 4000 ملغ. خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار الاستهلاك المتزايد للأطعمة الجاهزة والتي تحتوي على نسبة عالية من الصوديوم. فوجبة عادية في مطعم صيني مثلاً من القريدس مع الصلصة بالثوم تحتوي على 3000 ملغ من الصوديوم. أي أعلى من المعدل المسموح به لـ 24 ساعة.

ويقول بعض الباحثين شارحاً كيفية تأثير الملح على ضغط الدم إن للجسم آلية معينة لتوازن السوائل والأملاح. فعندما يزداد معدل الملح يطلب الجسم المزيد من الماء لإقامة التوازن، مما يزيد حجم السوائل و يشكّل الأمر ضغطاً إضافياً على القلب لدفع هذه السوائل، مما ينتج عنه ارتفاع في الضغط.

وقد أجرى الباحثون اختبارات عديدة على شعوب من أثنيات مختلفة للتأكد من علاقة تناول الملح وارتفاع ضغط الدم. فقبائل "اليانوماني" في البرازيل مثلاً، يتناولون أقل من 100 ملغ في اليوم كمعدل عام وكان معدل ضغط الدم 96/61. أي أنه مثالي. لكن باحثين آخرين انتقدوا النتيجة، وادعوا أن طريقة عيشهم البدائية هي السبب في هذه النتيجة. ولكن أجريت أبحاث على قبائل "القشقاي" في جنوب إيران الذين يتناولون ما معدله 4500 ملغ من الملح في اليوم (وهذا هو تقريباً المعدل نفسه في الولايات المتحدة)، وكانت النتيجة أن معدل ارتفاع ضغط الدم هو حوالي 18 في المئة (أي نفس النسبة أيضاً في الولايات المتحدة).

وبينما يستمر الجدال في الأوساط الطبية حول تأثير الملح على الصحة، فإن هناك إجماعاً على أن مرضى القلب وضغط الدم والكلى يجب أن يخفضوا استهلاك الملح في طعامهم. وقد اختصرت كل ذلك مجلة "JAMA" وهي مجلة جمعية الطب الأمريكية واسعة الانتشار في الأوساط الطبية في عددها الصادر في فبراير 2004م بالقول إن "الملح وهو مركب كيماوي بسيط تأثيره على ضغط الدم لا يزال غير متفق عليه". رغم ذلك فإن المؤسسة الطبية The Institute of Medicine توصي بشدة بتخفيض تناول الملح".

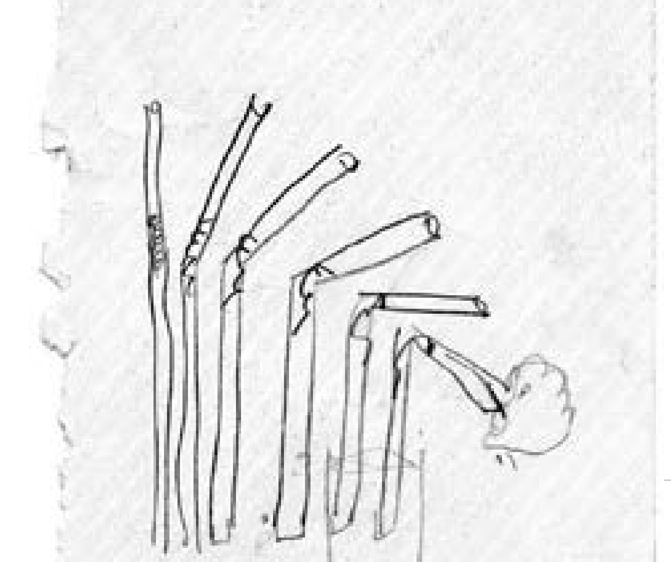
قصة ابتكار

مصاصة العصير

يُروى أن الصناعي الأمريكي مارفن ستون اعتاد على شرب عصير النعناع بعد انتهائه من العمل. وكان يستعمل مصاصة من القش النباتي الرائج آنذاك. ولكنه كان يمتعض من تفتت أسفل القشة والرواسب التي تتساقط منها في العصير.

وذات مرة، تناول قلم رصاص ولفّ عليه شريطاً من الورق، وبعد نزع القلم، صمّغ الورق ليشرب العصير بهذه المصاصة الجديدة. وخلال فترة وجيزة انتقل إلى صناعة هذه المصاصة من ورق مانيلا المقوى والمطلي بالبارفين ليصبح مقاوماً للتلف السريع الذي تتسبب فيه السوائل. وحصل على براءة لاختراعه هذا عام 1888م. وما أن حل العام 1890م حتى كانت هذه السلعة الجديدة تلازم كل أنواع المرطبات في أمريكا بأسرها.

بعد ذلك بنحو 40 سنة، كان المخترع المعروف جوزف فريدمان في كاليفورنيا يراقب طفلته وهي ترتبك في شرب الحليب من كوب بواسطة مصاصة مستقيمة. فأخذ المصاصة الورقية، وزج فيها برغي معدني، ولفها من الخارج بخيط شده على المصاصة بقوة. وبعد نزع الخيط والبرغي، صارت المصاصة مرنة قابلة للطي. وسجل فريدمان اختراعه هذا في العام 1937م، بعد اختراعه آلة خاصة تجعل المصاصة قابلة للطي.



لم يقبل أحد بشراء هذا الاختراع، فأسس فريدمان، مصنعاً صغيراً بنفسه لإنتاج هذه السلعة الجديدة. وساعدته شقيقته بيتي على ترويج هذه المصاصات في المستشفيات أولاً، رغم أنها كانت موجهة أساساً إلى الأولاد. وبمرور الوقت راجت المصاصات المرنة على كل المستويات، ونما المصنع، وتحول إلى سلسلة مصانع ظلت تعمل حتى العام 1969م، تاريخ بيعها إلى شركة "ميريلاندكاب"، بعدما حوّلت عائلة فريدمان إلى واحدة من أغنى العائلات الأمريكية.

قصة مبتكر

غرانفيل وودز

.. الذي رفض الشراكة مع أديسون



العالم بأسره يعرف غراهام بل وتوماس أديسون، ولكن قلائل جداً هم الذين سمعوا بالمخترع غرانفيل وودز، الذي يعتبر عن جدارة أعظم مبتكر أسود في القرن التاسع عشر، ووُضع في حياته في مصاف المخترعين، وأكثر من ذلك، استطاع وودز أن يجر توماس أديسون إلى قاعة المحكمة مرتين بسبب خلافهما حول من اخترع ماذا..؟

ولد غرانفيل وودز في أستراليا من أم هندية وأب من سكان أستراليا الأصليين. وهاجر طفلاً مع أبويه إلى أمريكا.

اضطر إلى التوقف عن الدراسة عندما كان في العاشرة؛ ليتعلم الحدادة. وفي السادسة عشرة من عمره، بدأ يجوب أمريكا ويتنقل من مهنة إلى أخرى. عمل إطفائياً لبعض الوقت، ومن ثم ميكانيكياً على متن أحد الزوارق النهرية، الأمر الذي أكسبه مهارة في علوم الميكانيكا، دعمها بمتابعة بعض الدروس في إحدى الكليات المتخصصة، كما أسس مع شقيقه ورشة صغيرة لإصلاح المحركات، وكافح كفاحاً مريراً لمدة أربع سنوات كي يبقي ورشته مفتوحة، في أجواء عاصفة بالاضطرابات العنصرية.

حصل غرانفيل على أول براءة اخترع في يناير من عام 1884م، لاختراعه غرفة احتراق محسنة للمحركات البخارية. وتوالت اختراعاته وابتكاراته التحسينية، حتى فاق عددها الستين براءة، وشملت كل شيء بدءاً بالسكك الكهربية مروراً بالهاتف والتلغراف والمكابح العاملة بضغط الهواء، وصولاً إلى حاضنة بيض الدجاج الكهربية.

وكان هذا العبقري مولعاً بالفنون والمسرح، ولأن تخفيت الإضاءة في المسارح كان يتسبب أحياناً في حرائق خطيرة، اخترع جهازاً خاصاً لتخفيت الإضاءة الكهربية، لايزال مبدأ معمولاً به حتى يومنا هذا.

يقال إن اديسون عرض عليه في وقت ما مشاركته العمل، ولكن غرانفيل وودز رفض العرض، وآثر العمل حراً والبقاء سيد نفسه حتى وفاته عام 1915م.

اطلب العلم

محور الأرض.. بخير!

د. علي محمد الشكري*

حين داهم طوفان "تسونامي" اثنتي عشرة دولة، فجر السادس والعشرين من ديسمبر الماضي، انفتحت شهية وسائل الإعلام، في كلّ دول العالم، لتتعامل مع الكارثة الطبيعية الهائلة بحماسة مبرّرة بما أفاق عليه العالم من دمار شامل وأرقام مخيفة في عدد الأرواح التي أُزهقت في حدث من أحداث الطبيعة لم يستمر إلا دقائق معدودة..!

انجرّت وسائل الإعلام نحو الحقائق والشائعات، القصص والتوقعات، النظريات والنتائج العملية في خلطة لها تأثيرها في البشر بالتأكيد.

إنه طوفان بكل ما فعل من حقائق مرعبة. والطوفان لم يأتِ من عاصفة هوجاء كما يحدث كثيراً هنا أو هناك من أصقاع الكرة الأرضية. بل أتى من قعر المحيط.. حين ارتجّ بخامس أقوى زلزال عرفته الكرة الأرضية منذ أكثر من قرن. ومع التزايد اليومي المخيف لأرقام الضحايا الموتى والجرحى والمشرّدين والتحرّك الدولي المطّرد ساعة بساعة؛ اختلط حابل النظريات العلمية بنابل الحقائق..!

بعض التوقعات ذهبت إلى احتمال تأثّر محور الأرض بالزلزال المدمّر. ولم تتردد وسائل الإعلام. وهي معذورة ربما. في ترويج هذا الاحتمال، وكأن هول الكارثة سيزداد هولاً عملياً حين يُرَوّج مثل هذا الكلام..!

الكارثة هائلة بحقائقها الميدانية وتداعياتها على أرض الواقع بما فيه من بشر واقتصاد وطبيعة. حتى أن الملايين من سكان الدول المنكوبة سيبقون بحاجة إلى المعونات الحياتية اليومية طوال العام الجاري. ولكن ليس إلى حدّ إقحام "محور الأرض" بين الضحايا..!

حين تغمس إصبعك في ماء البحر ثم ترفعه؛ فإن البحر لن ينقص من الناحية العملية، مع أن النقص قد حدث من الناحية النظرية..! هذا النقص "النظري" لا يسمح لأحد بالتهويل واعتبار ماء البحر ناقصاً. وعلى هذا يمكن قياس علاقة محور الأرض بالزلزال الذي بلغت شدته 8.9 درجات على مقياس ريختر..!

يتجاوز عمر الأرض أربعة مليارات من السنوات. وعلى امتداد عشرات الآلاف من بداية الحياة فيها، واجهت زلازل وبراكين وأحداثاً فلكية أقسى وأعنف من زلزال سومطرة بمراحل ومراحل، مثل زلزال ألاسكا في 9 يوليو 1958م الذي كان بقوة 9.5 درجات، وأحدث موجة مد زلزالي وصل ارتفاعها إلى 1720 قدماً. ولو كان محور الأرض سهلاً إلى درجة التأثر بمثل زلزال سومطرة الأخير؛ لما كان له أن يحافظ على توازنه الفلكي الذي يضبط دورة الفصول الأربعة، وفق النظام الإلهي الدقيق. لو كان المحور من السهولة بحيث يتأثر بالزلازل أو البراكين أو الشهب أو النيازك التي تدمّر وتحرق وتغرق وتنسف آثار الحياة، لكشفت الدراسات الجيولوجية والفلكية أي تغير ملموس في دوران الأرض أو اتجاه محورها.

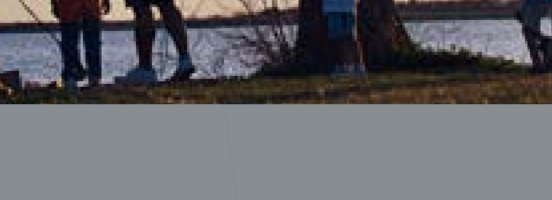
"الزلزال" الذي تغيّر اسمه، في نشرات الأخبار، إلى "طوفان" هائل ومرعب ومدمّر.. ولكنّ محور الأرض.. بخير..!

* رئيس قسم الفيزياء، أستاذ الفيزياء الفلكية المشارك، جامعة الملك فهد



أشرف إحسان فقيه

- ولد في القاهرة لأسرة من المدينة المنورة خريف 1977م.
- يمارس التصوير الضوئي منذ العام 2002م.
- فاز بالجائزة الأولى بمسابقة منتدى (جسد الثقافة) الكبرى الثانية للتصوير عام 2004م.
- حقق المركز الخامس بتصويت مسابقة موقع BBC (رمضان في قريتك أو مدينتك) عام 2004م.
- صدرت له مجموعتا قصص خيال علمي آخرهما (حنيناً إلى النجوم) عام 2000م.
- كاتب نشط بعدد من الدوريات والصحف السعودية.
- حاصل على الماجيستير في علوم الحاسب الآلي من جامعة Texas A&M عام 2004م.
- عضو هيئة تدريس بكلية علوم وهندسة الحاسب الآلي بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن منذ العام 2000م.



نحن هنا..

بقايا نور وبقية أمل..
حبل تتعلق به، طِويل..
لا يأخذك بعيدا
تذهب لتعود..
تذهب لتعود..
وإلا.. فالسقوط!















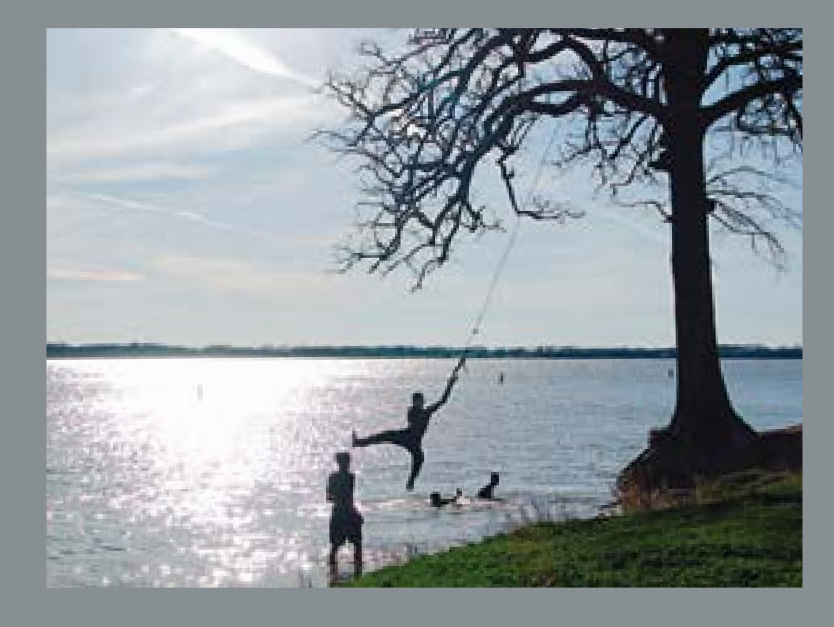














حياتنا اليوم

الطريق الملتوية إلى السعادة

كيف الوصول إلى السعادة؟ هذه الغاية التي تشكل القصد النهائي المباشر وغير المباشر لكل ما نقوم به في حياتنا اليومية..

يمكننا تعريف السعادة من الناحية الفلسفية على أنها ذات وجهين: الأول هو الموقف أو الشعور، والثاني هو مجموعة الأحداث التي تسهم في تكوين هذا الموقف أو الشعور. أما الموقف فهو الإحساس بالرضا عن الحياة التي يعيشها الإنسان بشكل عام. في حين يجب أن تتميز الأحداث بالرضا عما يفعله الإنسان وما يقتنيه.

إن المقتنيات المادية تمنحنا في الغالب شعوراً باللذة وليس بالسعادة. وهذان نوعان مختلفان من المشاعر لا يجب الخلط بينهما. فالمقتنيات المادية والتطور التكنولوجي والعلمي من الأمور التي أمّنت لنا راحة أكبر في حياتنا.. ولكن، كما يقول الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو: "إن تطور الشعوب لم يزد أبداً من السعادة الحقيقية".

أما المقتنيات غير المادية مثل الموهبة، الرضا عن الذات، الثقة بالنفس، القدرة على اكتساب احترام الآخرين.. فكلها "مقتنيات" تمكننا من تحقيق الغايات التي تسهم في إسعادنا.

وفي ما يتعلق بالأفعال، فهي ليست بالضرورة فيما يمكن مراقبته اجتماعياً منها. فقد تكون لحظات تأمل، إحساس جميل، تقدير الأشياء القيّمة.. ويخطئ من يعتقد بأن امتلاك الحرية ليفعل ما يشاء هو الطريق إلى السعادة. لأن الكثيرين يقومون بأعمال ومهمات تتطلب تضحيات كبيرة ما كانوا ليختاروها تحت ظروف أخرى، مثل الأم التي تضحي بالكثير من أجل أبنائها، ومع ذلك تكون سعيدة بهم.

إن السعادة قلّما تتحقق عندما يعزم الإنسان على الحصول عليها مباشرة. وقد بحث الكاتب والمحلل النفسي ميهالي شيكزنتميهالي عن طبيعة السعادة من خلال استماعه لما يقول الناس عن نشاطاتهم المختلفة، ووجد أن الأنشطة التي تعود على صاحبها بالاكتفاء والرضا هي إنجاز الأمور الصعبة بنجاح. وهذه الأمور يحققها الناس من خلال عملهم أكثر من خارجه.

وعندما يخطط الأفراد للوصول مباشرة إلى السعادة عن طريق فعل شيء محدد، فإنهم قلّما يجدونها. لأننا نعيش في عالم ذي نظام معقد، لا يمكننا تحديد متغيراته بشكل حاسم، إذ أنها تغير طبيعتها كلما تعاملنا معها. ولا يمكن بالتالي السعي إلى تحقيق هدف مباشر وكبير ولا يمكن قياسه مثل السعادة.

يجب على أهدافنا أن تتركز على تحقيق النجاحات المختلفة في ما نقوم به.. والشرط الأساسي المطلوب هنا هو التأقلم. أي قبول أشياء كثيرة تقدمها لنا الحياة من الحظ والفرص، وتصيبنا في أمور كثيرة حتى في شكلنا الخارجي.

باختصار يمكننا القول بأن السعي إلى السعادة يجب أن يتم بطريقة غير مباشرة، أي بالطريقة التي أشار إليها المفكر جون ستيوارت ميل قائلاً: "إن هؤلاء السعداء هم الذين يركزون تفكيرهم على أشياء غير سعادتهم.. وبملاحقة أهداف مختلفة يمكنهم الحصول على السعادة بطريق الصدفة".

مهى قمر الدين 

عالم الوجبات السريعة

هل بدأ الإنسان يسأل ماذا يأكل؟

الطعام السريع أو "الفاست فوود"، مصطلح دخل عالمنا المعاصر كما دخله الكومبيوتر، والبث التلفزيوني الفضائي، وغير ذلك من الوسائل التي أحدثت تغييراً كبيراً في السلوك والثقافة، وربما أكثر من ذلك بالنسبة إلى الطعام السريع، الذي يترك بصماته على الصحة والبيئة. ومع الضجيج المثار عالمياً حول آثار بعض أنواع الأطعمة السريعة في الصحة العامة، تستعرض هدى بتروبولس الجوانب المختلفة لهذا الموضوع الذي أصبح جزءاً أساساً في حياتنا اليومية.

كان رواج ما اصطلح على تسميته بالإنجليزية "تشينز" من الظواهر الأكثر انتشاراً على الصعيد العالمي في القرن العشرين. وإن كان هذا التعبير قد أُطلق أولاً على سلسلة المخازن الكبرى والمتوسطة، فقد تحوّل في العقود الأخيرة من القرن نفسه ليشير إلى مجموعات المطاعم السريعة التي عرفت توسعاً هائلاً، وباتت تشكل قطاعاً اقتصادياً ضخماً جداً.

خدمة طعام سريع أم ظاهرة مجتمعية؟

يعرف "الطعام السريع" بأنه: "طعام غير مكلف، يجري تحضيره وتقديمه بسرعة في مطاعم بسيطة..". وما كان يسمى بالوجبة الخفيفة "سناك" بالإنجليزية، وهي تكون عادة عبارة عن سندويتش أو قطعة بيتزا، أو سلطة، وما قد يُضاف شرق أوسطياً، كالفطائر على أنواعها والمخبوزات (من زعتر إلى لحم إلى جبنة) والفلافل والشاورما وربما حتى الحمص والفول، قد يندرج اليوم في الإطار العام لمصطلح الطعام السريع الذي نما استخدامه مع تطور الصناعة نفسها.

ولذلك يساق أيضاً تعريف للطعام السريع بشكل يواكب العصر المتأثر بالسلسلة الكبرى، كمصطلح لا يصف طعاماً بذاته، بل يصنّف نوعاً من تقديم الطعام، يتوفر بعد لحظات من طلبه، ويسلّم مباشرة على منضدة صندوق الحساب، طعام يجري تحضيره مباشرة ويمكن أكله من دون استخدام أدوات الطعام.

وما بدأ كنزوع أمريكي في انتشار سلسلة من الأطعمة السريعة منذ منتصف الخمسينيات بعد تأسيس مطاعم تقدم الدجاج المقلي فقط، تحوّل إلى ظاهرة عالمية مع بداية انتشاره في أسواق أوروبا ثم العالم منذ منتصف السبعينيات. وقامت صناعته على أسلوب إنتاج متجانس، مواده محددة وقليلة، ويعتمد على أسلوب تحضير وطبخ موحد.

هذا التجانس في الإنتاج، وتحديد المعايير، ومنهجة أسلوب الإنتاج وتصنيعه؛ يجعل من تكراره ليشكل سلسلة من المطاعم أو المقاهي مسألة سهلة تبدأ في محيطها المحلي ثم تتوسع عالمياً.

وما يجعل نجاح هذه السلسلة أمراً ممكناً يكمن أيضاً في ملاءمتها لذوي الدخل المحدود، وأيضاً تعميم ثقافة استهلاكية شائعة أصبحت مع الوقت جزءاً من الحالة الروتينية كمعطى وليس كوارد.

إن عالمية هذه الظاهرة لا تنفي كونها متفاوتة التأثير. فهي متضخمة جداً في أمريكا الشمالية؛ حيث توفر منفذاً استهلاكياً لثلث الأمريكيين البالغين تقريباً كل يوم. فالطعام السريع يدخل حياة المجتمع في أكثر من جانب: في أسلوب استهلاكه الواسع، وفي تنظيم المدن ومراكزها التجارية المتماثلة التي تتألف من سلسلة مختلفة من المخازن والمطاعم، وفي إنتاجها

الذي أخذت فيه النشاطات الكبيرة "الممركزة" مكان المزارعين وأصحاب الأعمال الصغار، وفي نوعية إنتاجها المصنّع.

وفي أوروبا كانت ظاهرة الطعام السريع أيضاً واسعة؛ وذلك بسبب الاعتماد المتزايد على تناول وجبات الطعام خارج المنزل، بحيث أصبحت حصيلة إنتاج المطاعم تضاهي الإنتاج الزراعي، والعاملون فيها يناهزون ضعف العاملين في الزراعة (هذه النسب تخص بريطانيا ويمكن أن تنطبق على أوروبا أيضاً). أما في البلدان الأقل تصنيعاً والعالم الثالث عموماً، فإن التأثير كان كبيراً لكنه لم يصبح بعد مُهيمناً. فسلسلة المطاعم السريعة الآتية من الخارج هي أكثر كلفة مما هو قائم ومحلي، الذي تعتمد غالبيته على منشآت صغيرة، أمّا ارتياد مطاعم السلسلة العالمية فيظهر كمجاراة للعصر؛ ولأن المكان يبدو أكثر لياقة وأنظف..

ولكن ومنذ سنوات خمس تقريباً، بدأت تنمو حركة ارتجاعية تنتقد المستوى المتدني لنوعية الطعام السريع، وبات المصطلح يحمل دلالة غير مستحبة. وها هي الصناعة تتجه اليوم إلى محاولة تحويل نظر الجمهور إلى مصطلح بديل مثل "مطاعم الخدمات السريعة".

حجم صناعتها في أمريكا فاق 110 بلايين دولار، وعدد موظفي سلسلة واحدة بلغ المليون!

جاذبية الطعام السريع فعّالية وملائمة، وماذا أيضاً؟

لا يمكن فهم ظاهرة سلسليات الطعام السريع إلا بالرجوع إلى منشئها في الولايات المتحدة الأمريكية والطريقة التي نمت فيها وغزت بها حياة المجتمع في أكثر من جانب. كانت الريادة في هذا النمو لأخوين ابتكرا عملية إنتاج أكثر فاعلية لزيادة الإنتاج وتقليل الكلفة وبالتالي السعر، وجذب المزيد من الزبائن: استغنيا عن الخدمة المباشرة للزبائن وعن أدوات الأكل التي استبدلاها بالأغلفة، وركزا على بيع مواد قليلة لا تحتاج إلى تلك الأدوات (الهامبرغر والبطاطا والكولا). سرّعا عملية الإنتاج بشراء خلّاطات كبيرة، وشجعّا الزبائن على طلب طعامهم على المنضدة أو من النافذة وهم في سياراتهم. وباشرا أسلوباً جديداً وهو منح امتياز لعلامتهم يسمح لغيرهم بإنشاء مطاعم تحمل الاسم نفسه مقابل دفع مبلغ من المال ونسبة من المبيعات، وهي عملية اتبعت مفاهيم تتعلق بوضع معايير متجانسة وقوانين إنتاج وخدمات صارمة وصناعة منتجات متناسقة ومتماثلة في جميع الأماكن. هذا النجاح شجّع غيرهم على القيام بالمثل، في الخمسينيات والستينيات الميلادية.

إلا أن القفزة الأساسية حصلت في العقود الثلاثة الأخيرة، حيث نمت هذه الصناعة محلياً من 10 بلايين دولار عام 1970م إلى 110 بلايين عام 2000م. وفي هذا النمو اليوم وصل عدد فروع أحد المطاعم إلى 28 ألفاً في أمريكا و 31 ألفاً في 121 بلداً)، إلا أن سلسلة متنوعة بدأت تتطور لتسويق الدجاج، البيتزا، التاكو المكسيكي، الساندويتشات، وغيرها، لتشكل في أواخر القرن العشرين ما يتعدى 160,000 مطعم سريع يخدم أكثر من 50 مليون أمريكي يومياً. وبذلك تسلل الطعام السريع إلى جميع زوايا المجتمع الأمريكي، بحيث بات يخدم في المطاعم وفي المطارات والسفن والجامعات والمدارس ومحطات الوقود وحتى في مقاصف المستشفيات..!

يطرح هذا النمو تساؤلاً عن أسبابه. ويذكر منها عادة: ملاءمته لأسلوب حياة يضع قيمة للفاعلية، والأسعار المنخفضة، والدعاية القوية وجاذبيتها للأولاد والشباب، والسفر بالسيارات الذي يتطلب التوقف كل فترة، وتجانس الفروع بما يجعلها مألوفة، فيطمئن لها الزبون.

لا شك أن النمو الاستثنائي لظاهرة سلسلة المطاعم السريعة قد قادته تغييرات اجتماعية، منها اضطرار عدد متزايد من النساء إلى الانخراط في العمل، كما أن وتيرة العمل نفسه والحياة المتسارعة جعلتا منافذ الأطعمة السريعة والرخيصة ضرورة مكملة. وبدورها قدمت هذه السلسلة إمكانيات لم تكن متاحة من قبل للعائلات ذات الدخل المحدود لارتياد المطاعم بكلفة قليلة، وباتت إلى حد ما، في ظل اقتصار أماكن الترفيه على المراكز التجارية، ملاذاً عائلياً أحياناً لا مفّر منه.

إلا أن دور الدعاية كان عنصراً أساساً في الترويج الواسع للسلسلة وخلق عادات طعام ملائمة وغير ملائمة. ربما كان من أهم نجاحات مطاعم الهامبرغر استهدافها الأولاد في الدعاية وفي إنشاء الملاعب المكملة للمطاعم، وفي خلق "الوجبة السعيدة" الخاصة بالأولاد وإرفاقها الدائم بأشكال متنوعة من الدمى التي باتت مع الوقت الأكثر ألفة لديهم. وهناك مشاركة واضحة لهذه المطاعم في الألعاب الرياضية الأكثر شعبية كالأولمبياد وكرة السلة الأمريكية. وتتسابق سلسلة المطاعم في جذب ما تعتبره "المستهلكين الأكثر ثقلاً"، الذين تتراوح أعمارهم ما بين 18 و 24 سنة، عبر إدخال حصص طعام من النوع الثقيل مثل "المونستر برغر" و"الملك الضخم" و "بيغ إكسترا".

الطعام السريع مرحلة أخيرة من صناعة فعلها التجانس

يأخذنا كتاب "أمة الطعام السريع" لكاتبه إيريك شولوسير إلى متاهات تصنيع الوجبات السريعة في الولايات المتحدة. وهو يحاول أن يجيب عن السؤال: من أين تأتي هذه الأطعمة التي تبدو مألوفة كالهامبرغر والبطاطا وأعيدت صياغتها من خلال وسائل تكنولوجية مهمة؟

يقول لنا الكتاب، إنه باستثناء السلطات، تتلقى سلسلة المطاعم السريعة الأطعمة جاهزة، إما مجمّدة أو معلبّة أو مجفّفة، وتحتاج خطوات بسيطة للإعداد (تسخين أو قلي أو إضافة ماء)، لكن العملية تحصل في إطار متقدم من المكننة من أجل إعدادها بسرعة وبكميات كبيرة. أما تصنيعها، فيعود إلى مجمّعات صناعة غذائية لشركات متعددة الجنسيات، توسعت وتركزت في الثمانينيات من القرن العشرين بسبب اندماجات مهمة سهلتها سياسة حكومية متسامحة تجاه الاحتكارات.

فتضخم القوة الشرائية لهذه السلسلة وحاجتها إلى درجة كبيرة من انسجام المنتج أحدثا تأثيراً مهماً في مجريات العرض، فارضاً "تخفيضاً للأسعار ومقوياً المركزة الصناعية" على حساب التنويع والمنتجين الصغار. أحد المطاعم انتقل، مثلاً، من شراء اللحوم المعلبة من 175 موزعاً عام 1968م، إلى خمسة موزعين فقط بعد سنوات قليلة. وتضخمت بشكل هائل شركات صناعية لتقطيع البطاطا من أجل صناعة تنويعات في الأشكال، جاهزة للقلي، تامة التماثل، وتستطيع أن تنتج آلاف الأطنان يومياً. وتلازم مع التصنيع الغذائي اعتماد متزايد على صناعات كيمائية لإدخال النكهات والمذاقات، وليس هناك مذاق تعجز هذه الصناعات عن تقليده..!!

ولهذا السياق الصناعي امتداد عالمي. فالشركات الغذائية تسير خلف سلسلة المطاعم، وتشتري مثلاً مساحات زراعية في الصين واستراليا وتبني مصانع تحويلية إلى جانبها من أجل السوق الآسيوية لصناعة الطعام السريع.

ويحتل موضوع الامتياز درجة كبيرة من الأهمية في تكريس التجانس. وعلى سبيل النموذج، هناك كتيّب تعليمات للتطبيق من قبل الامتياز بات اليوم في حجم مجلد، يدخل في أدّق التفاصيل لاستخدام الأدوات والشكل الخارجي لكل مادة على لائحة الطعام وتعامل الموظفين مع الزبائن وغيره. هذا التنظيم الصارم لا يترك أي مجال للاعتماد على مهارات العاملين بما أن العملية الإنتاجية ككل موجودة في نظام عمليات الآلات.

هل من عواقب لهذه الدرجة العالية من المكننة والتصنيع؟

بعض ما يساق في هذا المجال هو أمراض جرثومية قد تنتج عن السرعة الفائقة في تعليب اللحوم (خاصة المفرومة منها). والمفارقة هنا أن سلسلة المطاعم تتمتع بقدرات على الفحص والإشراف على الطعام، لا تتوافر عادة للمؤسسات الصغيرة؛ مما يجنبها الوقوع في إحداث أضرار مباشرة كالتسمم والبكتريا. إلا أن ما يؤخذ على هذه السلسلة اليوم هو التساؤل حول أضرار على المدى الأطول لأطعمة محوّلة يزيد فيها الدسم ويقل الغذاء. والبعض يريد تحميلها مسؤولية البدانة وأمراضها، كما حمّلت شركات التبغ تبعات التدخين.

البدانة بعد التدخين بين القانون وقناعة المستهلك

منذ ما يقارب السنوات الخمس بدأ موضوع البدانة يثير بعض الحساسيات تجاه الاستهلاك غير المدروس للأطعمة السريعة "الرائجة". فحالة البدانة أصبحت صارخة في مجتمعات كالولايات المتحدة وكندا، والتساؤل حول أسبابها بدأ يطرق باب موفري الأطعمة الأكثر تناولاً في الولايات المتحدة، أي سلسلة مطاعم الوجبات السريعة. ودرجت استخدامات جديدة لتصنيف الطعام حسب نوعيته واستخدامه، مثل "الطعام البالي" (جانك فود)، لوصف طعام يحتوي على كميات حرارية ودهنية وسكر وأملاح وفائدته الغذائية ضعيفة (مثل الكعك المسمن والسكريات والمشروبات الخفيفة وغيرها)، و"الطعام الملائم" (كونفينينت فود)، لوصف الطعام المحوّل والمعد لحد أدنى من التحضير ويرتبط تناوله بعادات جديدة كالأكل أمام شاشة التلفزيون. ومعها بدأ التساؤل: أين تقع محتويات الأطعمة السريعة الدارجة في هذا الاعتبار،

وما إذا كان عدد منها يمكن إدراجه في تصنيف "الجانك فود".

وما إن يبدأ في الولايات المتحدة، حيث للقضاء ثقل خاص، التساؤل حول "الأضرار" المتعلقة بالبدانة، وتطرح إمكانية ارتباطها بتناول مداوم لصنف من الأطعمة أو عادات أخرى، حتى يتحوّل الموضوع مباشرة إلى اتهام. جملة من الدعاوى، خاصة بالإنابة عن أطفال بدينين، رفعت ضد بعض مطاعم الوجبات السريعة، تتهمها بالتسبب في حالة البدانة وما ينتج عنها من أمراض. وعلى الرغم من أن القضاء لم يُجل بعد أياً من هذه الدعاوى إلى المحاكم، فإنها بدأت تعيد إلى الأذهان سيناريوهات سابقة لموضوع التدخين وتحميل صناعة التبغ مسؤولية الأضرار الناتجة عنه، بفرض غرامات عليها بلغت مئات بلايين الدولارات كتعويضات عن جزء من نفقات علاج الأمراض المرتبطة بالتدخين.

البدانة تجر مطاعم الوجبات السريعة إلى المحاكم، فهل تتكرر محاكمات شركات التبغ؟

فهل يمكن أن يواجه بعض مطاعم الوجبات السريعة مصيراً قانونياً واجتماعياً مماثلاً؟

بالنسبة إلى البعض، هذا الأمر لم يعد مستبعداً. وخسارة دعاوى قليلة ليست رادعاً، فدعاوى التدخين خسرت أكثر من خمسين حالة في البداية. وهناك جاذبية خاصة للموضوع، إذا أخذنا بالاعتبار تقديرات نفقات علاج الأمراض المرتبطة بالبدانة (التي قد تصل إلى 117 بليون دولار بمقابل ما جرى تقديره لـ 130 بليون دولار بالنسبة للتدخين) بالنسبة لكبار المحامين المعروفين في اختصاصهم بدعاوى الأضرار المدنية، ما يسّمى محامو المحاكم، والذين يجنون منها أرباحاً طائلة تشجعهم على خوضها بعناد، خاصة عندما يكون من الممكن سياقها في إطار مقاضاة جماعية للمتضررين ضد الشركات.

موضوع الادعاء على شركات الأطعمة السريعة أصبح قضية ساخنة في الولايات المتحدة والتجاذب فيها يحصل على ثلاثة أصعدة: القانوني، والتشريع القانوني، والرأي العام.

ولتجنب المواجهات مع القضاء، نقل قطاع الغذاء قضية اعتبرها تحاملاً وعبثاً إلى الكونغرس الأمريكي، الذي وافق (في مارس 2004م) على مشروع قانون "الشيزبيرغر" لحماية الصناعة تجاه الدعاوى العابثة، وتحريم ادعاء الزبائن البدينين بأن وزنهم الزائد سببه أكلهم في بعض المطاعم.

وفي هذا التجاذب يبقى للموقف الشعبي تجاه سلسلة الطعام السريع القول النهائي لأي سياق محتمل في الوصول إلى مفترق كالمفترق الذي عرفته الدعاوى ضد صناعة التبغ، أي إلى تحميل المسؤولية لشركات الطعام السريع عن حالة جماعية اسمها "البدانة". فالتغيّر في الرأي العام هو الأساس الذي يمكن أن يشجع المدعّين العامين في الولايات للمطالبة باسترداد التكاليف الصحية المرتبطة بأمراض البدانة، كما حصل مع صناعة التبغ.

لقد هزّ حدثان إعلاميّان جزءاً من الرأي العام في السنوات الأخيرة. كان الحدث الأول كتاب "أمة الطعام السريع"، الذي لا يتعرض للبدانة بل لما يعتبره تأثيراً مجتمعياً وغذائياً سلبياً لمطاعم الوجبات السريعة، وكان الأكثر مبيعاً حين صدر عام 2002م ولا يزال رائجاً.

والتحدي الإعلامي الأهم جاء عام 2004م، على شكل فيلم سينمائي وثائقي بعنوان "كبّر حجمي" (Super Size Me) من إخراج وتمثيل مورغان سبيرلوك الذي قام بتسجيل تجربته الشخصية بعد تناوله ثلاث وجبات في اليوم لمدة شهر واحد في أحد المطاعم، ويوثّق للتغير الفيزيولوجي الذي أصابه من زيادة وزن وتدهور صحي. وقد بدأت بعض المدارس تتصدى للدعايات المشجعة للأطعمة السريعة، وتزيل الماكينات التي توفر أطعمة "الجانك فود".

وفي هذا المجال يقول المتكلمون باسم سلسلة مطاعم عملاقة (في برنامج مسجل لإذاعة "بي بي سي" البريطانية) إن الشركة "قادت الصناعة ككل في توفير معلومات غذائية شاملة لزبائنها، لكي يكون باستطاعتهم أن يختاروا بشكل مدروس ما ينتقوه من أطعمة".

أي مستقبل بين التجانس والتنويع وبين الملاءمة والتغذية وبين العالمي والمحلي؟

تعرضت حالات النمو السريع أينما حصلت وبشكل عام إلى ظواهر ارتجاعية للحد من عواقبها. فالنمو الصناعي أثار احتجاجات بيئية، والنمو السياحي نمت بمقابله سياحة بديلة.. ولا يخرج نمو صناعة الطعام والسلسلة التي أنتجتها عن هذا السياق العام من حالات الارتجاع.

قبل جيل واحد تقريباً كان يؤخذ لنوعيةالطعام حساب كبير. فالطعام المنزلي الموروث عبر السنين وفّر وجبات متوازنة غذائياً، ولم يكن الإنتاج الغذائي بوفرته الحالية وبنموه التصنيعي القائم ليجعل حساب كميته الزائدة أو نوعيته مسألة على بساط البحث. أما اليوم فبدأ الأمر يتغير. فالصناعة الغذائية المعاصرة لم تؤسس على موروث خبرة السنين بل على معادلات "عقلانية" الحساب. ولم تقم لصالح التغذية بل لتخفيض الكلفة وتسريع الإنتاج. وبات المستهلك مضطراً إلى أن يجاري هذا التطور بمثله، أي أن يبدأ بالحساب "العقلاني" لما يأكله لكن من منطلقات مصلحته ومن أهم متطلباتها التغذية الصحية.

فمن الأمور التي تؤخذ على وجبات الطعام السريع أنها نقيض بعض الخصائص الأساسية للطعام كما توارثناه:

أولاً، تؤسس لتجانس هو نقيض التنوّع كحاجة لتغذية متوازنة.

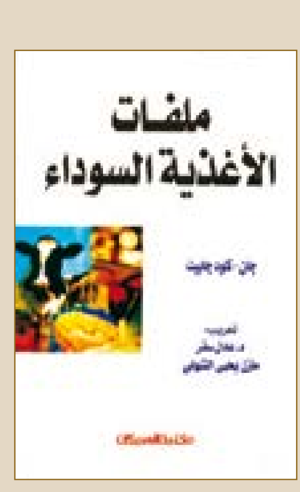
ثانياً، أنها لا تؤسس على موروث، لا بل تعرضه للاضمحلال.

ثالثاً، تعتمد على المحوّل أكثر من الطبيعي. كما تؤخذ عليها أيضاً درجة الدسامة في عدد من منتجاتها التي تجعلها أكثر جاذبية وإشباعاً.

وهذه المآخذ، سواء أكانت في محلّها دائماً أم لم تكن، ومعها بدايات حساب "عقلاني" للمستهلك، بدأت منذ عقد تقريباً تؤسس لتغييرات في قطاع الأطعمة السريعة.

جاذبية الطعام السريع لا تزال قائمة، وهناك توسّع ملحوظ لدى القطاع ككل، يأتي لصالح فروع على حساب فروع أخرى، ويدفع باتجاه بدايات لتعددية وتنويع. والساحة مفتوحة على احتمالات جديدة، فهناك من يريد العودة إلى "مطعم الأم". وحركة "الطعام البطيء" تريد إعادة الاعتبار لكل ما فُقِد. فهي منذ عام 1986م تطرح نفسها كالحركة الإيكولوجية لفن الأكل، وتسعى إلى المحافظة على المطبخ المحلي (وتدعي أن 75 في المئة من التنوّع

اقرأ عن الغذاء



ملفات الأغذية السوداء

لاعلاقة مباشرة لهذا الكتاب بموضوع الوجبات السريعة ومطاعمها، ولكنه يتناول جانباً آخر من جوانب الغذاء المعاصر -إذا جاز التعبير- ألا وهو الغذاء الزراعي الذي يقول عنه المؤلف: "إنه مريض.. نعم مريض بغطرسته ومحاولة فرض منتجاته على مناطق أوسع كل يوم. مريض بمصادرة المسؤولية من المزارعين، مريض بقدرته على التدخل في كل مكان، في مراكز التربية الصناعية والمسالخ ومصانع التحويل والحقول الواسعة والمنتجات..." ويصف بعض المنتجات المصنعة بأن لاعلاقة لها بدورة الطبيعية.

والمؤلف هو الصحافي الفرنسي جان-كلود جابيت، الذي يطارد المشتبه بارتكابهم تجاوزات على صعيد الغذاء الزراعي. ويحفل كتابه الواقع في 283 صفحة بالأمثلة المثيرة "التي تقشعر لها الأبدان"، حسبما جاء في التعريف بالكتاب، الذي عربه الدكتور عادل سفر ومازن يحيى الشهابي، ونشرته دار العبيكان العام الماضي.

الغذائي الأوروبي و90 في المئة من الأمريكي قد فقد منذ عام 1900م).

وهناك من يعتبر أن الموجود يمكن تحسينه وملاءمته مع احتياجات التغذية. وقد بدأت السلسلة المهيمنة، تحت ضغوط هذه المآخذ، تجري بعض التحسينات، فأدخلت بعض المطاعم إلى وجبة طعام الأطفال بعض الخضار والفواكه الطازجة، كما بات يقدم وجبات خفيفة الدسم من الهامبرغر والميلك شيك، وخفف كمية الدسم في زيت المقالي، وبدأ يراعي موضوع البيئة في استخدام مواد الحفظ. وأدخلت تحسينات شبيهة أيضاً على عدد مهم من السلسلة الرائجة الأخرى. وبات من الممكن الحصول على وجبات تتضمن سلطات ومشاوي دجاج في معظمها. ويظهر أيضاً منحى ثالث أكثر توفيقاً بين هذين الاتجاهين. سلسلة مطاعم سريعة، ربما لم تكتسح السوق لكنها أصبحت متاحة، تعيد بعض الاعتبار للموروث والمحلي، من مطابخ عالمية متنوعة. ولعادات تناول الأطعمة الخفيفة كالساندويتشات والفطائر من مختلف المناشيء. ولأن موضوع الخدمة السريعة لا يزال يطرح نفسه كمسألة ملائمة في المجتمعات الحديثة، فإن وجبات كاملة ومتنوعة ومتعددة ومن مطابخ عالمية، تحتوي على لائحة طعام أي مطعم عادي، بدأت تُقدّم بشكل خدمي جديد يسهل بيعها السريع وتناولها بالحد الأدنى من الخدمة، وبأسعار مخفّضة أصبحت ممكنة في إطار إنتاجها الموسّع كسلسلة.

ولكن الهيمنة اليوم لا تزال للسلسلة الكبرى. فهي الأوسع انتشاراً ومبيعاً في الأسواق العالمية، والتغييرات الأساسية تحصل في إطار المنافسة بينها. إلا أن الدخول الجديد في إطار الهيمنة على الأسواق الأمريكية كان لسلسلة مطاعم تقدم ساندويتشات، وهو يعكس ميل المستهلك إلى التنوّع والتغذية الملائمة التي يمكن أن توفرّها الساندويتشات المختلفة المواد ونوع الخبز الأفضل الذي تقدمه. والسوق، في إطار هذه الميول الاستهلاكية، مفتوحة على تنويعات أكثر وعلى الجديد.

كما أن الامتداد العالمي لهذه السلسلة الكبرى لا يزال ظاهرة. إلا أنها ظاهرة بدأت تجد منافسين، غير المنافسين التقليديين كالمحلات الصغيرة المنتشرة للمأكولات السريعة المتنوعة، بظهور سلسلة محلية في آسيا وأمريكا الجنوبية وأوروبا، بعضها لا يلبث أن يتوسع على نطاق إقليمي جغرافي، ومنها من يطمح أيضاً للعالمية. ومنها مطاعم للمآكل الشرق أوسطية السريعة التي سجلت نجاحاً باهراً في البرازيل وتمتد الآن إلى المكسيك، ويطمح صاحبها البرتغالي الأصل إلى أن يصل إلى الولايات المتحدة حيث التحدي الكبير. أنواع ساندويتشات سريعة تظهر في اليونان وتنتشر سريعاً في البلقان. كما أن الطعام السريع التايلندي والياباني ظاهرة جديدة أيضاً تؤسس لأبعاد إقليمية. وفي المنطقة العربية نجحت بعض مطاعم السعودية في التوسع إقليمياً بعد نجاحها وانتشارها محلياً، الأمر نفسه ينطبق على مطاعم مصرية. وهناك أمثلة عن نجاحات سلسلة محلية في أوروبا الشرقية كأوكرانيا. واليوم تقف صناعة الطعام السريع أمام سجال ساخن يدخل في صميمه التنويع والتغذية والعودة إلى الموروث المحلي.

لقد نشأت هذه الصناعة بالاعتماد على فعل ابتكاري لبعض الأطعمة، وكرست في إطار تصنيعها المتسارع التجانس في الإنتاج. وقبل أن تتعرض لامتحان البدانة اليوم، واجهتها في العالم الأقل تطوراً المأكولات السريعة الموروثة من دون أن تفقد سوقها على الأقل في عالمنا العربي، مثل الشاورما والفلافل والحمص والفول والأشكال المتنوعة من الساندويتشات.

المستقبل يطرح أمام هذا السجال خيارات أخرى على حساب الهيمنة، تترك مجالاً للمصالح الصغيرة للتحرك في اتجاه تحسين إنتاجها كماً، ولمحاولات تطوير الموروث المحلي لملاءمة العصر. ولكن المسألة لاتعني إمكانية النوم على حرير الأمل، بل تتطلب جهداً للتحسن أمام مايطرح من احتمالات.

السلاسل العالمية الكبرى بدأت تجد منافسين، والاتجاه العام هو إلى تحسين النوعية واحترام الخصوصيات المحلية


المحترف السعودي



المتاعب الصحية للسفر جواً

قلة هم الذين يعانون متاعب صحية بسبب سفرهم بالطائرة في رحلات قصيرة. أما إذا كانت الرحلة متوسطة أو طويلة، فإن احتمال مواجهة بعض المتاعب يزداد بعض الشيء. ويصبح التنبه للأمر مهماً جداً بالنسبة إلى الذين يعانون أصلاً من مشكلات صحية. الدكتور طارق إبراهيم أبو نهية* يحدثنا عن أكثر المشكلات والمحاولات شيوعاً بين المسافرين، ويسدي بعض النصائح المهمة.

* اختصاصي طب العائلة بأرامكو السعودية

اضطراب النوم

يؤدي السفر عبر نطاقات زمنية سواء أكان ذلك باتجاه الشرق أم الغرب إلى اختلال الساعة البيولوجية للإنسان، الأمر الذي يتسبب باضرابات في النوم ومواعيده. وأبرزها: الأرق، آلام في الجسم، تعكر المزاج، نقص في الشهية، واضطرابات في الجهاز الهضمي. ومن النصائح والحلول للتغلب على هذه المشكلة:

1. النوم لفترة كافية قبل السفر.
2. محاولة تغيير وقت النوم والاستيقاظ قبل أيام السفر ليوافق توقيت البلاد المسافر إليها.
3. شرب كمية كافية من السوائل والأكل المعتدل قبل السفر وأثنائه.
4. تجنب المنبهات قدر المستطاع أثناء السفر. استشارة الطبيب عن إمكانية استخدام أدوية النوم أو دواء "الميلاتونين" لفترة قصيرة أثناء أو بعد السفر. (الميلاتونين عقار مسموح بيعه في الصيدليات، يساعد على تنظيم الإيقاع اليومي للجسم وتهيئته للنوم. يؤخذ كل ليلة 3 ليال قبل السفر و4 بعد السفر. لكن الآثار الجانبية طويلة المدى للعقار غير معروفة).

دوار السفر أثناء الطيران

يصاب بعض الناس بدوار السفر أثناء الطيران بسبب حركة الطائرة، مما ينتج عنه الإحساس بالتعب والغثيان ثم القيء. وللتقليل من حدوثه:

1. الجلوس على الكرسي القريب من النافذة.
2. الامتناع عن التدخين تماماً.
3. تجنب أكل الأطعمة ذات النكهة الحارة.
4. استخدام أدوية ضد الهستامين (الذي يزيد إفرازه أثناء الحركة مما يسبب دوار السفر) مثل دراماماين. قد يحتاج البعض إلى لصقات قبل ساعات من السفر.
5. وتوضع هذه اللصقات لمدة 72 ساعة (بعد استشارة الطبيب). ومن أهمها لصقات (Scopolamine).

التغلب على آلام الأذن قبل السفر


PBase

من المعروف أن أنبوبة "استاشين" تربط الأذن الوسطى بنهاية الحلق بطول يبلغ 1.5 بوصة، ووظيفتها الأساسية معادلة الضغط الخارجي مع وسط الأذن. عادة، تكون هذه الأنبوبة مغلقة، ولكنها تكون مفتوحة أثناء البلع والمضغ والتثاؤب حتى يدخل الهواء للأذن الوسطى، ويتعادل الضغط داخل وخارج غشاء الطبلة.

أثناء الطيران، يحدث اختلاف كبير بين الضغط الخارجي وضغط الأذن الوسطى، مما يؤدي إلى شد غشاء الطبلة، وهذا ما يسبب الألم الذي نشعر به عادة أثناء الطيران. وتزداد المشكلة عندما يكون الشخص المسافر مصاباً بالتهاب في الأذن، أو عند وجود سوائل خلف الأذن الوسطى، أو التهاب حاد أو مزمن في الجيوب الأنفية، أو حساسية الأنف المزمنة. وللتغلب على هذه المشكلة يمكن القيام بما يأتي:

1. مضغ العلكة أو تكرار محاولة البلع.
2. التثاؤب.
3. فتح الفم بشكل واسع.
4. إغلاق أرنبة الأنف بإصبعي الإبهام والسبابة والزفير بسهولة من الأنف ضد الفم المغلق.
5. استخدام سدادة الأذن للمساعدة على توازن الضغط داخل الأذن.
6. عدم السفر في حالة التهابات الأذان الحادة أو اللوزتين، لأن الأمر قد يؤدي إلى فتح ثقب ومن ثم نزيف من طبلة الأذن.
7. استشارة الطبيب في إمكانية أخذ أدوية تقلل من احتقان الأذن قبل السفر.

تجلط القدمين والوقاية منه

الجلوس لفترة طويلة أثناء الطيران يقلّل من وصول الدم إلى القدمين، وهو ما يزيد احتمال حصول جلطات الساقين والقدمين. وتزداد احتمالات حدوثها عندما يكون الشخص مصاباً بالسرطان، أمراض القلب، أو إذا كان قد خضع لعملية جراحية قريبة، وكذلك تزداد هذه الاحتمالات عند المدخنين، الحوامل، الأفراد الذين يعانون من السمنة أو النساء اللواتي يستخدمن حبوب منع الحمل. أما علامات التجلط فهي: آلام وانتفاخات في الساقين، زرقة الساقين، أو احمرار وارتفاع الحرارة فيهما. وللمساعدة على منع هذه المشكلة يمكن اتباع الخطوات الآتية:

1. إجراء تمارين وتحريك القدمين والساقين لمدة خمس دقائق كل ساعة وذلك لتنشيط الدورة الدموية في الأطراف السفلية.
2. ثني القدمين إلى الأعلى والأسفل (مثل تحريك القدمين على دعّاسة البنزين أثناء قيادة السيارة). وينصح بعمل هذا التمرين مرات عديدة كل ساعة أو ساعتين.
3. الضغط على أرضية الطائرة بمشط وكعب الرجل بالتناوب لدقائق كل ساعة أو ساعتين.
4. عدم الجلوس في وضع ثابت ساعات طويلة، وتجنب وضع إحدى الساقين فوق الأخرى.
5. تجنُب ارتداء الملابس الضيقة، وانتعال الأحذية المريحة.
6. شرب الماء بكميات كبيرة لمنع الجفاف ولتنشيط الدورة الدموية.
7. استشارة الطبيب في لبس الجوارب الخاصة بمنع الجلطات التي تزيد من وصول الدم للقدمين.
8. قد يضطر بعض المسافرين لاستخدام الأسبرين حتى يزيد من سيولة الدم ويمنع الجلطات، بعد استشارة الطبيب.


المحترف السعودي

إضافة إلى ما تقدم، هناك حالات معينة تستدعي اهتماماً خاصاً:

الحوامل

يُنصح بعدم السفر في آخر شهر من الحمل إلا في وجود شهادة طبية للحاجة، وعادة يمنع السفر نهائياً الأسبوع الذي يسبق الموعد المتوقع للولادة. كما يجب على الحامل أن تتناول كميات كبيرة من الفاكهة والماء قبل الرحلة وأثنائها. ومتابعة النصائح السابقة لمنع الإصابة بالجلطات.

المصابون بمرض السكري

- حمل جميع الأدوية، خاصة الأنسولين في الطائرة.
- حمل بطاقة توضح أن الشخص مصاب بالسكري.
- الحرص على أكل وجبات خفيفة خالية من السكر بين الوجبات الرئيسة، لمنع هبوط السكر بالنسبة إلى المرضى المعتمدين على الأنسولين.

مشاكل القلب

- يحتاج المصاب حديثاً بالجلطة إلى ثلاثة أسابيع كفترة نقاهة حتى يسافر بأمان.
- لا توجد أية مشكلة للسفر بالطائرة بعد عمليات القسطرة البسيطة.
- ينصح بفترة أسبوعين قبل السفر بعد عملية ترقيع الشرايين.

الصرع

- المطلوب حمل بطاقة يذكر فيها اسم المريض.
- التأكد من مستوى نسبة الدواء قبل السفر.
- استشارة الطبيب حول ما إذا كان هناك حاجة لتغيير موعد أو جرعة الدواء.

أمراض الربو

بسبب قلة الأكسجين في الطائرة وزحام الركاب تزداد احتمالات نزلات الربو. لذلك يجب حمل أدوية توسيع الشعب الهوائية للمساعدة عند وجود ضيق في النفس.

صورة شخصية

**تُلخص سيرته مسارات الكثير من المثقفين العرب الذين تضطرهم الحياة إلى التقلب مابين اهتمامات مختلفة، من دون أن يغيب عنهم الهم أو الاهتمام الثقافي الأساس.
إنه جبير المليحان الذي عمل في حقول شتى وبقي كما كان قاصاً ومهتماً بالقصة.**

جبير المليحان.. قصة أكبر موقع للقصة العربية



في مطعم شعبيّ بمدينة الرياض؛ اجتمع خمسة من الشبان المهتمين بالقصة القصيرة.. راحوا يتحدثون فيما يعرفون وما لا يعرفون.. يستعرضون الأفكار ويواجهونها بالإمكانيات.. يرسمون الأحلام ويضعونها أمام الواقع. كان همّهم المشترك يحوم حول هذا الفن الحديث.. أقصى ما يتوقون إليه هو تكوين جماعة أدبية يرتبط بها كل المشتغلين بالقصة في السعودية..! ثمّ.. مضى كلٌّ منهم إلى سبيله..!

أحد المجتمعين هو وزير الحج، حالياً، معالي الدكتور إياد مدني، والبقية هم: عبدالعزيز مشري -رحمه الله- وجار الله الحميد، وحسين علي حسين.. وجبير المليحان. أما زمن الاجتماع فكان في عام مبكر من عقد السبعينيات من القرن الماضي، حين كان المليحان طالباً في كلية المعلمين. والقصة القصيرة، هوايته المفضلة، هي التي قادته إلى الالتقاء بهؤلاء القاصين الهواة. ثم قادته، لاحقاً، إلى كتابة قصة حياة مليئة بالتغيرات المتلاحقة والمفاجئة، أحياناً، والطريفة.. أحياناً أخرى..!

خليط.. حميم..!

فلاّح، قاص، كاتب، تشكيلي، معلم، صحافي، مدير كسّارة(!!)، موظف ميناء، مصرفي.. هذا هو الخليط الذي تتكون منه قصة جبير المليحان.. ويبدو أنه نسي شيئاً حين تحدث هذا الكهل الحائليّ عن القصة والقاصين، وانشغاله اليومي ببيته الحميم.. موقع "القصة العربية"..!

والفكرة التي تبخّرت بانفراط ذلك الاجتماع، بقيت في "رأس" جبير الذي انتقل إلى الدمّام ليعمل معلماً في تلك المدينة التي لم تزل، آنذاك، ململمة في أحياء محدودة، ومحاصرة بالرمال، ومشغولة بالتوسع في كل الاتجاهات..! آنذاك، كان الشاعر محمد العلي مديراً للاختبارات في إدارة التعليم بالمنطقة الشرقية، وفي الوقت نفسه مديراً لتحرير صحيفة "اليوم". لقد كان زمن "المربد" الذي حمل لواءً ثقافياً لا تزال آثاره حتى اليوم. وحين التقى المعلم ومدير الاختبارات وجد الأخير في الأول "كفاءة قصصية رائعة، وذهنية تخطيطية محركة.."، وهذه شهادة العلي فيه..!

هذه السمات أغرت العلي بجر الشاب القادم من قرية شمالية نائية اسمها "قصر العشروات" إلى صحيفة "اليوم".. وفيها نشر قصته التي سبق تقديمها في الإذاعة السعودية أواخر الستينات "هوى الشباب"، ومن الشأن الثقافي إلى الشؤون المحلية اليومية، الأخبار، التقارير، المقالات.. يقول المليحان: "كانت الصحيفة تعتمد على مصدرين: وكالة "رويترز" والمراسلين، ولكن عمل المراسلين كان يعتمد أكثر على المذياع"..!

وسرعان ما سرقت الصحافة المليحان من التعليم. ربما لم يكن ممكناً الجمع بين وظيفتين، ولكن هذا الاختيار كلّفه خسارة فادحة في مصدر رزقه، فيما بعد. يقول المليحان: "كان الأستاذ العلي مُجازاً، وقد حللتُ محله رئيساً للتحرير بالإنابة، وخلال مدة الإجازة القصيرة وجدتُ نفسي خارج الصحيفة، وبلا عمل"..!

وفقد الوظيفة ليس أمراً هيّناً لشاب في مقتبل العمر.. إلا أن دبلوم إعداد المعلمين، في أواخر السبعينيات الميلادية، من شأنه أن يصنع الكثير. والكثير الذي حصل عليه المليحان، في ذلك الوقت، هو منصب "مدير" لـ "كسّارة" في الظهران.. ولكن الكسّارة لم تكن نهاية المطاف، إنها حلقة من سلسلة تلاحقت حلقاتها من وظيفة إلى أخرى، ومن همّ إلى هم. وحين عاد إلى التعليم عام 1987م (1407هـ)؛ وجد نفسه غير مستعد لأية مغامرة تمس مصدر الرزق. لقد تزوج وأنجب.. أصبح مسؤولاً بما يكفي لضمان الهدوء..!

القصة للكبار.. والصغار..!

وفي كل هذا الترحال؛ كانت القصة رفيقته.. بثّ بعضها في صفحات الصحف كلما سنحت فرصة، واحتفظ ببعضها في أدراجه.. وأثناء ترحله اكتشف موهبة "فرعية" لديه.. في كتابة قصص الأطفال التي وجدها "أكثر صعوبة من القصة القصيرة الموجهة للكبار". يقول: "في الكتابة للأطفال تتزاحم العديد من القيم والمحاذير التربوية، والضرورات التعليمية.. إنك تخاطب عقولاً غضة، طرية، فتفقد انفعالك وتحرص على أن تكون محرضاً على التفكير، وصانعاً للمتعة العفوية لدى القاريء الطفل. في حين تتملكك القيم الإبداعية في القصة القصيرة الموجهة للكبار، فتصنع حريتك من لغتك وتطلق الصورة لتعبر عن أفكارك وعواطفك"..!

وجد جبير المليحان نفسه في أدب القصة منذ أن كان طالباً في المرحلة الإعدادية، ويبدو أنه الاهتمام الأكثر استمراراً في حياته. واعتماداً على ما لديه من تحفظ إزاء النشر؛ فإنه لم ينشر شيئاً بين غلافين، باستثناء مجموعة للأطفال طبعتها أرامكو السعودية. وهو يقول: "حين تطبع في مؤسسة ثقافية رسمية فإن مصير ما تطبعه هو مستودعات النادي الأدبي أو جمعية الثقافة. أما دور النشر فإنها لا تنشر إلا بمقابل مادي. وهو أمر مؤلم؛ إذ تجد نفسك "تدفع" لـ "تنشر"..!

مساحة.. للانفتاح..!

بعد دخول الإنترنت المملكة؛ اتجه تفكير جبير المليحان إلى هذه الشبكة اللافتة.. ففيها مساحة شاسعة من الحرية لا يُقاس بها الهامش المتاح في الصحافة الورقية.. فكانت البداية تأسيس موقع شخصي. ولكن الموقع الآن لم يعد شخصياً، إنه ملتقى المعنيين بالقصة في العالم العربي. هناك أكثر من 250 قاصاً وناقداً ومتابعاً للفن السردي يرفدون الموقع بإبداعاتهم ورؤاهم النقدية، وأكثر من 640 كاتباً، يُضاف إلى ذلك قرابة ستة آلاف نص قصصي، و4500 رأي، وأكثر من مليون ونصف مليون زيارة..! وقد لا تكون هذه الأرقام ذات بال في منتدى إلكتروني اليوم. إلا أنها تمثل مصداقية قليلاً ما تؤمنها منتديات الإنترنت.. فالمشاركون والأعضاء أسماء حقيقية، ولا مكان في الموقع ومنتداه للأسماء الوهمية.. ولا الأشباح.

كلمة "معروفين" يضعها المليحان على طاولة الشرح.. يقول: "لا تهمنا الأسماء المشهورة كثيراً.. نحن نشرع الأبواب للتشارك والتحاور، ولدينا الضوابط.. لكنها ضوابط فنية. كل فن قصصي جميل يجد مكانه في الموقع، أو المنتدى. وفي السابق كنا نحدّث الموقع مرة كل عشرين يوماً، أما الآن فإن التحديث يوميّ. ويومياً نتلقى آحاد النصوص التي تطلب النشر، وما نفعله هو التعاطي مع هذه الإبداعات بحب، وأيضاً بحذر"..!

لماذا الحذر..؟

كان هذا سؤالنا، فكانت الإجابة: "نحن موقع ثقافي صرف، موقع للقصة العربية. نتحاشى النصوص العامية، نستبعد النصوص المؤدلجة، ودون ذلك فإن المعيارية فنية، ومنفتحة على الاختلافات".



السينما التاريخية: معركة غير متكافئة بين الماضي والحاضر

من بين مواضيعها المفضلة، وهي عادة كثيرة وتشمل تقريباً كل شيء، يحلو للسينما أن تعود ما بين الحين والآخر إلى نوع من الأفلام يعرف، في أغلب الأحيان، كيف يستقطب جمهوراً واسعاً، خاصة وأن استعراضية الشاشة السينمائية والضخامة المطلوبة لمثل هذا النوع، تجعل السينما من دون منافس فيه تقريباً، حتى وإن زعمت الشاشة الصغيرة (التلفزة) القدرة على خوض النوع نفسه. وهذا النوع هو السينما التاريخية، التي يحدثنا عنها الزميل إبراهيم العريس.

تتشكَّل السينما التاريخية من مجموعة الشرائط التي تعيد إلى الشاشة الكبيرة أحداثاً وقعت في الماضي، القريب أو البعيد، سواء استخدمت في ذلك مجموعات من الشرائط الوثائقية التي سجلت الحدث بالفعل، في القرن العشرين وحده طالما أن السينما لم تكن اخترعت قبل ذلك، أو بنت ديكورات وأتت بممثلين أوقفتهم أمام الكاميرا ليلعبوا أدوار شخصيات تاريخية.

وهذه السينما التاريخية، على تفاوت جودة أفلامها، كان لها دائماً جمهور عريض، جعل هذا النوع يعيش أكثر من غيره. كما جعل المنتجين والمخرجين يضيفون دائماً شرائط جديدة عن أحداث كان سبق لها أن قدمت على الشاشات مراراً، وعن شخصيات اهتمّت بها السينما منذ بداياتها. وحسبنا أن نذكر أن العام الماضي وحده شهد عرض شرائط عديدة تتصدى للتاريخ: من تاريخ "طروادة" إلى سيرة "الإسكندر" إلى حكاية "الملك آرثر" إلى الحروب الصليبية (في فيلم يصوره ردلي سكوت حالياً)، حتى ندرك كم أن هذا النوع يلقى القبول، بل الإقبال ... فهل ننطلق من هذا لنتساءل عما يجعل الجمهور العريض مهتماً كل هذا الاهتمام بمعرفة "ما حدث في التاريخ" عن طريق السينما؟

دوافع المتفرجين

من الصعب، طبعاً، إدراك كل الأسباب التي تشد المتفرج إلى صالة السينما بمشاهدة فيلم تاريخي. فهناك من الدوافع هنا ما قد يوازي عدداً، عدد أفراد الجمهور المتفرج. ولكن بشكل عام يمكن اختصار بعض الدوافع الرئيسة في ثلاثة: الفضول، الرغبة في الهرب من الحاضر، واستخلاص دروس التاريخ التي يمكن أن يحملها الفيلم في طياته.

والحقيقة أن بحوث علم اجتماع السينما، تصدّت كثيراً وفي كتب عديدة لدراسة كل دافع من هذه الدوافع، من دون أن يغرب عن بالها في الوقت نفسه، واقع جمالي بحت، طالما أن الفيلم التاريخي، ومهما كان شأنه وموضوعه، يكون عادة استعراضياً، حافلاً بالألوان والأحداث والشخصيات، عابقاً بالأزياء والاكسسوارات، بحيث يمكن لكل مشهد أن يساوي ألف لوحة تشكيلية.

وهذا البعد الجمالي، أدركته السينما منذ بداياتها ... وقبل أعوام من بداياتها، إذ يذكر لنا تاريخ السينما أن توماس أديسون، المخترع الأمريكي، قام في العام 1894م، أي قبل عامين من الولادة الرسمية لفن السينما على يد الأخوين الفرنسيين لوميار، بتحقيق فيلم رسوم متحركة حول إعدام "ماري ستيوارت، ملكة أسكوتلندا" وعرضه بواسطة آلة سحرية كان اخترعها قبل ذلك. وللإنصاف التاريخي لا بد من القول أن شريط أديسون هذا هو الرحم الشرعي الذي منه ولدت السينما التاريخية ككل.

فمنذ ذلك الحين، وبدءاً من الأخوين لوميار ومواطنهما جورج ميلياس، وصولاً إلى مخرجنا العربي يوسف شاهين وتلميذه يسري نصر الله - الذي عرض في مهرجان "كان" فيلماً طويلاً عن تاريخ المأساة الفلسطينية عنوانه "باب الشمس" -، لم يتوقف فن السينما عن سبر أغوار التاريخ، سواء أكان تاريخ الأمم والأحداث الكبرى، أو تاريخ الأفراد الكبار أو

العاديين... وصولاً إلى تاريخ الذات عبر أفلام تحمل من السيرة الذاتية لأصحابها ما تحمل. وكل هذا يفتح الباب مشرعاً على سؤال إضافي لا بد من طرحه دائماً: هل يمكن اعتماد كل هذه الشرائط كوثائق يكتب تاريخ ما على أساسها؟

نابوليون في الفخ

يفتح هذا السؤال سجالاً طويلاً لم يتوقف الباحثون عن خوضه ... ولكن ثمة ما يشبه الإجماع على استحالة أن تقدم هذه الأفلام – في معظمها على الأقل – إمكانية للاعتماد عليها... طالما أن الكاميرا التي تصور الأحداث – سواء أكانت تسجيلية وقعت حقاً، أو أحداثاً مُمثَّلة – لا يمكنها أن تكون محايدة. بل حتى حين يصور مشهد ما كما كان التاريخ قد وثّقه كتابة، فإن السينما – كما سائر الفنون – يمكنها أن تمارس في لحظة ما، تدخلاً من المستحيل عليه أن يكون بريئاً. وللدلالة على هذا، لنتأمل المشهد التالي:

في فيلم "وداعاً يا بونابرت" الذي حققه يوسف شاهين في العام 1994م، ثمة مشهد كبير مستقى في جوهره من التاريخ الموثق، وهو مشهد بونابرت يخطب في قواته أمام الأهرامات قائلاً لها: "إن أربعين قرناً من التاريخ تتأملنا من أعلى هذه الأهرامات" ... حتى هنا تبدو اللقطة محايدة وأمينة للواقع والتاريخ. لكن الذي يحدث في الفيلم بعد ذلك، هو أن الصورة تنتقل إلى العالم الفرنسي كافاريللي، المتنور الذي يرافق بونابرت في حملته، وسنجده طوال الفيلم ذا نزعة علمية معارضة لنزعة قائده العسكرية الاحتلالية. وكافاريللي إذ يسمع عبارة بونابرت، يدمدم أمام الكاميرا، أي أمامنا نحن الجمهور قائلاً: "ها هو الأحمق يقع في الفخ". ليس ثمة في الحقيقة توثيق تاريخي يؤكد لنا أن كافاريللي قال هذه العبارة. لكن شاهين يموضعها هنا؛ مما يجعل فيلمه ينتقل من حيز التاريخ إلى حيز الأيديولوجيا أو في عبارة أكثر بساطة حيز التاريخ النقدي.

والحقيقة أن مؤرخي السينما، وغيرهم من المؤرخين الاكاديميين الذين اهتموا دائماً بالكيفية التي قدمت بها السينما التاريخ، قسموا تعامل الفن السابع مع التاريخ إلى ثلاثة أقسام:

- التاريخ الجمالي
- التاريخ البراغماتي
- والتاريخ النقدي

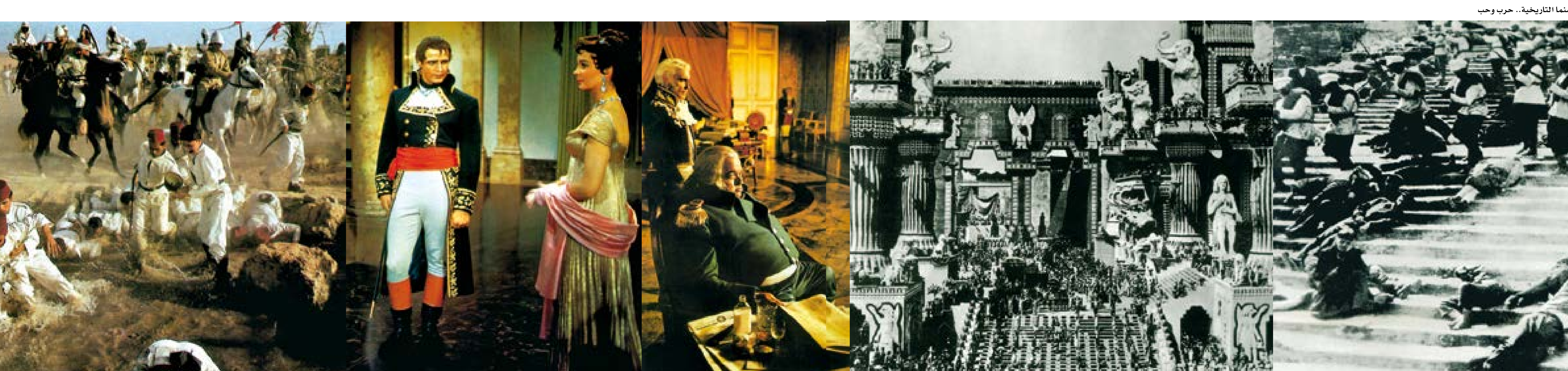
وطبعاً، ليس هنا مجال التشعب الأكاديمي في بحث مثل هذه التقسيمات، ولكن يمكن أن نقول باختصار، إن ألوف الأفلام التي حققتها كل سينمات العالم، أمريكية كانت أو أوروبية أو عربية أو غيرها، لتتناول فيها كل أحداث التاريخ وشخصياته، حملت دائماً واحداً من هذه الأبعاد الثلاثة، إن لم تحملها معاً، في أفلام كبيرة، صارت بدورها جزءاً من التاريخ، تماماً كما هي جزء من تاريخ السينما.

مشاهدة الفيلم التاريخي.. فضول وهروب واستخلاص دروس ... واستمتاع بمشاهد استعراضية غنيّة بالصور.

أشرنا أعلاه إلى أن الإنتاج السينمائي في العالم أجمع لم يتوقف عن تقديم التاريخ من خلال السينما منذ أول أيامه. غير أن التاريخ النقدي (أو الأيديولوجي) لم يظهر إلا في وقت متأخر نسبياً، وبالتحديد مع ولادة فن التوليف الفكري الحقيقي مع المخرج الروسي سرغاي أيزنشتاين. إذ قبل تلك الولادة كان من المتعارف عليه أن الصورة يمكن أن تكون أقرب إلى الحياد، طالما أنها في حد ذاتها، ومهما كانت وجهة النظر، تظل صماء حتى تعطي دلالة ما ... ولقد كان إعطاء هذه الدلالة المهمة الرئيسة لفن التوليف، أي فن ربط صورتين أو أكثر وراء بعضها البعض. ولسوف يكون فيلم "الدارعة بوتمكين" (1925م) لأيزنشتاين واحداً من أول وأعظم الأفلام التي أعطت الصورة معناها هذا. غير أن الأمريكي د. و. غريفيث كان قد سبقه إلى التاريخ .. ولكن في بعده البراغماتي حين حقق "مولد أمة" ومن قبله فيلم "تعصب" أواسط العقد الثاني من القرن العشرين، متبعاً في هذا خطى الإيطالي باسترونى الذي حقق منذ العام 1914م واحداً من أول الأفلام الضخمة في تاريخ السينما "كابيريا".. والواقع أن هذه الأفلام تحمل معاً، مجتمعة أو متفرقة، كل الأبعاد الجمالية والبراغماتيكية والنقدية التي أشرنا إليها. فـ "كابيريا" اعتمد ضخامة الاستعراض والأساليب الجمالية الجاذبة للمتفرجين، أما غريفيث، فإنه تبدى براغماتياً، أي مقدماً للتاريخ كما تتصوره العقلية الأمريكية المبكرة: تاريخاً وصفياً ظواهرياً يحمل دلالته عبر التوافق المسبق على رؤية التاريخ بين المخرج ومتفرجيه، أما أيزنشتاين فإنه حوّل التاريخ إلى درس سياسي يخدم أفكاره السياسية في ذلك الحين.

كل التاريخ في شرائط

ومن الصعب علينا أن نقول اليوم إن السينما قد تمكنت بعد ذلك، وفي آلاف أفلامها التاريخية، من مباركة تلك الأبعاد الثلاثة.



ونحن حين نتحدث هنا عن آلاف الأفلام فإننا نعني ما نقول. إذ على خارطة الإنتاج السينمائي العالمي طوال قرن وأكثر، ومن هوليوود إلى موسكو وبرلين، ومن بومباي إلى القاهرة وروما وباريس ولندن والمكسيك وغيرها، عرفت السينما كيف تقول أحداث التاريخ كلها ومرات لامتناهية بالنسبة إلى كل حدث. فمن فيلم "حروب النار" إلى كل ذلك الرهط من الأفلام عن الإمبراطورية الرومانية وشعوب سهوب آسيا والحروب الصليبية وثورة كرومويل وعصر النهضة وأيام الفراعنة والحروب الدينية ثم القومية ثم الأهلية ثم العالمية، وصولاً إلى تدخلات نهاية القرن العشرين العسكرية، فغزوات نابوليون والثورات الفرنسية والروسية، عرفت السينما كيف "تؤرخ" للبشرية وكيف تضع متفرجيها على تماس مباشر مع كل حدث سمع به الإنسان تقريباً.

وفي هذه الإطارات كلها كان للسينما التاريخية أبطالها المفضلون، من هرقل إلى نابوليون، ومن جان دارك إلى توماس بيكيت، ومن نيرون إلى سبارتاكوس، وصولاً إلى هتلر وستالين وإبراهام لنكولن ولينين ولم لا تضيف: مدام دي بومبادور وليوناردو دانشي وفان غوغ وسقراط وتشارلز لندبرغ؟

وعاء لتاريخ البشرية

توهل في إمكاننا أن نقول انطلاقاً من هذا إن السينما تكاد تكون اليوم "الوعاء" الأكثر حضوراً في احتوائه تاريخ البشرية؟

حسناً قد يذكرنا قارئ هنا بما قلناه أعلاه، بأنه من الصعب، بل من المستحيل، اعتماد السينما كوسيط صادق ونزيه في رواية التاريخ. هذا صحيح ... ولكن هل حقاً كان في إمكاننا أن نعتبر كتب التاريخ نفسها، السلف الحقيقي للسينما التاريخي، كمصدر صادق ونهائي لرواية التاريخ؟

كان الكاتب الفرنسي غوستاف لوبون يقول: "لو كانت الحجارة تنطق لبدا التاريخ كله كذبة كبرى ..." وهذا القول ينطبق على التاريخ مكتوباً تماماً كما ينطبق عليه مرسوماً (في لوحات كبار الفنانين) واليوم ينطبق عليه حضوراً، في أروع الأفلام وأكثرها صدقاً.

فما الذي يمكننا أن نقوله هنا؟

بكل بساطة، إن ثمة صدقاً تاريخياً في هذا كله، ولكن ليس في المكان الذي يمكن توقعه... ولعل الحكاية التالية تصلح مدخلاً لتوضيح الأمر.

"خلال النصف الثاني من عشرينيات القرن العشرين، كانت السلطات السوفياتية كلفت المخرج سرغاي أيزنشتاين، نفسه، بتحقيق فيلم للأطفال بمناسبة ذكرى ثورة أكتوبر البلشفية. في البداية، رغب أيزنشتاين في أن يستخدم في الفيلم مشاهد توثيقية كانت صورت هجوم الثوار على قصر الشتاء في بطرسبرغ، وهو الهجوم الذي كان نجاحه الانتصار الحاسم للبولشفيين. لكن السلطات رفضت إعطاءه الشرائط التوثيقية، فما كان منه إلا أن أتى بآلاف الكومبارس، و"أعاد" تصوير مشهد هجوم "العمال والفلاحين" على القصر. وأنجز الفيلم وحقق نجاحاً كبيراً واعتبر تحفة من تحف السينما التاريخية. ولكن ظل هناك باحثون ومؤرخون حيّرهم موقف السلطات: لماذا رفضت استخدام المشاهد الحقيقية مفضلة دفع تكاليف باهظة مقابل إعادة تصويرها وتمثيلها؟ فما الذي حملته تلك المشاهد؟

> السينما التاريخية قديمة .. أما الهادفة والنقدية منها لم تظهر إلا مؤخراً مع الروسي أيزنشتاين!

هو الهجوم نفسه، ولكن تبين للمدققين لاحقاً أن المهاجمين كانوا يرتدون أزياءً عسكرية موحّدة. إذاً؟ إذاً لم تكن المسألة في حقيقتها مسألة هجوم عمال وفلاحين، بل جنود منظمين، ما يشير بوضوح إلى أن المسألة كانت مسألة انقلاب عسكري، لا مسألة ثورة شعبية ...

لقد فطنت السلطات إلى خطورة "انكشاف" تلك الحقيقة، فأخفت الشرائط وتلاعبت في الواقع التاريخي. وهذا التلاعب سيظل، وهو لا يزال حتى الآن، سمة من السمات الرئيسة لـ "فن التأريخ" عن طريق السينما. ومع هذا نصر هنا على أن كل هذه الشرائط على ما فيها من تلاعب تبقى صادقة ومعبّرة، ولكن ليس عن الواقع التاريخي الذي ترويه، بل عن واقع الرواة أنفسهم، أي صانعي الفيلم ... وفي زمن صنعهم للفيلم. لا في الزمن الذي يروي الفيلم أحداثه.

أفلم يُقل دائماً إن التاريخ يكتبه المنتصرون، أو أصحاب المصلحة في كتابته، كما يلائم مصلحتهم؟ حسناً ... إن آلاف الأفلام السينمائية التاريخية التي أنتجت منذ العام 1894م وحتى العام 2004م، لا تقول أبداً أي شيء آخر. إنها تقول تاريخها الخاص، تاريخ صانعيها. ويقيناً أن يوسف شاهين حين يجعل العالم كافاريللي يعلق على ذلك النحو على عبارة نابوليون "الخالدة" إنما يعبر عن نفسه، عن يوسف شاهين نفسه، وعن رأيه في نابوليون وفي حملة نابوليون على مصر، وفي هذا كله "غش" لذيذ ما بعده من غش: إن المسكين بونابرت، حين قال عبارته، كان واثقاً من أنه يقول كلمة الفصل، الحقيقة والغاية، دون أن يعرف ما يخبئه له التاريخ المقبل. أما شاهين فإنه حين علق ساخراً، على لسان أناه – الآخر في الفيلم كافاريللي، كان يعرف ما الذي سيحدث خلال الزمن اللاحق، وكان يعرف أن الجمهور سوف يضحك معه على بونابرت إذ وقع في الفخ.

أفلا نرى في نهاية الأمر، أنها مباراة بين شاهين ونابوليون، وأن هذه المباراة غير متكافئة على الإطلاق؟



المباراة بين شاهين ونابليون

كان إيليا أبو ماضي عضواً في الرابطة القلمية بنيويورك في العشرينيات من القرن الماضي، إلى جانب جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، ونسيب عريضة والآخرين. وقد أخذ عليه أدباء عصره ومنهم طه حسين، شيوع الركاكة في شعره، وعدم اهتمام الشاعر بأساليب البلاغة والبيان. الناقد جهاد فاضل يختار هنا عينات من شعر "أبو ماضي"، مبيناً من خلالها امتلاكه لشاعرية متوقدة.



لا تحسبنَّ الشِّعْرَ ألفاظاً ووزناً

عندما أخذ الدكتور طه حسين على شعر إيليا أبو ماضي ركاكته وقلة احتفاله بالشكل الشعري، كان من جملة ما ردّ به الشاعر المهجري قوله: "إنك تدور حول البيت:

لستَ مني أن حسبتَ
الشعر ألفاظاً ووزنا"

والواقع أن شعر إيليا أبو ماضي، وإن لم يكن متيناً كشعر البارودي وشوقي وحافظ ومطران، وقد عاش في عصر هؤلاء، إلا أنه شعر جميل وجد صدى واسعاً في زمانه، وعَبَرَ من ذاك الزمان إلى أزمنة أخرى. وليس هناك ما يدل على أن هذا الشعر - في قسم كبير منه - سيمرّ عليه الزمن وسيطاله البلى، بدليل أن الدراسات عن أبي ماضي وشعره يتوالى صدورها ما بين وقت وآخر، في كل العواصم العربية التي تحتفل بشعره أيما احتفال. فأبو ماضي رغم رحيله قبل نصف قرن تقريباً (توفي عام 1957م) إلا أنه ما زال لشعره مكانة كبيرة في الشعر العربي المعاصر، وما زال ينطلق بعضه عفواً على ألسنة الناس معبراً عن هذه الفكرة، أو عن هذه الحالة النفسية. وهذا من علامات عافية الشعر والشاعر.

عُرف أبو ماضي بقصائده التأملية والفلسفية. وقد قرّبته هذه القصائد من القارئ ولم تُبعده عنه، وذلك على عكس ما يحصل عادة في شعر التأمل والفلسفة.

كما عُرف بفلسفته الداعية إلى التفاؤل. في قصيدته المشهورة "ابتسم" يدعو إلى الابتسامة والفرح، لأن كل ما في الحياة زائل:

قال البشاشة ليس تُسعد كائناً
يأتي إلى الدنيا ويذهبُ مرغماً
قلت: ابتسمْ ما دام بينك والردى
شبرٌ، فإنك بعد لن تتبسما

وتشيع الدعوة إلى الغبطة والفرح في أعمال شعرية كثيرة له منها قصيدته "الغبطة فكرة" المنشورة في ديوانه (الخمائل):

أيها الشاكي الليالي إنما الغبطة فكره
ربما استوطنت الكوخ وما في الكوخ كسره
وخلت منها القصور العاليات المشمخرّه
تلمس الغصن المعرّى فإذا في الغصن نضره
وإذا رفّت على القفر استوى ماءً وخضره
وإذا مسّت حصاة صقلتها فهي درّه
لك، ما دامت لك، الأرض وما فوق المجره
فاذا ضيعتها فالكون لا يعدل ذره.

وفي قصيدته "فلسفة الحياة" (من ديوان أبو ماضي) يوجه الشاعر كلامه إلى كل متذمر من متاعب الحياة:

أيُّهذا الشاكي وما بك داءٌ
كيف تغدو إذا غدوت عليلا؟
إن شرّ الجناةِ في الأرض نفسٌ
تتوقى، قبل الرحيل، الرحيلا
وترى الشوك في الورود، وتَعمى
أن ترى فوقها الندى إكليلا
هو عبءٌ على الحياة ثقيل
من يظن الحياة عِبئاً ثقيلا!

ومن هذه القصيدة:

أحكم الناس في الحياة أناس
عللوها فأحسنوا التعليلا
فتمتّع بالصبح ما دمتَ فيه
لا تخف أن يزول حتى يزولا

إنه يدعو إلى التمتع بجماليات الحياة وفوائدها وعدم تأجيلها والنظرة إليها بتفاؤل. وهو بذلك يذكّرنا بما دعا إليه عمر الخيام:

لا تشغل البال بماضي الزمان
ولا بآتي العيش قبل الأوان
واغنم من الحاضر لذاته
فليس في طبع الليالي الأمان

ويتخذ من بعض مظاهر الطبيعة دليلاً على ما يذهب إليه. فالطيور قد عرفت حقيقة الكون وأدركت سير عيشها تسرح في الحقول ولا يهمها أملكتها أم لم تملكها.
إنها تغرّد رغم أنها مهددة بالخطر من الصقور والصيادين .. ومع ذلك فهي تغني وترتل همسات الحب غير آبهة بكّر الزمان. وأبو ماضي يطلب من الإنسان أن يكون شبيهاً بالأطيار:

فاطلب اللهو مثلما تطلب الأطيار
عند الهجير ظلاً ظليلا
وتعلّم حب الطبيعة منها
واترك القال للورى والقيلا
فالذي يتقي العواذل يلقى
كل حين في كل شخصٍ عذولا

وعلى الرغم من أن الشاعر في قصائد كثيرة له ينحو هذا النحو الفلسفي أو التأملي، إلا أن الشاعرية لم تَجْفُ الشاعر ولم تَخُنْهُ. فهو شاعر في هذه القصائد كما هو شاعر في قصائد تنحو مناحي أخرى كالغزل أو الوطنية.

إذا أخذنا أشهر قصائده وهي قصيدة الطلاسم (لستُ أدري) وجدنا شاعرية أبي ماضي تتفتق عن ألف معنى وألف صورة يعوزها اليقين ولكن لا يعوزها الجمال، وروعة المعنى، وبفاعة الشاعرية وخصوبتها:

قد سألتُ البحر يوماً هل أنا يا بحرُ منكا؟
أصحيح ما رواه بعضهم عني وعنكا؟
أم ترى ما زعموا زوراً وبهتاناً وإفكا؟
ضَحكتْ أمواجه مني، وقالت:
لستُ أدري.

هذا البحر بالرغم من كونه مصدر الحياة، فإنه بنظر أبي ماضي أسير لا يملك أمره إذ مهما ثارت أمواجه واشتد غضبها، فهي لا تستطيع أن تتعدى ثبوتها حدود شاطئه:

أنت يا بحر أسيرٌ آه ما أعظم أسرك
أنت مثلي أيها الجبار لا تملك أمرك
أشبَهَتْ حالُك حالي، وحكى عذريَ عذرك
فمتى أنجو من الأسر وتنجو؟
لستُ أدري!

ولا تجفوه الشاعرية في قصائد أخرى ذات نفس طفولي. ففي قصيدة له بعنوان "الأسرار" يتمنى لو كان باستطاعته أن يتحول إلى لصٍ ليسرق من النسيم الساري في الضحى سرّ لطافته وانشراحه. وفي هذا المعنى ينوّع على فكرته الأثيرة عنده: الغبطة والفرح:

يا ليتني لصٌّ لأسرق في الضحى
سرّ اللطافة في النسيم الساري
وأجسّ مؤتلق الجمال بإصبعي
في زرقة الأفق الجميل العاري
ويبين لي كنه المهابة في الربى
والسرّ في جذل الغدير الجاري
وبشاشة المرج الخصيب، ووحشة
الوادي الكئيب، وصولة التيار
وإذا الدجى أرخى على سدوله
أدركتُ ما في الليل من أسرارِ

ويبدو أن أبا ماضي قد آلى على نفسه أن يكون رسول الطبيعة ليدل على مواطن الجمال فيها، وليحبب العيش بين أحضانها، والتقرب من كائناتها. فإذا ما وجد الناس يشكون الفقر، عاقبهم أشد العقاب، وأنبَهم أرق التأنيب:

كم تشتكي وتقول إنك معدم
والأرض ملكك والسما والأنجمُ
ولك الحقولُ وزهرُها وأريجُها
ونسيمُها والبلبلُ المترنمُ
والنور يبني في السفوح وفي الذرى
دوراً مزخرفة، وحيناً يهدمُ
فكأنه الفنان يعرض عابثاً
آياته، قدّام من يتعلّمُ

ولو أخذنا قصائد أبي ماضي في فنون الشعر الأخرى، المنشورة في دواوينه المعروفة مثل "الجداول" و "النهائل"، لتأكد لنا أنه امتاز في بستان الشعر العربي المعاصر بنكهة خاصة جعلته ثمرة متفردة في هذا البستان. وإذا كان كثيرون قد أخذوا عليه مآخذ شتى، فقد استعاض عن ذلك بقمم كثيرة رادها، وبمعانٍ جليلة، ورؤى ثاقبة قَصُر عن بلوغها شعراء كثيرون في زمانه.

ديوان اليوم ديوان الأمس

هامشي هو الدمع يأسرها

شعر / طلال الطويرقي

وحدها
لاتحب البكاءَ
ولا تعشق الدمع في أول النصِ
لكنها حين تترك دمعتها
يمطر النص......

***

وحدها
لا تحب حنين الدموع لأول جرحٍ
تشذبه في مخاض القصيدةِ
لكنها كلما كبرت دمعة في الوريدِ
تدثرني.....

***

هكذا حين تكتب أول نص
لجرح بريء وترحل ضاحكةً
في ضباب شفيفٍ .

***

الأنوثة تملؤها بالجمالِ
وتملؤني بالقصائد
والدهشة المترفةْ .
وفيما أحاول جمع القصائد بالجرحِ
تبكي ....

***



طفلة في النصوص المقفاةِ
تكبر نصاً قصيراً
وعند النصوص الطويلةِ
تذبل أمنيةً.

طفلة لا تراوغ إلا على الشعر والرمزِ
تكبر في المشهد الهامشيِّ
لنص قصير
لئلا تبوح على وترين لقلب جريحُ .

***

طفلة لا تحب البكاءَ
ولكنها تحتفي
بالنصوص القصيرة دمعاً



المرأة العاشرة في اللائحة... والفائزة الأولى بجائزة نوبل في النمسا

إلفريدة يلنيك

واجهت بقايا النازية.. وشخصياتها مكونة من اللغة

بدا فوز الكاتبة النمساوية إلفريدة يلنيك بجائزة نوبل للآداب مفاجأة للكثيرين؛ خاصة وأنها المرة الأولى التي تمنح فيها هذه الجائزة إلى شخصية نمساوية، والعاشرة فقط التي تمنح فيها إلى امرأة.

الزميل عبده وازن يعرض لنا سيرة هذه الأديبة النمساوية المعاصرة، شبه المجهولة في الوطن العربي، إضافة إلى مقطع من روايتها الشهيرة "عازفة البيانو" ترجمه بنفسه؛ لأن أعمال هذه الكاتبة لم تنقل إلى العربية حتى اليوم.

وإن اعتبر فوز إلفريدة يلنيك بالجائزة فوزاً للنمسا، فإن بعض المقرَّبين إلى السلطة، وأصدقاء الزعيم اليميني المتطرِّف يورغن هايدر لم يتحمَّسوا لهذا الفوز، بل امتعضوا منه. إذ إنَّهم لم ينسوا موقف هذه الكاتبة المتمرِّدة من السلطة واتهامها الزعيم هايدر بـ "النازيّ الجديد"، ولم يتوانوا عن اعتبار أنَّها "عفَّرت النمسا في الوحل"، وهم طالما حاربوها وأطلقوا عليها التهم جزافاً.

غير أنّ معظم الكتّاب النمساويين فرحوا بهذه الجائزة، حتى الروائي الكبير بيتر هاندكه، الذي يجايلها والمرشح بدوره لهذه الجائزة رحَّب بالفوز قائلاً: "إنه لأمر لا يُصدّق! رائع". أما الكاتب روبرت شيندل فيقول: "جائزة نوبل هذه هي مكافأة للنمسا الأخرى، التي ترفض العلاقة الغامضة جداً مع الماضي". وقال الكاتب جيرهارد رويس: "إنه عيد الفرح. هذه الجائزة هي عقاب لسياسة تقول: إن الأدب ليس إلا أمراً هامشياً ومادة لإضاعة الوقت".

> أعمالها الروائية والمسرحية متوافرة بمعظم اللغات ما عدا العربية التي لم تترجم إليها حتى الآن

كان لا بدّ من هذا المدخل لقراءة ظاهرة هذه الكاتبة المناضلة التي كما قيل عنها، "دقت مسماراً في تاريخ النازية"، فعلاقتها بالسلطة النمساوية شديدة الالتباس، وكذلك بالتاريخ النمساوي الحديث الذي وسمته النازية بعلامة سلبية جداً. وهذه القضية عبّرت عنها يلنيك في الكثير من أعمالها، الروائية والمسرحية، ساعية إلى فضح العلاقة التي جمعت ما بين النمسا والنازية خلال فترة من الزمن. ولكن بعيداً عن البعد السياسيّ الذي هيمن على السجال الذي ما زال دائراً حول الكاتبة والجائزة، فإنّ إلفريدة يلنيك استطاعت أن تسم الأدب والمسرح في النمسا وفي اللغة الألمانية عموماً، تاركة أثراً بيّناً على الجيل الذي أعقبها ولا سيما في ثمانينيات القرن الفائت وتسعينياته. وهذا ما لم يتمكّن منه أي كاتب آخر.

لقد تُرجمت أعمال يلنيك إلى لغات عالمية كثيرة على رغم صلابة لغتها وصعوبة نقلها من الألمانية إلى لغة أخرى. وأعمالها الروائية والمسرحية متوافرة بمعظم اللغات ما عدا العربية التي لم تترجم إليها حتى الآن. وقد تُظلم يلنيك إن وُصفت بـ "الكاتبة السياسية" و"المناضلة النسوية" فقط، فهي روائية وكاتبة مسرحية كبيرة، استطاعت أن "تصنع" لغة خاصّة بها وجعلت منها سلاحاً فنياً وجمالياً ضدّ آفات المجتمع الغربي الحديث وضدّ سياسة التمييز العنصري والطبقي.

استطاعت إلفريدة يلنيك أن تكون "هاجس" الحركة النازية الجديدة وصانعيها، وقد خاف هؤلاء من أدبها الذي يفضح الأكاذيب وينقل الحقائق ويذكر المواطنين النمساويين بالكثير من الأمور التاريخية التي يجب عدم نسيانها. ونظراً لدورها الأدبي المهم فقد حظيت بجوائز كثيرة ومنها: جائزة هنريش بول (1986م)، وجائزة بوخنر (1998م)، وجائزة هيني (2002م).

كاتبة وسيرة

طالما وصفت إلفريدة يلنيك بالمرأة "الخلاسية" دينياً وثقافياً، فوالدها المهندس العصامي، تشيكي الأصل يتحدر من طبقة فقيرة ولكن ذات اهتمام بالعلم والثقافة، وأمها نمساوية تنتمي إلى الطبقة البورجوازية. ولدت إلفريدة في العام 1946م في بلدة "ستيري" النمساوية، ومنذ الصغر سعت والدتها إلى تعليمها الموسيقى حالمة بمستقبل موسيقي باهر لها، وأدخلتها إلى معهد دينيّ في ڤيينا وكانت في الرابعة من عمرها حيث تعلّمت الرقص الكلاسيكي واللغة الفرنسية. لكنّ أمّها لم تلبث أن أجبرتها، وكانت قد بلغت السابعة من عمرها، على متابعة دروس في العزف على الكمان والبيانو إضافة إلى دروسها العادية. وفي السادسة عشرة من عمرها التحقت بالمعهد الموسيقي في ڤيينا. لكن الفتاة لم تحتمل الضغوط التي مارستها والدتها عليها؛ فمرضت وشهدت أزمة نفسية صعبة كادت أن تقضي عليها. ولعلّ هذه العلاقة المتوترة بينها وبين أمها ستكون مادّة روايتها البديعة "عازفة البيانو" حيث تستعيد جزءاً من سيرتها الذاتية ولكن من خلال شخصية أخرى تدعى "اريكا". وقد حفزتها "قسوة" أمّها على التمرّد لاحقاً ضدّ السلطة أياً كانت، ما عدا السلطة "الأبوية" كون والدها كما تقول، "كان غائباً دوماً".

اتجهت إلفريدة إلى اللغة التي لم تدفعها أمّها إليها مفضّلة الموسيقى، وتقول: "والدي شجّعني على تأكيد حضوري من خلال اللغة". وتضيف: "اليوم، بعد أن انحزت إلى مثال والدي واتبعت اللغة عوضاً عن الغوص في الموسيقى كما كانت ترغب والدتي، أسأل نفسي إن لم يكن هذا الأمر إنقاذاً لوالدي من والدتي وإنقاذاً لنفسي معه.

لكنني لا أقصد أن أقول إنّ أمي كانت شخصية سلبية تماماً، فهي كانت ذكية جداً ومتسلطة ومؤثرة".

منذ نهاية الستينيات باشرت إلفريدة نشر نصوصها الأولى وبعض القصائد. وحازت أولى جوائزها الأدبية الصغيرة. لقد بدأت شاعرة وكتبت بعض البرامج الإذاعية وكانت روايتها الأولى بعنوان "نحن طعوم يا طفلي" (1970م). وفي العام 1972م اتبعتها برواية ثانية هي "ميكايل"، وفي العام 1975م بثالثة هي "العشيقات" وفي 1980م برابعة هي "المُبعدون". والرواية هذه (المبعدون) استوحيت فكرتها من حادث حقيقي كان قد روّع النمسا بأسرها: إنها قصة أربعة مراهقين في خمسينيات القرن الفائت وتحديداً في مدينة فيينا، يتّحدون ويؤلفون عصابة ويشرعون في سرقة حقائب المارّة وضربهم وشتمهم. ودفعت هذه الأعمال بزعيم العصابة ويدعى راينر إلى ارتكاب مجزرة كبيرة قاتلاً عائلة بكاملها. لم تكتف رواية "المبعدون" طبعاً بسرد هذا الحادث المفجع وإنّما عمدت إلى فضح مجتمع يحاول أن ينسى ماضيه متناسياً "شياطينه"، وكأنه يحكم على أبنائه الجدد بأن يعيدوا اختلاق "أحوال التوحش" التي عرفها آباؤهم من قبل. وكان لا بدّ لهذه الرواية من أن تحظى برواج كبير على رغم معارضة السلطة لها. وفي العام 1983م أصدرت إلفريدة روايتها الجميلة "عازفة البيانو" وهي - كما أشرنا سابقاً - أشبه بالسيرة الذاتية التي تستعيد الكاتبة عبرها بعضاً من علاقات الماضي المتوتر والكئيب وخصوصاً علاقتها بأمّها التي كانت مسيطرة وقاسية. وبدت هذه الرواية أيضاً أقرب إلى التحليل القاسي في فضح "شخصية امرأة" من خلال الموسيقى أو باسمها. أما رواية "لوست" التي تلت "عازفة البيانو" فلم تكن أقل فضائحية منها. واللافت في هذا الكتاب أن صاحبته لم تعتمد لغة "نسائية" بل حاولت المراوغة كي تعيد إلى المرأة خطاب الرجل نفسه. أما رواياتها التي صدرت بعد "لوست" عام 1995م فقد كانت بعنوان "أطفال الموتى"، وفيها تعيد الكاتبة إحياء من تسمّيهم "موتى الأمة"، وتوزّعهم بين البشر الأحياء في نزل جميل يدعى "وردة جبال الألب" بغية أن تعاد إليهم حقوقهم، وأولها الحياة. يبرز في هذه الرواية هاجس "التاريخ النازي" الذي عرفته النمسا والذي طالما شغل وجدان إلفريدة وذاكرتها معاً، وهي في هذه الرواية تدّق مسماراً في هذا التاريخ الكريه. ولم تخلُ الرواية من الطابع المجازي أو "الاستعاري" الذي يرمز إلى النمسا وهي تنوء تحت ثقل ماضيها المتواري وسط ركام السنوات.

يتوزع أدبها بين الرواية، الشعر، والمسرح الذي صنع شهرتها في البداية

عالمها المسرحي الشاسع

علاوة على كون إلفريدة يلنيك روائية، وروائية طليعية، فهي كاتبة مسرحية أيضاً وقد يكون المسرح هو الذي صنع شهرتها في البداية. ومسرحيتها الأولى والشهيرة جداً هي "نورا" وقد صدرت في العام 1997م وهي أقرب ما تكون إلى "المعارضة" (كما يقول العرب) الدرامية لمسرحية "بيت الدمية" للكاتب النرويجي الشهير إبسن. تبدأ المسرحية على لسان "نورا" التي تقول: "لست امرأة تخلى عنها زوجها. أنا امرأة رحلت بإرادتها الصرف، وهذا أمر نادراً ما يحصل. أنا نورا، نورا التي كانت في مسرحية إبسن". ومن خلال هذه "المعارضة" تخيل إلفريدة ما يشبه التكملة لمسرحية "بيت الدمية". لكنّها تنقل المكان إلى النمسا وتجعل الزمان نهاية العشرينيات من القرن الماضي.

لا غرابة في أن تعتبر إلفريدة المسرح مكاناً "مركباً" أو "مصطنعاً". وفي رأيها أن على الممثلين ألا يعكسوا أيّ بعد سيكولوجي خلال أدائهم الأدوار. وتفترض أن اللغة المشغولة بإحكام، يجب أن تُلقى في شكل طبيعي، وأن تقدّم كما لو أنّها نوع من مسرح "الفودفيل". وتقول الكاتبة عن مسرحها: "لا أضع على خشبة المسرح شخصيات متباعدة السمات أو الملامح. فما أصنعه هو جعل الأفكار تلتقي. إن شخصياتي مساحات لغوية أو نمطية كما لو أنّها في ساحة الحرب. وهي لا توجد إلا عبر كلامها نفسه. عندما لا تتكلّم، تختفي". لعلّ هذا الكلام يدل على أهمية اللغة ليس في مسرح إلفريدة فحسب وإنما في رواياتها التي لا تخلو من التجريب اللغوي، والنزعة الأسلوبية اللذين يمنحان أعمالها صفات وخصائص غير معهودة في الأدب الألماني الحديث. فاللغة جزء من الشخصية الروائية والمسرحية، وهي الأداة التي تستخدمها الشخصيات لتحضر حضوراً حسّياً وفكرياً في آنٍ واحد.

كتبت إلفريدة يلنيك الكثير من المسرحيات وقد لقيت رواجاً في النمسا وألمانيا وبعض العواصم والمدن الأوروبية، وتولّى إخراجها عدد من المخرجين الكبار والجدد. وفي العام 1984م أصدرت الفريدة مسرحية "كلارا. ش" وهي تراجيديا موسيقية بطلتها امرأة أيضاً هي كلارا شومان التي تبوّأت في عصرها مرتبة اجتماعية راقية. إنها عازفة بيانو وقدّمت الكثير من المقطوعات الموسيقية التي وضعها كبار الموسيقيين، لكنّها ظلّت محصورة داخل سور دورها كأم وزوجة وكـ "امرأة فنانة". واجهت كلارا، كما تتبدّى في النص المسرحي، سلطتين ذكوريّتين: الأولى تتمثل في شخص زوجها الفنان العبقري والمجنون روبرت شومان والثانية سلطة التدمير البسيط الذي يجسده الشاعر المتطرف غابريل دانو نزيو. وفي هذه المسرحية تتأمل إلفريدة في "بنيات" التصرّف المثالي لبعض الأشخاص أو الوجوه التاريخية المعروفة، عبر مواقف هي أشبه بالمفاتيح التي تنقلها إلى عصر آخر، ليس هو عصرها ولا عصر الجمهور.

ومن أعمالها المسرحية "مرض أو نساء معاصرات" (1987م) وهي تدور حول نسوة هنّ "مصاصات دماء" يعشن من دماء الآخرين الذين هم رجال يعملون تحديداً في حقل الطب وخصوصاً الطب النسائي. وفي مسرحية "مطعم على الطريق" (1992م) تتناول حياة عدد من الأزواج يلتقون في مطعم ويتصرّفون كما يحلو لهم، متمتعين بوقتهم. إنهم أشبه بالأشخاص اللامبالين والفاقدين لأي إحساس بالحياة أو المسؤولية. إنهم أشخاص لا منتمون، مفتونون بما تقدم لهم الشاشة الصغيرة من أوهام صغيرة.

يصعب حصر عالم إلفريدة يلنيك في مقاربة نقدية لغزارة أدبها والموزّع بين الشعر والرواية والمسرح. فهذه الكاتبة المتمرّدة على ماضيها الشخصي وماضي بلادها التي أصابتها عدوى "النازية" طوال حقبة، لم تتخلّ البتة عن جماليات الكتابة اللغوية والشكلية ولا عن العمق النفسيّ والفلسفي الذي يكمن في صميم "الفعل" الأدبيّ. وبقدر ما عرفت إلفريدة يلنيك الشهرة أوروبياً وعالمياً، عرفت - وما زالت تعرف - حالاً من العزلة الشخصية التي أضفت على شخصها المزيد من الغرابة. وقد صرّحت غداة فوزها بجائزة نوبل بأنّها لن تذهب إلى استوكهولم لتسلّم الجائزة خوفاً من اللقاء بالجمهور، فهي على ما يبدو تعاني مرضاً نفسياً يُسمّى "أغورافوبيا" أو "رهاب الأماكن العامة".

الفائزات بجائزة نوبل

1909م
سيلما لاجرلوف (السويد)

1926م
غرازيا ديليدا (إيطاليا)

1928م
سيغريد اندست (النرويج)

1938م
بيرل باك (الولايات المتحدة الأمريكية)

1945م
غابريّلا ميسترال (تشيلي)

1966م
نيللي ساخس (السويد)

1991م
نادين غورديمير (جنوب إفريقيا)

1993م
توني موريسون (الولايات المتحدة الأمريكية)

1996م
فيسلافا شمبورسكا (بولونيا)

2004م
إلفريدة يلنيك (النمسا)

مقتطفات

"عازفة البيانو"..

مقطع من رواية لإلفريدة يلنيك

تندفع عازفة البيانو إريكا كوهوت كالإعصار إلى الشقة التي تتقاسمها مع أمها. تحب الأم أن تطلق على إريكا إعصارها الصغير؛ لأن الابنة تتحرك أحياناً بسرعة متناهية. إنها تحاول أن تهرب من أمها. إريكا تقترب من نهاية الثلاثين. بسهولة يمكن اعتبار الأم، وبالنظر إلى عمرها، جدة إريكا. بعد سنوات قاسية من الزواج رأت إريكا نور العالم. على الفور سلّم الأب الدفة إلى ابنته وانصرف. الابنة ظهرت على مسرح الحياة، والأب غادره. الضرورة علّمت إريكا أن تتحرك بسرعة. كحفنة من ورق الشجر الخريفي تمر من باب الشقة، محاولةً الوصول إلى غرفتها من دون أن يراها أحد. ولكن الأم تقف هناك بقامتها الشامخة، وتضبط إريكا. تضبطها وتحقق معها، ثم تصدر الحكم بالإعدام. محكمة تفتيش وفرقة إعدام في شخص واحد.. تتقصى الأم أسباب عودة إريكا الآن إلى المنزل، متأخرة إلى هذا الحد. التلميذ الأخير انصرف إلى بيته منذ ثلاث ساعات بعد أن أشبعته إريكا تهكماً. أتعتقدين أنني لن أعرف أين كنت يا إريكا؟ الطفلة ملزمة بتقديم إجابة لأمها من دونَ أن تسألها. لكن الأم لا تصدق طفلتها، لأنها تكذب. ستنتظر وتعد: واحد، اثنين، ثلاثة.

عند "اثنين" تبادر الابنة بتقديم إجابة تحيد عن الحقيقة. عندئذ تُنتَزع الشنطة المكتظة بالنوطات الموسيقية، فتحملق الإجابةُ المُرة عن كل الأسئلة في وجه الأم. أربعة مجلدات من سوناتات بيتهوفن تتقاسم بامتعاض الحيز الضيق داخل الشنطة مع فستان جديد، من الواضح أنها اشترته لتوها. على الفور، تشرع الأم في الهجوم على الفستان. في المحل، قبل قليل، بدا الفستان الذي اخترقته الدبابيس جذاباً، ملوناً، طيعاً، أما الآن فإنه يرقد مثل خرقة رخوة تخترقها نظرات الأم. فلوس الفستان كانت مخصصة لصندوق التوفير! لقد استُهلكت قبل الأوان. كان في إمكان المرء أن يستعرض هذا الفستان أمام عينيه في كل حين في هيئة مبلغ مقيد في دفتر توفير "صندوق البناء" التابع لمجموعة صناديق التوفير النمساوية؛ إذا تجشم المرء مشقة الطريق إلى صندوق الغسيل حيث يطل دفتر التوفير من خلف كومة من المناشف الكتان. أما اليوم فقد قام الدفتر برحلة، وتمت عملية سحب، والنتيجة يراها المرء أمام عينيه: على إريكا أن ترتدي هذا الفستان في كل مرة، إذا أراد المرء أن يعرف مصير النقود الجميلة.

الأم تصرخ: بددت بسفاهة نقوداً كنا سنحتاج إليها في ما بعد! كان بإمكاننا في ما بعد أن نشتري شقة جديدة، ولكن لأنك لا تستطيعين الانتظار، فكل ما تمتلكينه الآن هو خرقة ستخرج قريباً من عالم الموضة. الأم تريد كل شيء في ما بعد. لا تريد شيئاً فورياً. غير أنها تريد الابنة دائماً، وتريد دائماً أن تعرف أين تتصل بها عند الضرورة، إذا حامت أخطار ذبحة قلبية حول "ماما". تريد الأم أن تقتصد في الوقت، حتى تستطيع الاستمتاع بعد ذلك. ولكن إريكا تشتري فستاناً! فستاناً يبلى أسرع مما تختفي لحسة مايونيز على سندوتش سمك: هذا الفستان سيكون العام المقبل، بل الشهر المقبل، خارج الموضة. الموضة لا تصنع نقوداً أبداً.

(...)

المكان الذي تعيش فيه إريكا يتكون من غرفة صغيرة تستطيع أن تفعل داخل جدرانها ما يحلو لها. لن يعيقها أحد؛ لأن هذه الغرفة ملكها وحدها. أما مملكة الأم فهي تشمل كل ما عدا ذلك في الشقة، لأن ربة البيت، التي تهتم بأمر كل شيء، تعمل في كل مكان بالشقة، بينما تستمتع إريكا بثمار العمل المنزلي الذي تنجزه أمها. لم يكن على إريكا أن تجهد نفسها أبداً في الأعمال المنزلية، لأن تلك الأعمال ووسائل التنظيف تدمّر يدي عازفة البيانو. ما يقلق الأم أحياناً، في إحدى الاستراحات القليلة التي تسمح بها كي تلتقط أنفاسها، هي الملكية التي تتجلى في أشكال عديدة، فالمرء لا يستطيع أن يعرف مكان كل شيء بالضبط. إلى أين ذهبت هذه الحيازة المتحركة مرة أخرى؟ في أي الغرف تندفع وحدها أو مع آخر؟ إريكا الزئبقية، ذلك الشيء اللزج، تتمايل في هذه اللحظة في مكان ما وتمارس هراءها. ومع ذلك، تجد الابنة في كل يوم طريقها إلى المكان الذي تنتمي إليه، وتصل في الموعد المحدد بالثانية: إلى البيت. يتملك القلق الأم في كثير من الأحيان؛ لأن كل مالك يتعلم أول ما يتعلم، وهو يتعلم ذلك بعد تجارب مؤلمة، أن الثقة شيء جميل، لكن الاحتياط واجب. مشكلة الأم الرئيسة تكمن في أن تحتفظ بملكيتها قدر الإمكان في مكان ثابت حتى لا تهرب منها. جهاز التلفزيون يؤدي هذا الغرض، ذلك الجهاز الذي يُصنّع صوراً جميلة وموسيقى جميلة، ثم يغلفها ويوصلها إلى المنازل. بسببه تبقى إريكا في البيت بقاءً شبه دائم.

(...)

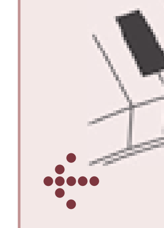
مهنة إريكا هي عشقها: الموسيقى (...).
تملأ الموسيقى كل وقت إريكا. لا مكان لوقت آخر لديها. لا شيء يثير البهجة مثل حفل موسيقي راقٍ، يعزف فيه أمهر الموسيقيين.

(...)

تعلن الأم أن إريكا تعجبها هكذا كما هي. لن تصبح بالتأكيد شيئاً أفضل. كان في إمكانها – وهو ما توفره إمكاناتها بسهولة لو كانت وثقت بي وحدي، بأمها – أن تصبح عازفة بيانو ماهرة تتعدى شهرتها حدود بلدها. غير أن إريكا كانت في بعض الأحيان – رغماً عن إرادة الأم – عرضةً للتأثيرات الخارجية، لحب مُتَخيَّل يكنّه رجل، ومعه تشتت ذهنها عن الدراسة، مظاهر خارجية مثل أدوات التجميل والملابس تجعل الرءوس القبيحة تلتفت إليها، وهكذا انتهى مستقبلها المهني قبل أن يبدأ فعلاً.

ولكن المرء يمتلك بالتأكيد شيئاً أكيداً: وظيفة مدرِّس بيانو في كونسرفتوار مدينة ڤيينا. حتى في سنوات التعلم والتدرب لم تجد نفسها مجبرة على الذهاب إلى إحدى تلك المدارس الموسيقية الصغيرة النائية، حيث يلفظ كثيرون أنفاسهم الشابة، بظهور منحنية وقامة مغبرة – سرب عابر، سريع الزوال، تابع للسيد المدير.

فقط هذا الزهو بالذات. الزهو الملعون. زهو إريكا جعل حياة الأم جحيماً، وزرع الشوك في عينيها. هذا الزهو هو الشيء الوحيد الذي على إريكا أن تتعلم التخلي عنه شيئاً فشيئاً. اليوم أفضل من الغد؛ لأنه يمسي مع الشيخوخة الواقفة على عتبة الباب عبئاً ثقيلاً. والشيخوخة في حد ذاتها عبء كافٍ. إريكا! هل كان عباقرة تاريخ الموسيقى مصابين بآفة الزهو؟ كلا، لم يكونوا. الشيء الوحيد الذي على إريكا أن تتخلى عنه هو الزهو. وإذا اقتضت الضرورة فستقوم الأم بإزالة كل النتوءات البارزة في شخصية إريكا حتى تصبح ملساء لا يعلق بها شيء زائد.



وهكذا تحاول الأم اليوم أن تنتزع من أصابع ابنتها المتشنجة الفستان الجديد، لكن هذه الأصابع متدربة خير تدريب. اتركيه، تصرخ الأم، أعطني إياه! لا بد من معاقبتك على طمعك وشهوة المظاهر عندك. حتى الآن أوقعت الحياة عليك عقوبة التجاهل، والآن ها هي أمك تعاقبك بالتجاهل أيضاً، على رغم أنك تتبهرجين وتضعين الألوان على وجهك مثل مهرج. أعطني الفستان!

تندفع إريكا فجأة تجاه خزانة ملابسها. تلبستها شكوك مظلمة، تأكدت صحتها من قبل مرات عدة. هناك شيء اختفى اليوم مثلاً، وتحديداً "التايير" الخريفي الرمادي الغامق. ماذا حدث؟ في الثانية التي تلاحظ فيها إريكا أن شيئاً غير موجود، فإنها تعرف أيضاً من المسؤول عن ذلك. إنه الشخص الوحيد المحتمل. يا بنت الذين، يا بنت الذين، تزأر إريكا في وجه السلطة الأعلى منها وهي تستشيط غضباً، ثم تنشب أظفارها في شعر الأم المصبوغ باللون الأشقر الداكن الذي غزاه الشيب عند الجذور. الكوافير أيضاً أسعاره غالية، ومن الأفضل ألا يذهب المرء إليه. مرة في الشهر تقوم إريكا بصبغ شعر أمها. إريكا تنتف الآن الشعر الذي جمّلته يداها. أخذت تشده والغضب يتملكها. الأم تصرخ وتبكي. وعندما توقفت إريكا عن الشد، وجدت يديها مملوءتين بخصلات الشعر، فتتطلع فيها صامتة مندهشة. لقد كسرت الكيمياء مقاومة هذا الشعر، والطبيعة أيضاً لم تصنع منه يوماً تحفة فنية. لم تعرف إريكا على الفور ماذا تفعل بهذا الشعر. وأخيراً تذهب إلى المطبخ، وتلقي في صندوق القمامة خصلات الشعر الداكنة التي مرت بمحاولات صباغة كثيرة فاشلة.

بشعر أقل تقف الأم منتحبةً في غرفة المعيشة التي كثيراً ما تقدم فيها إريكا حفلاتها الموسيقية الخاصة، حيث تكون أفضل الجميع، لأن أحداً لم يسبق له أن عزف على البيانو في هذه الغرفة على الإطلاق. ما زالت الأم تمسك بيديها المرتعشتين الفستان الجديد. إذا كانت تريد أن تبيعه، فلا بد من أن تسرع، لأن زهور الخشخاش هذه، التي تشبه في حجمها رءوس الكرنب، لن تلبسها المرأة سوى عام واحد، وبعد ذلك لن ترتديها أبداً. تشعر الأم بألم في رأسها حيثما فقدت خصلات الشعر.

ترجع الابنة وهي تبكي من الانفعال. تسبُّ الأم وتصمها بالحقارة والدناءة، وفي الوقت نفسه تأمل بأن تتصالح معها سريعاً، بقبلة حنونة. تتمنى الأم قطع يد إريكا التي ضربتها ونتفت شعرها. يتعالى نحيب إريكا تدريجاً، لأنها تشعر الآن بالندم والأسف من أجل الأم التي تضحي بعظمها وشعرها. تشعر إريكا إثر كل ما تفعله ضد الأم بالأسف. لأنها تحب أمها التي تعرفها منذ نعومة أظفارها.

في النهاية تلطِّف إريكا – كما هو متوقع – من حدة نبرتها، بينما راحت تنوح وتبكي بمرارة. بسرور، بكل سرور، تستجيب الأم وتلين، فلا يمكن أن تغضب على ابنتها غضباً حقيقياً. سأصنع قهوة لنشربها معاً. أثناء تناول القهوة يتزايد شعور إريكا بالتعاطف مع الأم، وتزدرد آخر بقايا غضبها مع قطعة الحلوى. تفحص الثقوب بين شعر الأم. لكنها لا تدري ماذا تقول، تماماً كما لم تدر ما تفعله بخصلات الشعر. مرة أخرى تشرع في سفح دمعات قليلة، كنوع من العناية المتأخرة؛ لأن الأم طاعنة في السن، ولأن حياتها ستنتهي وشيكاً. ولأن شبابها، وشباب إريكا أيضاً قد ولى إلى غير رجعة. وعموماً لأن هناك دوماً شيئاً يمضي، ونادراً ما يعقبه شيء.

تشرح الأم لابنتها الآن، لماذا ينبغي على البنت الجميلة ألا تتبهرج. توافق الابنة على ما تقول. هذه الثياب الكثيرة الكثيرة التي تعلقها إريكا في الخزانة، لأي غرض؟ إنها لا ترتديها أبداً. هذه الثياب معلقة بلا فائدة، فقط من أجل زينة الخزانة. لا تستطيع الأم أن تمنع دوماً عملية الشراء، ولكن ارتداء الثياب يدخل في حيز سلطتها. الأم تقرر المظهر الذي تخرج به إريكا من البيت. لن تخرجي هكذا من البيت، تقرر الأم؛ لأنها تخشى أن تخطو إريكا بهذه الثياب منازل غريبة تلتقي فيها رجالاً غرباء. إريكا نفسها توصلت إلى قرار بعدم ارتداء ملابسها. من واجب الأم مساعدة الأبناء على اتخاذ قرار، حتى لا يتخذوا قرارات خاطئة.

(...)

تتناول إريكا الفستان المسكين، وهي ما زالت تنتحب، ثم تضعه على ذراعيها، وتعلقه مغمومة صامتة في الخزانة بجانب الملابس الأخرى: (بدَل، جيبات، معاطف، تييرات). إنها لا ترتدي أبداً أياً منها. على الملابس فقط أن تنتظرها هنا إلى أن تعود في المساء إلى البيت. عندئذ تخرجها، وتضعها أمام جسمها، وتتأملها: إنها ملكها! صحيح أن باستطاعة الأم أن تنتزعها منها، وتبيعها، لكنها لا تستطيع أن ترتديها بنفسها؛ فبدانة الأم تحول للأسف دون أن تدخل في هذه الملابس الرشيقة. الثياب ليست على مقاس الأم. إنها تملكها كلها. تملكها. ملك إريكا. لم يحدس الفستان بعد بأن وظيفته في الحياة قد انتهت. من دون أن يستخدم سيُبعد إلى الخزانة، ولن يخرج منها أبداً. لا تريد إريكا سوى ملكيته والفرجة عليه. إنها لا تريد حتى ارتداءه على سبيل البروفة، يكفي أن تمسك أمامها بهذه القصيدة من قماش وألوان، وأن تحركها في خفة. وكأن نسمة ربيعية تسري فيها. في البوتيك، قبل قليل، ارتدت إريكا الفستان الذي لن ترتديه بعد الآن. إنها لم تعد تستطيع حتى تذكر تلك الجاذبية العابرة التي انبعثت من الفستان في المحل. كل ما تملكه الآن هو جثة جديدة من الثياب، إلا أنها تمتلكها على كل حال.

(...)

البؤس في الموضوع هو أن عمليات شراء الثياب تطيل المهلة إلى غير نهاية، حتى ينتقلا إلى الشقة الجديدة، وإريكا ستكون دوماً في خطر أن يلتف حول عنقها رباط حب. وفجأة تجد قنبلة ذكورية موقوتة. غداً، على الإفطار، ستتلقى إريكا بالتأكيد تحذيراً صارماً بسبب رعونتها وطيشها. كان يمكن أن تموت الأم بالأمس من جراء الجروح في رأسها، من الصدمة. ستحصل إريكا على مهلة للدفع، عليها أن تعطي المزيد من الدروس الخصوصية.

لحسن الحظ، فإن المجموعة البائسة ينقصها فستان زفاف. لا تتمنى الأم أن تغدو (أم العروسة). تريد أن تبقى أماً عادية. إنها تتواضع وتكتفي بهذه الصفة.

لكن اليوم هو اليوم. والآن لا بد أخيراً من النوم! هكذا تطلب الأم وهي راقدة على فراش الزوجية. إلا أن إريكا ما زالت تحوم حول المرآة. الأوامر تصيبها كالرماح في ظهرها. بسرعة تتحسس مرة أخرى فستاناً أنيقاً لفترة ما بعد الظهر، بزهور على حافته. لم تتنفس هذه الزهور يوماً هواء طلقاً، كما أنها لا تعرف الماء. اشترت إريكا الفستان، كما تؤكد، من أرقى محلات الموضة في وسط المدينة. جودة ستعيش إلى الأبد، أما المقاس المناسب فيتوقف على جسم إريكا. لا تفرطي في الحلوى والمعجنات! من أول نظرة إلى الفستان تولدت لدى إريكا رؤية: سألبسه سنوات عدة، من دون أن يحيد قيد أنملة عن مكانه في مركز الموضة. سيحافظ الفستان سنوات طويلة على مكانته في الموضة! تُنقل هذه الحجة عبثاً إلى آذان الأم. لن يصبح الفستان أبداً موضة قديمة. على الأم أن تفحص قلبها بصرامة لتجيب عن السؤال الآتي: ألم ترتدِ يا أماه في شبابك فستاناً على هذا النحو؟ الأم تنفي ذلك مبدئياً. لكن إريكا تصل مع ذلك إلى أن شراء الفستان كان عملية مربحة، لأن الفستان لن يتقادم أبداً، وسترتدي إريكا الفستان بعد عشرين عاماً كما ترتديه اليوم.

الموضة تتغير سريعاً. والفستان يظل في مكانه من دون أن يرتديه أحد، ولكن في أفضل حال. بيد أن أحداً لا يجيء ويطلب رؤيته. أفضل أيامه مرت من دون فائدة، ولن تعود ثانية، وإذا عادت، فلن يحدث ذلك قبل عشرين عاماً.

قول آخر

مراكز الأبحاث في الوطن العربي

د. نبيل بن عبدالرحمن المحيش*

لعلّ من البديهي أن نشير إلى أهمية وجود مراكز للبحوث في وطننا العربي وبالتالي نتساءل: كم عدد هذه المراكز؟ وما عدد العلماء الباحثين فيها؟ ومادورها في مجتمعاتنا العربية؟.

يشير أحد الباحثين إلى أن عدد المراكز البحثية في الوطن العربي يتجاوز 300 مركز، وهناك 1000 منظمة لها علاقة بالبحث والتطوير، ويوجد 100,000 عالم وباحث، وأكثر من 200 جامعة [1].

إن المتأمل لواقع هذه المراكز يجد أن بعضها فاعلٌ وله دوره الريادي، ولكن معظمها غير فاعل وذي تأثير ضعيف.

وإذا بحثنا عن أسباب هذا الضعف وجدنا أنها تكمن فيما يلي:

1 – عدم الإيمان بجدوى هذه المراكز من قبل صانعي القرار السياسي في الوطن العربي ومايمكن أن تقدمه من منافع إستراتيجية.

2 – قلة الإنفاق على البحث العلمي في الوطن العربي (يتراوح ما بين 0.14 في المئة و 0.36 في المئة من الدخل القومي العربي) في حين يبلغ في الدول المتقدمة (من 0.18 في المئة إلى 3 في المئة) وإسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية هما الدولتان الأكثر إنفاقاً حيث يصل في إسرائيل إلى 3 في المئة من الدخل القومي.

3 – إهمال الجامعات العربية لمثل هذه المراكز، بينما نجد أن الجامعات الغربية تزخر بمراكز بحوث مرموقة.

4 – ضعف الاهتمام بالعلماء والباحثين العرب، وهذا مادعاهم إلى الهجرة والعمل في مراكز الأبحاث الغربية؛ حيث يجدون التقدير المادي والمعنوي.

5 – ضعف سياسات البحث العلمي في الدول العربية، ولهذا يؤدي إلى نتائج سلبية على التعليم والبحث.

6 – مشكلة التمويل: كثير من مراكز البحوث العربية لديها مشروعات كبيرة ولكنها تعاني من مشكلة العجز المالي، وهذا مايدفعها إلى الاعتماد شبه الكامل على الدعم من الحكومات العربية، بينما يمكن للقطاع الخاص أن يسهم بدرجة كبيرة في دعم وتمويل مشاريع البحث العلمي. فمن المعروف أن مايقرب من 70 في المئة من ميزانية الإنفاق على البحث العلمي في الولايات المتحدة تأتي من القطاع الخاص، ويمكن الاستفادة من نظام الوقف الإسلامي لإيجاد عائد مادي كبير ومستمر، وحث التجّار على دعم هذه المراكز. كما يمكن إنشاء مراكز بحوث عربية في الغرب والاستفادة من المراكز الموجودة بحكم تمتعها بالعيش في مجتمعات متقدمة، وهذه قد تكون أكثر فائدة لنا من المراكز الموجودة في الوطن العربي لسهولة مشاركة الباحثين فيها في الندوات والأبحاث التي تجرى هناك، مما يساعد في تقديم صورة صحيحة عن مجتمعاتنا العربية والإسلامية ويرد على كل من يحاول الإساءة إليها.

* أستاذ مساعد في الأدب العربي – جامعة الإمام محمد بن سعود

(1) بحث للدكتور عبدالله النجار رئيس المؤسسة العربية للعلوم والتكنولوجيا من ضمن أبحاث المؤتمر الأول للفكر العربي، القاهرة 2002م

الملف

إنها أم القرى وقبلة المؤمنين "فلنولينك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره" (البقرة 144). فكيف يمكن لملف من صفحات محدودة أن يفيها حقها، ومئات الكتب لم تكفِ لذلك؟

مكة المسجد الحرام.. يعرفها العالم بأسره، وكثيرون يعرفون معالم المدينة وأعلامها. ولكن لهذه المدينة المكرمة ملامح وزوايا لا يعرفها الكثيرون.

في هذا الملف يجول بنا الأستاذ حسين محمد بافقيه، رئيس تحرير مجلة «الحج والعمرة» في مكة التي نعرفها ومكة التي لا نعرفها، لمناسبة اختيارها عاصمة للثقافة الإسلامية لعام 1426هـ / 2005م.



Webistan

منذ اللحظة الأولى التي وُلِدَتْ فيها مكَّة المكرَّمة كان اتصالها بالنَّاس والحياة، وكان إقبالها على الآخر الذي أشرعتْ له أبوابها، وكأنَّها، وهي وادٍ مجدب غير ذي زرع، أرست نموذجاً للمدينة الكونيَّة، فهي، أبداً، تحبّ النَّاس وتهشّ في وجوههم، وهي، أبداً، لا توصد أبوابها في وجه الغرباء الذين عرفتْهم وأنست لهم. وكانت مكَّة المكرَّمة في زمن الجدب والمَحْل، كما في زمن الدَّعة والرَّخاء، أمّاً للغرباء، كما هي "أم القرى"، وكأنَّ نماءها وحياتها يكمنان في ذلك التجاذب بين الوجوه والأمكنة، وكأنَّ قصَّتها التي استمع إليها التاريخ منذ ستة آلاف سنة مع اللغات والسَّحنات جديدةٌ كما هي، وطريَّةٌ كما كانت.

هبَة الحجّ

وُلِدَتْ مكَّة المكرَّمة يوم أمر الله – تبارك وتعالى- نبيَّه وخليله إبراهيم –عليه السلام- بدعوة النَّاس إلى الحجّ إلى البيت الحرام، وكانت تلك اللحظة الخالدة في تاريخ البشريَّة ميلاداً لتلك البقعة التي خلَّدها وحي السماء في قوله تعالى: ﴿وإذْ بوَّأنا لإبراهيم مكان البيت أنْ لا تُشرك بي شيئًا وطهِّر بيتي للطائفين والقائمين والرُّكَّع السجود • وأذِّنْ في النَّاس بالحجّ يأتوك رجَالاً وعلى كلِّ ضامرٍ يأتين من كلِّ فجٍّ عميق • ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيَّام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ (الحجّ: 26-28).

وما بين "الأذان" و"الاستجابة" تألَّف تاريخ مكَّة المكرَّمة في هذا الوادي المجدب غير ذي الزَّرع، وشاء له الله –تبارك وتعالى- أنْ يكون خالصاً لعبادته، فمكَّة المكرَّمة مستقرّ العبادة، ومحجّ المؤمنين بالرسالة الحنيفيَّة، وساغ أنْ تُقرن والحجّ في قِرَان واحد، بل لعلَّها أنْ تكون هبَة الحجّ، فلولا الحجّ ما كانتْ، وفي ذلك من المقاصد ما فيه، حين يحيط بهذه المدينة معنى دينيّ خلُصتْ له وخلُص لها: ﴿إنَّ أوَّل بيتٍ وُضِع للنَّاس للذي ببكَّة مباركاً وهدىً للعالمين • فيه آياتٌ بيِّنات مقامُ إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على النَّاس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإنَّ الله غنيّ عن العالمين﴾ (آل عمران: 96-97).

وبين الجدب والمحْل اللذين انطوى عليهما ذلك الوادي غير ذي الزرع، وبين جموع الحجيج التي تتوافد إليه، تسيل في البطاح ضروب من الشوق المبرأ ممَّا سوى الخلوص للعبادة، فلا شيء مطلقاً من مخايل الدنيا يَزْحَم ذلك المقصد الدينيّ، فالمكان مجدب، قاحل، ممحل، ولكنَّه، مع ذلك، ممتلئٌ بالمعنى، فيَّاض بالرؤى، حافل بالإشراق، حين لا يجد المؤمنون فيما سواه معاني الامتلاء الروحي، والريّ الدينيّ اللذين يسوقان قاصديه وقد أقبلوا عليه من كلّ فجٍّ عميق، يذرعون البراري والفلوات والمهامة، ويكابدون في سبيل الوصول إليها ألواناً من التَّعب، وضروباً من النَّصَب، وقِطَعاً من العذاب، في قصة من "العشق الإلهيّ" الذي يشتعل في مخيّلة من قصدها حاجّاً أو معتمراً، وكأنَّ قلوب هؤلاء وهؤلاء تهوي إليها من مكان عليّ، وقد توقَّدت الأفئدة وازداد خفقان وجيبها ﴿فاجعل أفئدة من النَّاس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلَّهم يشكرون﴾ (إبراهيم: 37)، وتستعِر كلمات اللغة، وهي تتمسَّح بأعتاب المعنى، يُضْمِره قوم، ويُفْصِح عنه آخرون أمضَّهم الشوق كما أمضَّ الرحَّالة ابن بطوطة في رحلته الشهيرة إليها، حين قال:

"ومن عجائب صنع الله تعالى أنَّه طبع القلوب على النّزوع إلى هذه المشاهد المنيفة، والشوق إلى المثول بمعاهدها الشريفة، وجعل حبّها متمكناً في القلوب فلا يحلّها أحد إلا أخذت بمجامع قلبه ولا يفارقها إلا آسفاً لفراقها، متولّهاً لبعاده عنها، شديد الحنين إليها، ناوياً لتكرار الوفادة إليها، فأرضها المباركة نُصب الأعين ومحبّتها حشو القلوب حكمة من الله بالغة، وتصديقاً لدعوة خليله، عليه السلام، والشوق يُحْضِرها وهي نائية، ويمثلها وهي غائبة، ويهون على قاصدها ما يلقاه من المشاقّ ويعانيه من العناء، وكم من ضعيف يرى الموت عياناً دونها، ويشاهد التلف في طريقها، فإذا

Magnum

الوادي الذي كان قاحلاً يضج بالمؤمنين والحياة

جمع الله بها شمله تلقَّاها مسروراً مستبشراً كأنّه لم يذق مرارة، ولا كابد محنة ولا نصَباً".

دعوة إبراهيم - عليه السلام -

لقد استقرّ في أعماق مكة المكرمة صدىً من دعوة الأب الرحيم إبراهيم -عليه السلام- وهو يشرئبّ ببصيرته إلى مستقبل ذلك الوادي، وها هو ذا يرفع دعاءه إلى الله -تبارك وتعالى- أنْ يشمل ذلك الوادي برعايته، وأنْ يمدّه بأسباب الحياة، ففيه بعضٌ من ذريّته، وفيه مستقبل الدين الحنيف: ﴿ربَّنا إنّي أسكنتُ من ذريّتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرَّم ربَّنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من النّاس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلّهم يشكرون﴾ (إبراهيم: 37).

ويستجيب الله -تبارك وتعالى- لدعاء خليله إبراهيم -عليه السلام- وتستقرّ تلك الدعوة المباركة في روح مكّة المكرّمة، ويتحوَّل ذلك الوادي الممحِل إلى مجتمع إنسانيّ متفرِّد في تنوّعه وتعدّد قاطنيه وقاصديه، وفي انفتاحه على الآخر، وتصبح مكّة المكرّمة مضرب المثل في وفرة محصولاتها وتنوع أسباب الحياة فيها، فهذا الرحّالة ابن جبير الأندلسيّ في القرن السادس للهجرة يفغر فاه دَهَشاً وعجباً، وقد عاين بنفسه وفرة الخيرات فيها. يقول:

"هذه البلدة المباركة سبقت لها ولأهلها الدعوة الخليليَّة الإبراهيميَّة، وذلك أنَّ الله عزّ وجلّ يقول على لسان خليله - عليه السلام -: ﴿فاجعل أفئدة من النّاس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلّهم يشكرون﴾ (إبراهيم: 37)، وقال عزّ وجلّ: ﴿أوَلَم نُمَكّن لهم حرماً آمناً يُجبى إليه ثمرات كل شيْء﴾ (القصص: 57).

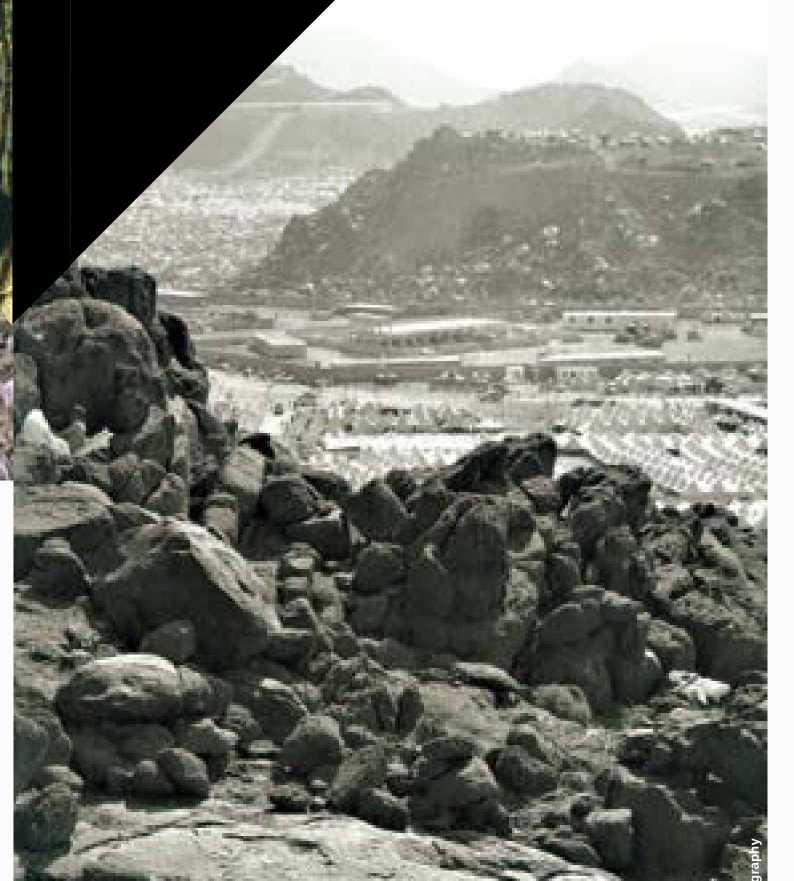
فبرهان ذلك فيها متصل إلى يوم القيامة، وذلك أنَّ أفئدة النَّاس تهوي إليها من الأصقاع النَّائية والأقطار الشاحطة، فالطريق إليها ملتقى الصادر والوارد ممَّن بلغتْه الدعوة المباركة، والثمرات تُجبى إليها من كل مكان، فهي أكثر البلاد نعماً وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر.

ولو لم يكن لها من المتاجر إلا أوان الموسم، ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب، فيباع فيها في يوم واحد- فضلاً عمَّا يتبعه من الذخائر النفيسة كالجوهر والياقوت وسائر الأحجار، ومن أنواع الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعود والعقاقير الهنديَّة، إلى غير ذلك من جلب الهند والحبشة، إلى الأمتعة العراقيَّة واليمانيَّة، إلى غير ذلك من السلع الخراسانيَّة والبضائع المغربيَّة إلا ما لا ينحصر ولا ينضبط- ما لو فُرِّق على البلاد كلّها لأقام لها الأسواق النَّافقة، ولعَمّ جميعها بالمنفعة التجاريَّة.

كلّ ذلك في ثمانية أيَّام بعد الموسم، حاشا ما يطرأ بها -مع طول الأيَّام- من اليمن وسواها، فما على الأرض سلعة من السِّلع، ولا ذخيرة من الذخائر، إلا وهي موجودة فيها مدّة الموسم، فهذه بركة لا خفاء بها، وآية من آياتها التي خصَّها الله بها.

وأمَّا الأرزاق والفواكه وسائر الطيِّبات، فكنَّا نظنّ أنّ الأندلس اختصَّت من ذلك بحظّ له المزيَّة على سائر حظوظ البلاد، حتَّى حللنا بهذه البلاد المباركة، فألفيناها تغصّ بالنِّعم والفواكه: كالتين والعنب والرمَّان والسَّفرجل والخوخ والأترج والجوز والمقل والبطيخ والقثّاء والخيار، إلى جميع البقول كلّها كالباذنجان واليقطين والسلجم والجزر والكرنب إلى سائرها، إلى غير ذلك من الرياحين العبقة والمشمومات العطرة".

وهذا أمير البيان الأمير شكيب أرسلان يعيش الدّهَش نفسه عند منتصف القرن الرابع عشر الهجريّ، وقد قصدها حاجّاً:


Stock Photography
قلب مكة قلب العالم

SpaceImaging
صورة جوية للحرم المكّي

"وهم إذا وصلوا إلى مكة وجدوا عندها من الثمرات والخيرات ما لا يجدونه في البقاع التي تشقّها الأنهار، وتظلّلها الأشجار. وذلك أنَّ المجلوب إلى مكة من أصناف الحبوب والخضراوات والفواكه والمحمول إليها من البضائع والمتاجر واللباس والفراش والرياش والطيب وغير ذلك يفوق ما يُجلب إلى عشر مدن من أمثالها في عدد السكان وربّما أكثر.

ولا يكاد الحاجّ يشتهي شيئًا إلا ويجده في هذه البلدة القاحلة، فَحَوْلَ مكّة من المزارع والمباقل والمباطخ والمقاثي، وفي جبال الطائف من الجنان والبساتين والكروم ما لا يأخذه العَدّ، وما لا يُدْرَك منه شيْء في فصل من الفصول إلا انحدر به أهله إلى مكّة، فالثمرات التي دعا إبراهيم ربّه من أجلها تفيض على البلد الأمين كالسيل المتدفّق، أو العارض المغدق".

عبقريَّة المكان

ويتجلَّى في مكَّة المكرَّمة ما يمكن عدّه صورة لعبقريَّة المكان، تلك العبقريَّة التي تنهض فيها على "الضدّ" من حقيقتها الجغرافيَّة، فهي المكان المجدب الممتلئ بالنَّاس؛ والوادي غير ذي الزرع الذي يُجْبى

إليه ثمرات كلّ شيّء، والأرض القاسية التي تبثّ ألوان الرحمة والتعاطف فيمن وطئها، والمكان العاطل من مظاهر الحياة المؤلِّف لروح النَّاس والباثّ المعنى في حيواتهم. كلّ ذلك باد في شخصيَّة هذا الوادي وشخصيَّة أبنائه، فمكَّة المكرَّمة مدينة حضريَّة حتَّى لو أحاطت الصحراء بها من كلّ صوب إحاطة السوار بالمعصم، وحلّ شيّء من روحها وشخصيّتها في أبنائها، فجعلوا يخلعون على بلدتهم معاني الاستقرار والتحضُّر، وكان للبيت الحرام أنْ دفع أبناءها إلى الاستقرار دون النّجعة والترحُّل.

وحين شعروا بقسوة الجغرافيا ووطأة المناخ خَفَّ القرشيّون إلى التجارة، دفعاً لغائلة الدهر وأسباب الجفاف، واستقلالاً بأنفسهم عن أن يكونوا تبعاً لأحد، فأصبحت مكَّة المكرَّمة درباً تجاريّاً مهمّاً لقوافل التجَّار في الهزيع الأخير من الجاهليَّة، وكانت تجارة "الإيلاف" التي ورد خبرها في القرآن الكريم جِمَاع تلك الشخصيَّة التي انطوت عليها روح المكيّين قبل الإسلام، وتهيَّأ لمكَّة المكرَّمة ولأبنائها الزعامة والمكانة، فانقادت القبائل العربيَّة إليها، وانساب لسانها في لغات القبائل، وانبنت شخصيَّة تلك المدينة على روح متميزة، حين توزَّعت السلطة فيها على بطون الملأ من قريش، فأنشأ القرشيّون لهذه الغاية "دار النَّدوة" لتداول الرأي فيما يلمّ بمكَّة المكرَّمة من أحداث، وحين شعروا أنَّ خطراً اجتماعيّاً سيجثم على واديهم، ويبثّ أضرباً من الصراع بين الفقراء والأغنياء، نهض ثُلَّة من كبرائها لدفع ما يعتبرونه خطراً عن واديهم، بفرض ما يُشبه الضريبة على أموال تجارة قوافلهم، تُوَزَّع على الفقراء، وتُسْكِتُ صوت الجوع والحاجة، وتنفث في المجتمع نسائم الاستقرار والرَّخاء، وتسدّ الفجوة بين الغنيّ والفقير:

والخالطينَ غنيَّهم بفقيرهم
حتَّى يصيرَ فقيرُهم كالكافي

وبينما أطلَّت رءوس البطش والطغيان تفتك في أوصال المجتمع وتُشرِّع للظلم والجبروت، هَبَّ نفر من القرشيّين فأقاموا "حِلْف الفضول"، و"تحالفوا بينهم أنْ لا يُظْلَم بمكَّة أحد، إلا كنَّا جميعاً مع المظلوم على الظالم، حتَّى نأخذ له مظلمته ممَّن ظلمه شريف أو وضيع منَّا أو من غيرنا".

وحينما ذرَّت في الأفق شمس الإسلام، مضيئة ساطعة، تحوَّلت مكَّة المكرَّمة إلى مدينة كونيَّة، فهي قبلة المسلمين، وإلى بيتها الحرام يحجّ من استطاع إليه



Magnum

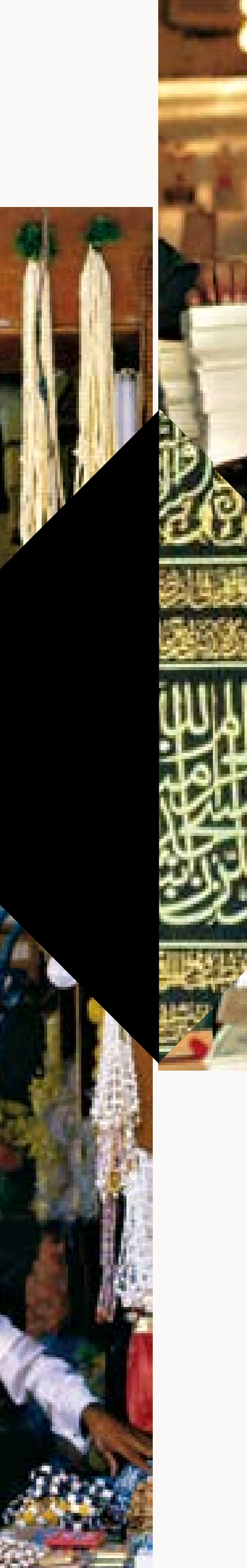
من أسواق مكة: كتب..

أدباء مكيّون

- أحمد السباعي: قاص وروائي
- طاهر زمخشري: شاعر
- حمزة شحاتة: شاعر وكاتب
- إبراهيم فلالي: شاعر وقاص وناقد
- حسن عبدالله القرشي: شاعر وقاص
- عبدالله عبدالجبار: ناقد أدبي
- حامد دمنهوري: روائي
- حمزة بوقري: روائي ومترجم
- أحمد عبدالغفور عطّار: شاعر وقاص ولغوي ومحقق وصحفي
- محمد حسن فقي: شاعر

سبيلاً، وأصبحت رمزاً للتوحيد الخالص لله –تبارك وتعالى-، يتعالى في وديانها، وتتجاوب جبالاها، وينساب في بطحائها، مع قدوم الحاجّ إليها- نداء التوحيد الخالص:

لبَّيْكَ اللهمّ لبَّيْك
لبَّيْكَ لا شريك لكَ لبَّيْك
إنَّ الحمدَ والنّعمةَ لكَ والمُلْك
لا شريكَ لك



Stock Photography

.. ومسابح للحجاج والمعتمرين

مكَّة التي لا نعرفها

وفي مكَّة المكرَّمة، وحين نغور في أعماق التاريخ، تتجلّى صفة تميَّزت فيها عن غيرها من المدن. فهي مدينة تُحبّ الغرباء وتأنس لهم، وفي مقدورنا العودة بهذه الصفة المكيَّة التي جُبِلَتْ عليها، إلى اللحظة التي تفجَّر ماء زمزم في صحرائها المُحْرِقة، وكان ذلك حين انبجس الماء المبارك من تحت قدم الرضيع إسماعيل –عليه السلام– وقد كابدت أمّه السيِّدة هاجر –عليها السلام- صنوفاً من المشقَّة والآلام بحثاً عن قطرة ماء تبلِّل بها شفة ابنها، وحين أوشكا على الهلاك انبجس الماء المبارك، ومع الماء تكوَّنت الملامح الأولى لمكَّة المكرَّمة، وتألَّفت معالم الاجتماع الإنسانيّ فيها، وتجلَّت الشخصيَّة المكيَّة المحبَّة للغرباء، والمقبلة عليهم، حين استضافت السيِّدة هاجر –عليها السلام- قبيلة جُرْهُم، وقاسمتْهم وابنها الماء والمكان، ولم يصدّها شعورها بالفقد والهلاك عن أنْ تُشْرِك الآخرين فيما أفاء اللّه به عليها من واسع فضله، فعُرِفَتْ مكَّة المكرَّمة، منذ تلك اللحظة، بانفتاحها على الآخر، واستقبالها للغرباء، وخفَّف ذلك من غلواء المكان وجدبه، ودفع بالمكيّين أنْ يتحلَّوا، إلى يوم النَّاس هذا، بصفات السماحة والتنعُّم والظَّرف ولين الجانب وخفَّة الظلّ، وكان من أثر ذلك ما قرَّره التاريخ من ولع المكيّين بكلّ ما يُدْخِل البهجة عليهم، فكان للنزهة والإقبال على الحياة مكان، وامَّحتْ من أنفسهم، أو كادت، مداخلتهم للطبيعة القاسية التي جُبِلَت عليها مدينتهم.

مدينة الكتاب

حقَّق الحجّ لبيت اللّه الحرام الفرصة سانحة لأنْ تصبح مكَّة المكرَّمة مجْمَعاً للعلوم والثقافة والكتاب، ففيها يلتقي علماء الأمَّة، من المشرق والمغرب، فكانت الرحم التي يتخلَّق فيه الأدب والعلم والكتاب. يقول حمد الجاسر عن هذه المنزلة التي تهيَّأت لمكَّة المكرَّمة دون غيرها من البلاد:

"ولقد كانت مكَّة –ولا تزال- نقطة التقاء ومركز تجمُّع لجميع المسلمين من مختلف الأقطار الإسلاميَّة، ولهذا كانت من أقوى مراكز نشر الثقافة بين تلك الأقطار، وكانت صلة وصْل بين علماء الأقطار الإسلاميَّة في شرق البلاد وغربها، وشمالها وجنوبها، في مختلف العصور الماضية... وكان العلماء في العصور الأولى يقصدونها من مختلف أقطار العالم الإسلاميّ ليؤدّوا ركنًا من أركان دينهم أداؤه فرض، وليضيفوا إلى ذلك أمورًا من أهمِّها التزوُّد بزاد العلم والمعرفة، فالعالِم يفد إليها من أقصى المشرق أو المغرب فيلتقي بعالِم

آخر من بلاد بعيدة عن بلاده فيحصل من هذا الالتقاء تقارب وتفاهم، واستزادة علم، وامتدادٍ لروافد المعرفة، وانتشارٍ للأفكار بينً مختلف الأقطار الإسلاميَّة".

ويدهش المرء، حين يجيل بصره في كتب الرحلات الحجازيَّة والتراجم والسِّيَر، لذلك النَّشاط العلميّ الباذخ الذي شهدتْه مكَّة المكرَّمة، والذي كان من أظهره مجاورة نفر من العلماء في مسجدها الشريف، وحصول طلبة العلم على الإجازات من علمائها، وانقطاع كوكبة من العلماء إلى المجاورة فيها، مدَّة تطول أو تقصر، كجار اللّٰه الزمخشريّ صاحب تفسير "الكشَّاف"، ومجد الدين الفيروز آباديّ صاحب "القاموس المحيط"، والمتصوِّف الأكبر محيي الدين ابن عربي صاحب "الفتوحات المكيَّة"، وابن هشام الأنصاريّ صاحب "أوضح المسالك"، والحافظ السخاويّ صاحب "الضوء اللامع"، وجلال الدين السيوطيّ صاحب التآليف الشهيرة... وسواهم.

مؤلَّفات أمام البيت العتيق

ومن أظهر معالم النَّشاط الثقافيّ في مكَّة المكرَّمة تلك الظاهرة التي ألمح إليها غير كتاب في التراجم والسِّيَر، وهي ظاهرة تأليف الكتب أمام الكعبة المشرَّفة، أو في مكَّة المكرَّمة، قَصْدَ الحصول على الأجر والمثوبة، والرغبة في أنْ يَعُمَّ الكتابَ المؤلَّفَ نفحاتٌ من بركة المكان المقدَّس، فيذيع شأنُه، ويزكو خطابه، ودفع ذلك إلى أنْ تغدو مكَّة المكرَّمة بيئة مهمَّة من بيئات التأليف في التراث العربيّ القديم.

وترك لنا التاريخ أخبار طائفة من العلماء والأدباء الذين ألَّفوا أو أتمّوا مؤلَّفاتهم في مكَّة المكرَّمة، ولعلّ من أشهرهم الإمام البخاريّ الذي أتمّ كتابه "الجامع الصحيح" في المسجد الحرام؛ وجار اللّٰه الزمخشريّ الذي ألَّف تفسيره الشهير "الكشَّاف" في ظلال الكعبة المشرَّفة، وكان من طول مجاورته أنْ لُقِّب بـ"جار اللّٰه"؛ ومجد الدين الفيروز آباديّ، الذي يحلو له أنْ



غرائب اللهجة المكية

- المَرْمَصَة: ثوب مِمَرْمص أيْ قطعة قماش تكون على غير وضعها الطبيعيّ الذي يجب أنْ تكون عليه.
- المَرْمَشَة: نهش ما على العظام من بقايا اللحم.
- الزَّبْلَحَة: التوقُّح في الكلام.
- السَّلْقحة: هي الترزُّل، كأنْ يَغْشَى شخص معارفه وأصدقاءه أوقات الانتفاع بما لديهم من مطعم أو مشرب أثناء تجمُّعهم وقيْلاتهم.
- الفَرْتَكة: بعثرة الأشياء، وتفرُّق الجماعة.
- الدَّرْدَبَة: الدَّحْرَجة.
- الدَّرْبَكة: الجَلَبة والضجيج.
- اللَّغْوَصَة: نقل الكلام بين اثنين ممَّا يسوء.
- الدَّنْدَشَة: تزيين الشيْء وتزويقه.
- الشُّوْشَرَة: إيجاد الضوضاء والجَلَبَة في الكلام والتشويش.
- الْبَنْجَخَة: الإسراف والتظاهر بالكرم واليُسْر وسعة العيش.
- الْمَرْقَعة: المَيَاعة والتَّكَسُّر في المشي والحركة.
- التَّرْيَقَة: بمعنى الاستهزء والسُّخرية.
- الدَّحْلَسَة: التلطُّف لنيل المطلوب، أو المَلَق.

من كتاب "مكَّة في القرن الرابع عشر الهجريّ"، محمد عمر رفيع

SAUDI ARAMCO WORLD PADIA

مصطلحات مكية

- الطَّهَار: الخِتَان
- الممْلِك: المأذون الشرعيّ
- الدَّبَش: جهاز العروس
- الدَّايَة: القابلة
- الشرشورة: مكان غسل الموتى
- القُبُوري: من يتولَّى دفن الموتى

كُنَى وألقاب مكّيّة

- عُمَر: أبو سراج
- حسن: أبو علي
- حسين: أبو هلال
- يوسف: أبو يعقوب
- فاطمة: فَتُّو
- مريم: مَنَّة
- عبد اللّٰه: عَبَادي
- عبد الرحمن: الوجيه

حارات مكة القديمة

سوق الليل، شِعْب عليّ، شِعْب عامر، السليمانيَّة، المعابدة، النَّقا، جَرْوَل، الفَلْق، القَرَارة، الشَّاميَّة، أجياد، القَشَاشِيَّة، الشُبَيْكة.



MAKKAH PUBLISHING

صورة من مكّة القديمة .. وجوه وأزياء وحياة اجتماعية

يذيِّل اسمه بعبارة "المستجير بحرم الله"، وقد ختم معجمه الشهير "القاموس المحيط" بهذه الفقرة المهمَّة:

"قال مؤلِّفه –رحمه الله تعالى- هذا آخر القاموس المحيط، والقاموس الوسيط. عُنيتُ بجمعه وتأليفه، وتهذيبه وترصيفه، ولم آلُ جهدًا في تلخيصه وتخليصه واتقانه، راجيًا أنْ يكون خالصًا لوجه الله الكريم ورضوانه. وقد يسَّر الله تعالى إتمامه بمنزلي على الصفَّا بمكَّة المشرَّفة. تجاه الكعبة المعظَّمة، زادها الله تعالى تعظيمًا وشرفًا، وهيَّأ لقُطَّان باحتها من بحابح الفراديس غُرَفًا، ونفع بهذا الكتاب المكتسي من بركتها إخواني، وحسَّنه بالقبول من حُسْنه الغواني من لطائف المعاني، وأجزل من فضله العميم ثوابي، وجعله نورًا بين يديّ يوم حسابي".

ومما يروى في شأن تأليف الكتب في مكة المكرَّمة، ما ذكره النَّحويّ الشهير ابن هشام الأنصاريّ في مقدِّمة كتابه الذائع الصيت "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب":

"وقد كنتُ في عام تسعة وأربعين وسبعمئة أنشأتُ بمكة –زادها الله شرفًا- كتابًا في ذلك منوّرًا من أرجاء قواعده كلّ حالك، ثمّ إنَّني أصبت به وبغيره في منصرفي إلى مصر. ولَمَّا مَنَّ الله تعالى عليّ في عام ستَّة وخمسين بمعاودة حرم الله، والمجاورة في خير بلاد الله، شمَّرتُ عن ساعد الاجتهاد ثانيًا، واستأنفتُ العمل لا كسلاً ولا متوانيًا، ووضعتُ هذا التصنيف، على أحسن إحكام وترصيف، وتتبَّعتُ فيه مُقْفَلات مسائل الإعراب فافتتحتُها، ومعضلات يستشكلها الطلاّب فأوضحتُها ونقَّحْتُها، وأغلاطًا وقعت لجماعة من المعربين وغيرهم فنبَّهتُ إليها وأصلحتها".

النّداء على الكتب

هيَّأ موسم الحجّ والتقاء كوكبة من علماء الأمَّة في رحاب مكَّة المكرَّمة، أنْ جعلها مدينة الكتاب صدقًا، فكم من كتاب جُلِبَ إليها، وكم من مصنَّف ارتحل منها، ففيها من أسباب الاتصال العلميّ والثقافيّ ما لم يتحقَّق لما سواها، حتَّى أصبحت أمّ القرى الفرصة الأخيرة للسؤال عن كتاب مفقود، لم يجده عالم أو أديب في بلده، فينشط بعض العلماء لاستغلال موسم الحجّ للبحث عن كتاب أعياه طِلابه، فيؤجِّر لذلك مناديًا يغشى الأمكنة المزدحمة، مستفسرًا عن كتاب بعينه، فلعلَّه واجده بعد فقد. روى ياقوت الحمويّ في "معجم الأدباء"، عن ابن الإخشاد النحويّ هذا الخبر:

"ذكر أبو عثمان في أوَّل "كتاب الحيوان" أسماء كتبه ليكون ذلك كالفهرست، ومرَّ بي في جملتها "الفرق بين النبيّ والمتنبئ" و"كتاب دلائل النبوَّة"... فأحببت أنْ أرى الكتابين، ولم أقدر إلا على واحد منهما، وهو "كتاب دلائل النبوَّة"... فهمَّني ذلك وساءني في سوء ظفري به، فلمَّا شخصتُ من مصر ودخلتُ مكَّة، حرسها الله تعالى، حاجًّا أقمتُ مناديًا بعرفات ينادي، والنَّاس حضور من الآفاق على اختلاف بلدانهم وتنازُح أوطانهم وتبايُن قبائلهم وأجناسهم من المشرق والمغرب ومن مهبّ الجنوب، وهو الذي لا يشبهه منظر: "رحم الله من دلَّنا على كتاب الفرق بين النبيّ والمتنبئ لأبي عثمان الجاحظ على أيّ وجه كان"!

معرض إسلاميّ

ومن دلائل شخصيَّة مكَّة المكرَّمة ذلك التنوُّع الفسيفسائيّ الذي يبدو في انصهار الأجناس والأعراق، ففيها من كلّ جنس وعرق جذر، وفيها من كلّ لغة ولهجة أثر، وأصبح ذلك جزءًا أساساً من شخصيَّة المكان والمجتمع، وحتَّى ليصعب تصوُّر مكَّة المكرَّمة دون هذا التنوُّع في الأصول، وأورثها ذلك نسيجًا عجيبًا في العادات الاجتماعيَّة، وفي ضروب المأكل والمشرب والملبس، وفي انتخاب المكّيّين، والحجازيّين عامَّة، لنمط عجيب من الكلام واللهجة، يجعل اللهجة المكّيّة –والحجازيّة- فريدة في مجتمعات الجزيرة العربيَّة، في ميلها إلى السهولة واللين في صوغ الكلمات ونطق الأصوات، حتَّى لو أخنى ذلك على العربيَّة الفصيحة في بعض أحرفها وكلماتها.

وأصبح من أشْيع مظاهرها الاجتماعيَّة أنَّها مدينة تعجّ بالغرباء، وتقيم عيشها ومرافقها على هذا الأساس، وكان من السائغ أنْ يطلق عليها اسم "المعرض الإسلاميّ"، كما يقول الرحَّالة المصريّ محمد لبيب البتنونيّ، في أثناء زيارته لمكَّة المكرَّمة عام 1326هـ/1908م:

"ومن اختلاط هذه الأجناس بعضهم ببعض بالمصاهرة أو المعاشرة صار سواد أهل مكَّة خليطًا في خُلُقهم: .. وتراهم جمعوا بين رقة الحضارة وقشف البداوة: فبينما ترى الرجل منهم قد آنسك برقَّة حديثه معك، وَضَعَته بين يديك، إذ هو قد استوحش منك وأغلظ في كلامه، حتَّى كأنَّ طبيعة البداوة تغلَّبت فيه على طبيعة الحضارة فلم يُطِق ما تكلَّفه في حضرتك. وقد وصل هذا الخلط إلى أزيائهم التي تراها مجموعة مختلطة من أزياء البلاد الإسلاميَّة: عمامة هنديَّة، وقِفطان مصريّ، وجُبَّة شاميَّة، ومِنْطقة تركيَّة".

أناقة مكّيَّة

وحين زار ابن جبير الأندلسيّ مكَّة المكرَّمة بهره ولع المكّيّين وشغفهم بالأناقة والتفنُّن، وبخاصَّة تفنّنهم في صناعة الحلوى، التي لعلَّها أنْ تكون خصيصة لأهل مكَّة المكرَّمة المشغوفين إلى عصرنا الحاضر بأطايب الحلويَّات المشهورة كـ"اللدّو"، و"المعمول"، و"الدبيازة"، و"المشبَّك"... إلخ. يقول ابن جبير:

"وأمَّا الحلوى فيُصْنَع منها أنواع غريبة من العسل والسكّر المعقود على صفات شتَّى، أنَّهم يصنعون بها حكايات (أي: أشكال) جميع الفواكه الرطبة واليابسة، وفي الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان يتصل منها أسمطة بين الصفا والمروة، ولم يشاهد أحد أكمل منظرًا منها، لا بمصر ولا بسواها، قد صُوِّرت منها تصاوير إنسانيَّة وفاكهيَّة،

أسماء مكّة المكرّمة

نظم القاضي أبو البقاء بن الضياء الحنفيّ أسماء مكّة المكرّمة شعراً:

لمكة أسماء ثلاثون عُدِّدت
ومن بعد ذاك اثنان منها اسم مكة

صلاح وكوثي والحرام وقادس
وحاطمة، البلد، العريش بقرية
ومعطَّشة، أمّ القرى، ورتاجة
ورأس رتاج أمّ كوثى كبيرة
سبوحة عرش أمّ رحم عريشها
كذا حرم البلد الأمين كبلدة
كذا اسمها البلد الحرام لأمها
والمسجد الأقصى الحرام تتمت

وما كثرة الأسماء إلا لفضلها
حباها بها الرحمن من أجل كعبة

من تجارات المدينة

وجُلِّيَتْ في منصَّات كأنَّها العرائس، ونُضِّدتْ بسائر أنواعها المنضَّدة الملوَّنة، فتلوح كأنَّها الأزاهر حُسنًا، فتقيِّد الأبصار، وتستنزل الدرهم والدينار"!

أمَّا ابن بطّوطة فلم يفته أنْ يقرِّر ما اشتُهرتْ به المرأة المكّيّة من تديُّن وتعفُّف وجمال وأناقة، فقال:
"وأهل مكَّة لهم ظَرْف ونظافة في الملابس، وأكثر لباسهم البياض فترى ثيابهم أبدًا ناصعة ساطعة ويستعملون الطِّيب كثيرًا ويكتحلون ويكثِّرون السِّواك بعيدان الأراك الأخضر. ونساء مكَّة فائقات الحُسْن، بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف، وهُنَّ يُكْثِرْنَ التطيُّب حتَّى إنَّ إحداهنَّ لتبيت طاوية وتشتري بقُوتها طيبًا! وهُنَّ يقصدنَ الطواف بالبيت في كلِّ ليلة جمعة فيأتين في أحسن زيّ، وتغلب على الحرم رائحة طيبهنَّ، وتذهب المرأة منهنَّ فيبقى أثر الطِّيب بعد ذهابها عبقًا".

بحيرة من الشموع

ويسترعي الانتباه ما رواه نفر من الرحَّالين –قديماً وحديثًا– من ولع المكّيّين وشغفهم بالاحتفالات والمناسبات التي لا يكاد يخلو منها شهر، وفي كثير من الأحيان لا يكاد يخلو منها يوم، فمكَّة المكرَّمة، فيما مضى لها من أيَّام، لم يكن لأبنائها من نشاط اقتصاديّ يقوم بأودهم سوى الحجّ، فينشطون فيه لادّخار أكبر قدر من المال، ويعتاشون عليه طول أيَّام العام، أمَّا فيما سوى ذلك فليس ثمَّة سوى التفرُّغ للعلم، أو السفر، أو الأنس بالاحتفالات والمناسبات التي حفلت بها حياتهم.

ومن أعجب ذلك ما سطَّره الرحَّالة ابن جبير الأندلسيّ، قبل نحو ألف عام، من احتفال المكّيّين بالعشر الأواخر من شهر رمضان المبارك، في المسجد الحرام:
"وصُفَّ المقام الكريم بمحراب من الأعواد المشرجبة المخرَّمة، محفوفة الأعلى بمسامير حديدة الأطراف على الصِفَة المذكورة، جُلِّلتْ كلّها شمعًا، ونُصِبَ عن يمين المقام ويساره شمع كبير الجِرْم في أتوار تناسبها كِبَرًا، وصُفَّت تلك الأنوار على الكراسي التي يصرفها السَّدَنة مطالع عند الإبقاء، وجُلِّلَ الحجر المكرَّم كلّه شمعًا في أنوار من الصُّفْر، فجاءت كأنَّها دائرة نور ساطع، وأحدقت بالحرم المشاعيل، وأُوقِد جميع ما ذُكِر.

وأحدق بشرفات الحرم كلّها صبيان مكَّة، وقد وُضِعَت بيد كلّ (واحد) منهم كُرَة من الخرق المشبعة سليطًا، فوضعوها متَّقِدَة في رؤوس الشُّرُفات، وأخذت كلّ طائفة منهم ناحية من نواحيها الأربع، فجعلت كلّ طائفة تباري صاحبتها في سرعة إيقادها، ويُخَيَّل للنَّاظر أنَّ النَّار تثب من شُرْفة إلى شُرفة لخفاء أشخاصهم وراء الضوء المرتمي الأبصار، وفي أثناء محاولتهم لذلك يرفعون أصواتهم بـ"يا ربّ يا ربّ" على لسان واحد، فيرتجّ الحرم لأصواتهم"!

مستشفى الغُرَباء ووقْف الصواني

ولَمَّا كانت مكَّة المكرَّمة مجتمعاً ضاجّاً بالغرباء الذين يقصدونها من كل فجّ عميق، وطاب لعدد كبير منهم المجاورة فيها والمقام بها– فإنَّ أثر ذلك بدا واضحاً في معايش أبنائها وأحوالهم، وتمثَّل ذلك في نظام الأوقاف –هذا الجانب العبقريّ في الحضارة الإسلاميَّة– الذي أثمر عن عدد من الأوقاف في مكَّة المكرَّمة، في انسجامها مع الطبيعة الدينيَّة والاجتماعيَة للبلد الحرام، واشتُهِرت، عبر تاريخها، بنماذج رائعة

أوليات

- أوّل ما ظهر الثلج بمكة في مصنع الثلج للحاج نسيم الشامي سنة 1339هـ.
- أوّل سيَّارة ظهرت بمكة هي سيَّارة الشريف الحسين بن عليّ سنة 1338هـ.
- أوّل ظهور أقلام الجيب بمكة سنة 1334هـ.
- أوّل ظهور الكهرباء بالمسجد الحرام سنة 1346هـ.
- أوّل مصحف طُبع بمكة بخطّ محمد طاهر الكردي سنة 1369هـ.

من كتاب "التاريخ القويم لمكة والبلد الكريم"، محمد طاهر الكردي المكّيّ

MAKKAH PUBLISHING

الحوت والسمك الطريّ بمكة المكرَّمة

"ولم يكن في العصور الماضية يوجد بمكة المكرَّمة شيء من الحوت الأخضر، أي الحوت الطريّ الجديد الخارج من البحر، وإنَّما كان المعروف في مكة نوعان من الحوت فقط، هما: الحوت المقليّ بالزيت، وهذا كان يأتي إليها من جدَّة مقليًا، وكانوا يضعونه في أقفاص من جريد النَّخل ليتخلَّله الهواء في تنقُّله من جدَّة إلى مكَّة، وكانوا يرسلونه إلى مكَّة مع الحَمَّارة (بتشديد الميم)، فيصل إليها من جدَّة في ليلة واحدة فقط، أيْ كانوا يرسلونه قبيل المغرب من جدَّة فيصل إلى مكَّة في الصباح، فالحِمَار الجيِّد يقطع المسافة من جدَّة إلى مكَّة في ليلة واحدة، وما كانوا يرسلونه على الجِمَال لأنَّها تقطع المسافة بين البلدتين في ليلتين، لأنَّ الجَمَّالة (بتشديد الميم) لا يمشون بالنَّهار مطلقاً خوفاً من حرارة الشمس، فهم بالنَّهار يقيلون في قرية بَحْرَة وهي منتصف الطريق بين مكَّة وجدَّة– فكان الحوت المقلي إذا وصل إلى مكَّة المكرَّمة قَلَوْه مرَّة أخرى في الدكاكين ثمّ يبيعونه خوفاً من تغيُّره وخرابه– هذا الحوت المقليّ الذي يعرفه أهل مكَّة من قديم العصور والأزمان".

من كتاب "التاريخ القويم لمكة والبلد الكريم"، محمد طاهر الكردي المكّيّ

SAUDI ARAMCO WORLD PADIA

رسم شعبي أنيق للحرم المكّي وجواره

طريف الأمثال المكية

- وَرّي المجنون قُرْصه يعْقَل: يُضرَب مثلاً في الحضّ على المصارحة والصدق.
- يخطف الكبيبة من وجه القِدْر: يُضرَب مثلاً لمن يتعجَّل فَهم ما يُقال له دون فهمه لحقيقة القول.
- بدران طاح على سردان: بمعنى: استعان بمن لا يستطيع نفعه، بل هو أعجز منه.
- صَفَقْ صَفَقْ ما جَمعْ حَتَّى وَفَقْ: معناه: إنَّ الطيور على أشكالها تقع.
- لا ينْطَحْ ولا يَقُولْ إمْبَاعْ: بمعنى: لا يُحسِن قولاً ولا فعلاً.
- إيْش تسَوّيْ المَقَيْنَهْ في الوجه الغلسْ: معناه: لا يُصلح العطَّار ما أفسد الدهر.
- اللّي عنده مُخْ يِجِخْ: معناه: المقتدر يفعل.
- اللّي يِبْغَى الدَّحْ ما يْقُولْ أحْ: معناه: ومن يطلب الحسناء لا يُغْله المهر.

من كتاب "مكة في القرن الرابع عشر الهجري"، محمد عمر رفيع

MAKKAH PUBLISHING





MAKKAH PUBLISHING

من الأوقاف التي لم تَدَعْ ناحية من أنحاء حياتها وحياة أبنائها وحياة من قصدها من الحجَّاج والمجاورين، فثمَّة أوقاف محبوسة على حَمَام الحرم، وثمَّة أوقاف لكفن الموتى من الغرباء.

غير أنَّ من طريف الأوقاف وعجيبها في مكَّة المكرَّمة ما ذكره الرحَّالة المصريّ اللواء إبراهيم رفعت باشا في رحلته "مرآة الحرمين"، في أثناء حجّته عام 1318هـ/1901م، عن "مستشفى الغرباء والفقراء"، هذا المستشفى الذي أُنْشِئَ عام 1086هـ، بالجهة الشرقيَّة من المسجد الحرام، في زمن السلطان الغازي محمد خان الرابع، وهو، كما ينبئ عن ذلك اسمه، مختصّ بالغرباء من الحُجَّاج الذين لا يجدون ما يسدّ عَوَزَهم ويخفِّف من آلام المرضى منهم.

وذكر الأمير شكيب أرسلان في تعليقاته على كتاب "حاضر العالَم الإسلاميّ" جانبًا من الأوقاف الطريفة التي رآها في مكَّة المكرَّمة. يقول:
"وفي مكَّة المكرَّمة وَقْف مخصَّص ريعه لمنع الكلاب من دخول مكَّة المكرَّمة، ووَقْف لإعارة الحُلِيّ والزِّينة للعروس في الأعراس والأفراح، بحيث إنَّ عامَّة الفقراء، لا بلْ الطبقة المتوسّطة يرتفقون بهذا المعهد الخيريّ، فيستعيرون منه ما يلزمهم من الحُلِيّ لأجل التزيّن في الحفلات ويعيدونه إلى مكانه، فيتيسَّر للفقير أن يَبْرُز يوم عرسه بحلَّة رائعة، ولعروسه أن تتحلَّى بحليَة سائغة مما يجْبُر خاطرها، وكذلك يستغني الفقير المتوسط الثروة عن أنْ يشتري ما طاقة له به".

أمَّا الاحتفالات والمناسبات المكّيّة، وما أكثرَها! فلم تكن خلوًا من الأوقاف. ومن ذلك ما ذكره المؤرِّخ المكّيّ محمد طاهر الكرديّ في كتابه "التاريخ القويم لمكَّة وبيت اللّه الكريم"، من أنَّ "بعض البُخَاريّين، من سكَّان مكَّة المشرَّفة، قد أوقف للّه تعالى ما يملكه بمكَّة، وهو بستان البخاري المشهور، بمحلَّة المسفلَة، لعمل الولائم لكلّ من أراد ذلك، ولقد جعل من أدوات الطبخ ولوازمه من القدور والتَّبَاسي والصَّواني والصحون والملاعق وغيرها شيئًا كثيرًا، وذلك من بعد سنة 1200 هجريَّة، توالى على هذا البستان، بعض النُّظَّار إلى يومنا هذا".

مؤسسات ثقافية وتربوية في مكّة

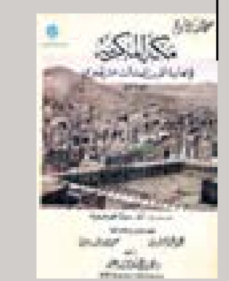
- مكتبة الحرم: وهي من أهم مكتبات العالم الإسلامي، ويعود تاريخها إلى عدة قرون. وتحتوي على مئات المخطوطات المهمة، وخاصة التاريخ المكي.
- مكتبة مكة المكرمة: وتضم مخطوطات بالغة الأهمية لعلماء مكة المكرمة في العصور المتأخرة، وتقع في موقع المولد النبوي الشريف.
- المطبعة الميرية: وهي أول مطبعة في مكة المكرمة، وقد أنشأتها الحكومة العثمانية عام 1300هـ / 1882م.
- مطبعة الترقي الماجدية: وهي أول مطبعة أهلية. أنشأها محمد ماجد الكردي المكي عام 1327هـ / 1909م.
- صحيفة «حجاز»: وهي أول صحيفة تصدر في مكة المكرمة. أنشأتها الحكومة العثمانية عام 1326هـ / 1908م، وصدرت باللغتين التركية والعربية.
- صحيفة «القبلة»: أول صحيفة تصدر في مكة المكرمة في عهد الأشراف. أنشأها الشريف حسين بن علي عام 1334هـ/1916م.
- صحيفة «أم القرى»: أول صحيفة تصدر في مكة المكرمة في العهد السعودي. أنشأها الملك عبدالعزيز عام 1343هـ/1924م.
- صحيفة «صوت الحجاز»: أول صحيفة أهلية تصدر في مكة المكرمة في العهد السعودي. أنشأها مجموعة من المثقفين عام 1351هـ/1932م.
- جمعية الإسعاف الخيرية: جمعية أهلية أنشأها عدد من الأعيان والأدباء في مكة المكرمة عام 1354هـ/1935م، وكان الغرض من إنشائها إسعاف الجنود المحاربين والعناية بالتوعية الصحية، ثم ما لبث أن تحولت قاعتها وردهاتها إلى الاهتمام بالمحاضرات الثقافية والأدبية التي شارك فيها نخبة من الأدباء السعوديين. ومن أشهر محاضراتها «الرجولة عماد الخُلُق الفاضل» لحمزة شحاتة.
- **المدرسة الرشديّة:** أول مدرسة تتبنّى التعليم الحديث في مكة المكرمة. أنشئت عام 1301هـ/1884م.
- **المدرسة الصولتية:** أنشأها في مكة المكرمة الشيخ محمد رحمة اللّه العثماني عام 1292هـ/1875م، وقامت بتمويلها الثرية الهندية صولة النساء، وأطلق اسمها عليها، ولا تزال المدرسة قائمة إلى عصرنا الحاضر.
- **مدرسة الفلاح:** أنشأها الثري محمد علي زينل في جدة عام 1323هـ/1905م، ثم أنشأ مدرسة الفلاح بمكة المكرمة عام ١٣٣٠هـ/١٩١٢م.
- **كلية الشريعة:** وهي أول كلية جامعية تؤسس في المملكة العربية السعودية، وأنشئت في مكة المكرمة عام 1369هـ.
- **جامعة أم القرى:** وأنشئت في مكة المكرمة عام 1401هـ/1981م.



من قصيدة للشاعر اللبناني سعيد عقل

SAUDI ARAMCO WORLD PADIA

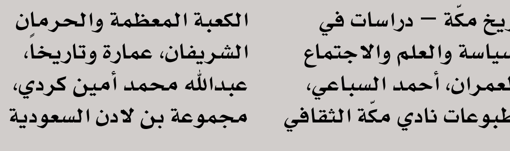
من المكتبة المكية



صفحات من تاريخ مكّة المكرّمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري للمستشرق ك. سنوك هورخرونيه، نقله إلى العربية وعلّق عليه محمد بن محمد السرياني ومعراج بن نواب مرزا

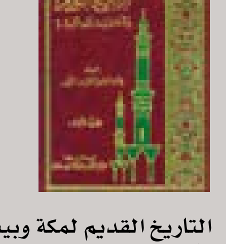


توسعة الحرمين الشريفين، في عهد الملك فهد ابن عبدالعزيز آل سعود، للكاتبة الأميرة هيا بنت محمد بن عبدالعزيز آل سعود

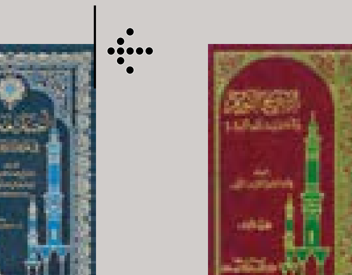


تاريخ مكّة – دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، أحمد السباعي، مطبوعات نادي مكّة الثقافي

الكعبة المعظمة والحرمان الشريفان، عمارة وتاريخاً، عبدالله محمد أمين كردي، مجموعة بن لادن السعودية

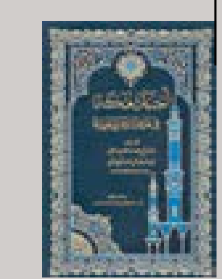


الحياة الثقافية في مكّة المكرّمة من القرن التاسع عشر الميلادي، يحيى محمود بن جنيد كتاب الرياض، العدد 100، مارس 2002م



التاريخ القديم لمكة وبيت الله الكريم، محمد بن طاهر الكردي المكي

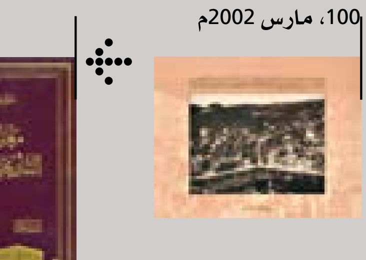




أخبار مكّة في قديم الدهر وحديثه، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي المكي (من علماء القرن الثالث الهجري) تحقيق أ. د. عبد الملك ابن عبد الله ابن دهيش.



المكتبات في مكّة المكرّمة، أ. د عبد اللطيف عبد الله ابن دهيش، جامعة أم القرى، 1422هـ



الأطلس المصوّر لمكّة والمشاعر المقدّسة، دارة الملك عبد العزيز

معالم مكّة التاريخية والأثرية عاتق بن غيث البلادي، دار مكّة



